

التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِيُّ

الدُّكُورُ فَاضِلٌ صَّالِحُ السَّامِرَاتِي

أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد

المجلة
عفو الله له ولوالديه

دراسات بيانية في الأسلوب القرآني

١

2009-09-01

www.alukah.net

التجويد القرآني

الدكتور فاضل صالح السامرائي

أستاذ بكلية الآداب - جامعة بغداد



المجلة
عفو الله له ولوالديه

٢٠٠٦-١٤٢٧ هـ

رقم الاجازة المتسلسل ١٩٨/٢/١٩٩٨ م

* - تم اعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ص. ب. ۸۵۷ - عمان ۱۱۱۱۸



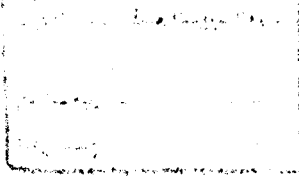
التَّعْبِيرُ الْقُرْآنِي

المسألة
عز وجل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾

قرآن کریم



«إن هذا القرآن مآدبةُ اللهِ فاقبلوا مآدبته ما استطعتم. إن هذا القرآن حبلُ الله والنورُ والشفاءُ النافعُ. عصمةٌ لمن تمسك به ونجاةٌ لمن اتبعه، لا يزيغ فيستعجب، ولا يعوجّ فيقوم، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقُ من كثرة الردّ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كلّ حرفٍ عشر حسانات. أما إني لا أقول ألّم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف».

حديث شريف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً والصلاة والسلام على رافع لواء الهدى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والداعين بدعوته وبعد:

فقد كنت أسمع من يقول: إن القرآن معجز وإنه أعلى كلام وإنه لا يمكن مجاراته أو مدانته وأن الخلق أجمعين لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا. وقد قرأت في كثير من الكتب نحواً من هذا القول. وكنت أرى في هذا غلواً ومبالغة، دفع القائلين به حماسهم الديني وتعصبهم للعقيدة التي يحملونها. وكنت أقرأ كثيراً من التعليقات التي يستدل بها أصحابها على سمو هذا التعبير كارتباط الآيات ببعضها وارتباط فواتح السور بخواتيمها وارتباط السور بعضها ببعض واختيار الألفاظ دون مرادفاتها ونحو ذلك فلا أراها علمية وأجد كثيراً منها متكلفاً، وكنت أقول: إنه لو كان التعبير على غير ذلك لعللوه أيضاً فإن الإنسان لا يعدم تعليلاً لما يريد، إلا أنه بمرور الزمن وبعد اطلاعي على مؤلفات أحسبها غير قليلة في كتب اللغة والتفسير والإعجاز والبلاغة ونحوها - وذلك بحكم اختصاصي - بدأت أميل إلى تصديق هذه المقولة، فقد اتضح لي أن قسماً غير قليل مما كُتِبَ بروح علمية عالية وأن كثيراً مما كتب لا أزال أراه الآن كما كنت أراه من قبل.

ثم قررت أن أدرس النص القرآني بنفسني فبدأت أُجري موازنات بين كثير من الآيات من حيث التشابه والاختلاف في التعبير، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف وما إلى ذلك من أمور لغوية وبلاغية ومعنوية وأفحصها فحصاً دقيقاً فراعني ما رأيت من الدقة في التعبير والإحكام في الفن والعلو في الصنعة. وجدتُ تعبيراً فنياً مقصوداً حُسِبَ لكل كلمة فيه حسابها بل لكل حرف بل لكل حركة.

وكلما أمعنت النظر والتدقيق والموازنة ازدادتُ بذاك يقيناً وبصيرة. وانتهيت إلى حقيقة مسلمة بالنسبة إليّ وهي أن هذا القرآن لا يمكن أن

يكون من كلام البشر وأن الخلق أولهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يفعلوا
مثل ذلك ما قدروا عليه ولا قاربوا.

وأنا لا أطلب من القارئ أن يسلم بهذه الحقيقة فإن هذا طلب لا مطمع منه
لمجرد القول والادعاء، وإنما الذي أطلبه منه أن يخلع عنه جلباب العصبية
وينظر بروح علمية مجردة. وأنا لا أشك في أنه سيصل إلى ما وصلت إليه.

صحيح أن كثيراً من الناس ليس لديهم اطلاع على المسلّمات اللغوية وليس
لديهم معرفة بأحكام اللغة وأسرارها ومن الصعب أن يهتدي هؤلاء إلى أمثال
هذه المواطن من غير دليل يأخذ بأيديهم يدلّهم على مواطن الفن والجمال
ويُبصّرهم بأسرار التعبير ويوضح لهم ذلك بأمثلة يعونها ويفهمونها. وهذا
الكتاب أحسبه من هذا النمط فما هو إلا دليل يشير إلى شيء من مواطن الفن
والجمال ويُبصّر بقسم من أسرار التعبير.

أنا لا أقول إنني وضعت الكتاب بعيداً من العصبية والهوى وإن كان يخيّل
إليّ أنني فعلت ذلك، ولا أفترض أن القارئ سيسلم بكل ما يجده فيه ولا أطلب
منه ذلك ولكنني أدعو القارئ أن يقرأ بعقل متفتح وقلب يقظان وأن يصبر على
ما لم يسبق له به علم من أمور اللغة حتى يَعيها وذلك ليس بأمر عسير.

وأظنه متى فعل ذلك سيبصر ما أبصرناه وينتهي إلى ما انتهينا إليه.

نسأله تعالى أن يلهمنا الرشد ويجنبنا الزلل إنه سميع مجيب.

فاضل السامرائي .

التعبير القرآني

لاخلاف بين أهل العلم أن التعبير القرآني تعبير فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه. وأنه بهر العرب فلم يستطيعوا مداناته والإتيان بمثله مع أنه تحدّاهم أكثر من مرة.

لقد تحدّى القرآن العرب ثم جميع الخلق بأن يأتوا بمثله ثم أخبر أنهم لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. فقد تحدّاهم أولاً بأن يأتوا بعشر سور مثله إن كانوا يرون أنه مفترى فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود].

فلما انقطعوا وقامت الحجة عليهم تحدّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله وأخبر أنهم لن يفعلوا فانقطعوا أيضاً وقامت الحجة عليهم، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة].

وأكد التحدي بقوله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء].

دعا القرآن العرب إلى أن يأتوا بسورة من مثله ويشمل هذا التحدي قصار السور كما يشمل طوالها فهو تحدّاهم بسورة الكوثر والإخلاص والمعوذتين والنصر ولإيلاف قريش أو أية سورة يختارونها، ومن المعلوم أن العرب لم يحاولوا أن يفعلوا ذلك فقد كانوا يعلمون عجزهم عنه، ورأوا أن سبيل الحرب والدماء وتجميع الأحزاب أيسر عليهم من مقابلة تحدي القرآن.

ومن الثابت أن القرآن الكريم كان يأخذهم بروعة بيانه وأنهم لا يملكون أنفسهم عن سماعه ولذلك سعوا إلى أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس. سعوا إلى أن لا يصل إلى الأذن لأنهم يعلمون أن مجرد وصوله إلى السمع يُحدث في النفس دويّاً هائلاً وهِزّة عنيفة وقد حكى الله

عنهم هذا الأسلوب فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت].

وكان صناديد قريش وأعتاهم محاربة للرسول وأشدّهم كيداً له ونيلاً منه لا يملكون أنفسهم عن سماعه، فقد كان كل من أبي جهل وأبي سفيان والأخنس ابن شريق يأخذ نفسه خلسة لسماعه في الليل والرسول في بيته لا يعلم بمكانهم ولا يعلم أحد منهم بمكان صاحبه حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قال أول مرة ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا^(١). وقد أخبر الله نبيه بهذا الأمر فقال: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء].

وما قول الوليد بن المغيرة بسراً. فقد اجتمع إليه نفر من قريش ليُجمعوا على رأي واحد يصدرون عنه يقولونه للناس في الموسم فقال بعضهم: شاعر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: مجنون. فكان يرد هذه الأقوال ويفندها ثم قال:

«والله إنَّ لقوله حلاوة وإنَّ عليه لطلاوة وإنه ليعلو وما يعلو عليه»^(٢).

إن التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وُضِعَ وضِعاً فنياً مقصوداً، ولم تُراعَ في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل رُوِيَ في هذا الوضع التعبير القرآني كله.

(١) تفسير ابن كثير ٤٤/٣، سيرة ابن هشام ٢٠٧/١-٢٠٨.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٢/٤-٤٤٣، سيرة ابن هشام ١٧٤/١-١٧٥.

لقد انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن الكلمات القافية ترددت في سورة (ق) كثيراً والكلمات الصادية ترددت في سورة (ص) كثيراً وهكذا^(١).

جاء في (ملاك التأويل) في السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة: «إن هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثر تردده فيما تركب من كلماتها. ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت في سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها وجدت الحرف المفتوح بها تلك السورة أفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلماتها وحروفها»^(٢).

واستندوا إلى الإحصاء، جاء في (ملاك التأويل) عن سبب بدء سورة (لقمان) بـ (ألم) وسورة يونس بـ (ألر): «أنه تكرر في سورة يونس من الكلام الواقع فيها الراء مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها. وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتوحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهي أطول منها. والوارد فيها مما تركب على الراء من كلماتها مائتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها»^(٣).

وانتهبوا إلى شيء آخر وهو أن عدد هذه الحروف أربعة عشر حرفاً أي بمقدار نصف حروف المعجم ترددت في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم. ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر حرفاً وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف. وبيان ذلك أن فيها من الحروف المهموسة نصفها، ومن المجهورة نصفها، ومن الشديدة نصفها، ومن الرخوة نصفها، ومن المطبقة نصفها، ومن المنفتحة نصفها، ومن المستعلية نصفها، ومن المنخفضة نصفها، ومن حروف القلقلة نصفها، وقد ذكر من هذه الأنصاف ما هو كثير الدوران في الكلام، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته^(٤).

(١) انظر البرهان ١/١٦٩.

(٢) ملك التأويل ١/٣٠.

(٣) ملك التأويل ١/٤٨٣ وانظر ٢/٥٤٨.

(٤) انظر الكشف ١/٧٨-٧٩.

وليس هذا كل شيء في الإحصاء بل هناك شيء آخر وربما أشياء. أفلم تقرأ الإحصاءات الأخرى في كتاب الله العزيز لترى العجب؟

لقد تبين أنه لم توضع الألفاظ عبثاً ولا من غير حساب، بل هي موضوعة وضعاً دقيقاً بحساب دقيق دقيق.

لقد تبين :

أن (الدنيا) تكررت في القرآن الكريم بقدر (الآخرة) فقد تكررت كل منهما ١١٥ مرة.

وأن (الملائكة) تكررت بقدر (الشياطين) فقد تكررت كل منهما ٨٨ مرة.

وأن (الموت) ومشتقاته تكررت بقدر (الحياة) فقد تكررت كل منهما ١٤٥ مرة.

وهل الموت إلا للأحياء؟

وأن (الصيف) والحر تكررا بقدر لفظ (الشتاء) والبرد فقد تكررت كل منهما

خمس مرات.

وأن لفظ (السيئات) ومشتقاتها تكررت بقدر لفظ (الصالحات) ومشتقاتها فقد

تكررت كل منهما ١٦٧ مرة.

وأن لفظ (الكفر) تكررت بقدر لفظ (الإيمان) فقد تكررت كل منهما ١٧ مرة.

وتكرر لفظ (كفراً) بقدر لفظ (إيماناً) فقد تكررت كل منهما ثماني مرات^(١).

وأنه تكررت ذكر (إبليس) بقدر لفظ الاستعاذة فقد تكررت كل منهما ١١ مرة.

وأن ذكر (الكافرين) تكررت بنفس عدد النار. وهل النار إلا للكافرين؟

وأن ذكر (الحرب) تكررت بعدد الأسرى (٢). وهل الأسرى إلا من أوزار الحرب.

وأن لفظ (قالوا) تكررت ٣٣٢ مرة «ومن عجب أن يتساوى هذا مع لفظ (قل) الذي

هو أمرٌ من الله إلى خلقه، فسبحان من قال (قل)، ٣٣٢ مرة فكان القول ٣٣٢ مرة».

(١) انظر الإعجاز العددي للقرآن الكريم ج ١/ ١٥، ٢١، ٣٥، ٥٨، ٧٠، ١٢٤، ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٤٩، ١٥.

وأن لفظ (الشهر) تكرر ١٢ مرة بعدد شهور السنة .

وأن لفظ (اليوم) تكرر ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة^(١) .

وأن لفظ (الأيام) تكرر ٣٠ مرة بعدد أيام الشهر^(٢) .

وقد تقول : ولم لم يعكس فيذكر اليوم ثلاثين مرة بقدر أيام الشهر و(الأيام) ٣٦٥ مرة بقدر أيام السنة؟

والجواب أن العرب تستعمل الجمع تمييزاً لأقل العدد وهو من ثلاثة إلى عشرة فإذا زاد على العشرة جاءت بالمفرد فتقول : ثلاثة رجال ، وأربعة رجال . وعشرة رجال . فإن زاد على العشرة وصار كثرة جاءت بالمفرد فتقول : عشرون رجلاً . ومائة رجل ، وألف رجل . فالجمع يوقعونه تمييزاً للقلة والمفرد يوقعونه تمييزاً للكثرة .

وكثيراً ما يوقعون المفرد للكثرة بخلاف الجمع من ذلك الوصف بالمفرد والوصف بالجمع .

فالوصف بالمفرد يدل على الكثرة ، والوصف بالجمع يدل على القلة فقولك (أشجار مثمرات) يدل على أن عدد الشجرات قليل بخلاف ما لو قلت (أشجار مثمرة) فإنه يدل على أن الأشجار كثيرة .

ويوقعون ضمير المفرد للكثرة وضمير الجمع للقلة . ألا ترى أن قولك : «الرماح تكسرن» يعني أن الرماح قليلة وذلك لمجيء نون النسوة بخلاف قولك : «الرماح تكسرت» فإنها تعني أن الرماح كثيرة . والنون في الأصل للجمع والتاء للمفرد .

ألا ترى في قوله تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكََ الَّذِينَ أَلْفِمْ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة] .

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق .

كيف لما قال : (إثنا عشر شهراً) قال : (منها) . ولما قال : (أربعة) قال : (فيهن) فاستعمال المفرد (منها) للكثرة والجمع (فيهن) للقلة . وغير ذلك .

فهو جرى على سنن كلام العرب في التعبير . والقرآن أنزل بلسان عربي مبين وغير ذلك وغيره . فأَي إعجاز هذا أيها الناس ! أَي إعجاز هذا أيها العلماء ! أَي إعجاز هذا أيها المفتونون بالعلم !

ومن يدري ماذا سيجدُ بعد في دراسات القرآن الكريم وماذا سيرى الناس من عجائبه ؛ فإن هذا الكتاب كما قال رسول الله ﷺ : « لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد » .

ثم إن القرآن له خصوصيات في استعمال الألفاظ : فقد اختص كثيراً من الألفاظ باستعمالات خاصة به مما يدل على القصد الواضح في التعبير فمن ذلك أنه :

استعمل (الرياح) حيث وردت في القرآن الكريم في الخير والرحمة واستعمل (الريح) في الشر والعقوبات^(١) قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيِّنَةً يَدْفِي رَحْمَتَهُ ﴾ [الأعراف] وانظر الفرقان ٤٨ والنمل ٦٣ .

وقال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الروم] .

في حين قال ﴿ كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرَكَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ ﴾ [آل عمران] .

وقال : ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأحقاف] . وقال ﴿ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ [الحاقة] . وغير ذلك وغيره .

ولم يستعمل الريح في الخير إلا في موطن واحد أعقبها بالشر وهو قوله تعالى : ﴿ إِذَا كُنْتُمْ فِي أَلْفَاكٍ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَبَئَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ [يونس] وهي خاتمة غير حميدة .

(١) البيان والتبيين ٢٠/١ .

ومن ذلك ذكر المطر فإنك «لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام»^(١) بخلاف الغيث الذي يذكره القرآن في الخير. قال تعالى : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل] وانظر الشعراء ٧٣. وقال : ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف] . وقال : ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَى الْفِرْعَوْنَ أَلْفًا تَمْطَرُ مَطَرُ السَّوَاءِ﴾ [الفرقان].

في حين قال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى] . وقال : ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف].

ومن ذلك ما اختص به القرآن الكريم في استعمال العيون والأعين. فلم يستعمل العيون إلا لعيون الماء. وقد وردت كلمة (العيون) في القرآن الكريم في عشرة مواطن كلها بمعنى عيون الماء من مثل قوله تعالى : ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر] وقوله : ﴿فِي ظِلِّ لَيْلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات].

في حين جمع العين الباصرة على أعين^(٢) مثل قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾ [الكهف] وقوله : ﴿سَكَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿رَأَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة].

ومن ذلك استعمال (وصى) و(أوصى) فكل ما ورد فيه من (وصى) بالتشديد فهو في الدين والأمور المعنوية وكل ما ورد من (أوصى) فهو في الأمور المادية .

قال تعالى : ﴿وَوَصَّيْهَا إِبْرَاهِيمَ بَيْنَهُ وَيَعْقُوبُ يَنْبَغِي إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة] وقال : ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَنْفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى] وقال : ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء] في حين قال : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ

(١) انظر البرهان ٩/٤-١٠.

(٢) انظر دراسات في اللغة لإبراهيم السامرائي ٩١.

مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾ [النساء] وهو في المواريث. وقال: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴿١١﴾ [النساء].

وهي كما ترى كلها في الأمور المادية.

ولم ترد (أوصى) في القرآن الكريم للأمور المعنوية إلا في موطن واحد اقترنت فيه بأمر مادي وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم] فإنه قال (أوصاني) لما اقترنت الصلاة بالزكاة والزكاة أمر مادي يتعلق بالأموال كما هو معلوم.

ومن ذلك قوله تعالى: (يشاقق) و (يشاقق) وهما لغتان: الفك لغة الحجاز والإدغام لغة تميم، ولكن القرآن استعملهما استعمالاً خاصاً فحيث ورد ذكر الرسول فك الإدغام. وحيث لم يرد ذكر الرسول بل ورد ذكر الله وحده أدغم. قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاكِبَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ [الأنفال].

وقال: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ ﴿١١٥﴾﴾ [النساء] في حين قال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾ [الحشر].

ولعله وحّد الحرفين وأدغمهما في حرف واحد لأنه ذكر الله وحده وفكّهما وأظهرهما لأنه ذكر الله والرسول فكانا اثنين.

وخصوصيات الاستعمال القرآني كثيرة لا نريد أن نستقصيها الآن ولكن أردنا فقط أن نضرب أمثلة على ذلك لتبيين (القصد) والدقة في اختيار ألفاظ القرآن.

ومع هذا الاستعمال الرياضي الإحصائي العجيب للألفاظ فالتعبير القرآني هو في قمة الأدب والفن .

فإنك إذا نظرت إلى أي ضرب من ضروب التعبير فيه وجدته وحدة متكاملة ليس فيها نبؤ ولا اختلاف. فإذا نظرت إلى التوكيد مثلاً وجدته على تباعد مواطنه وتفرقها في القرآن وحدة فنية متكاملة متناسباً في كل موطن

مع السياق الذي ورد فيه منسقاً معه ومنسقاً مع كل المواطن الأخرى التي ورد فيها التوكيد.

فالقرآن قد يؤكد بـ (إِنَّ) وحدها مثلاً أو قد يؤكد باللام أو يجمع بينهما، ولو أنعمت النظر لوجدت أن كل موضع يقتضي التعبير الذي عبر به فلا يصح أن تزداد اللام في الموضع المنزوع منه ولا تحذف في موطن الذكر أينما وردت في القرآن وكذلك (أَنَّ) ونحوها.

فهو يقول مثلاً: (إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) مؤكداً بـ (إِنَّ) وحدها في مواطن عديدة من القرآن.

ويقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝١﴾ [الرعد] مؤكداً بـ (إِنَّ) واللام.

ويقول: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بلا توكيد.

ويقول: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بلا توكيد في مواضع متعددة تبلغ ثلاثة عشر موضعاً.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ مؤكداً بـ (إِنَّ) في أكثر من عشرين موضعاً.

ويؤكد بـ (إِنَّ) واللام في مواضع أخرى متعددة.

ويحذف ويؤكد في تعبيرات أخرى تبلغ المئات وهو يراعي في كل ذلك الدقة في التعبير ووضع كل لفظ في مكانه حسبما يقتضيه السياق بحيث لا يصح وضع تعبير مؤكد في مكان غير مؤكد ولا ما أكد بأكثر من مؤكد في موطن أكد بمؤكد واحد.

وكذا الأمر في غير (إِنَّ) فهو يقول مثلاً: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝١٤٧﴾ [هود] بلا توكيد.

ويقول مرة أخرى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝١٤٨﴾ [الأعراف] بتوكيد الجواب.

ويقول مرة ثالثة: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝١٤٩﴾ [الأعراف] بتوكيد الجواب وبذكر اللام الموطئة قبل الشرط، كل ذلك حسبما يقتضيه الموطن والسياق، ولا يصح البتة وضع آية من هذه الآيات في غير سياقها وموطنها كما سنبين ذاك.

فلو نظرت إلى التوكيد في القرآن لوجدته لوحة فنية عالية متناسقة على سعة التوكيد واختلاف المؤكدات وتنوعها.

وقُلْ مثل ذلك عن الاستفهام. فهو قد يستفهم مرة بالهمزة ومرة بـ (هل) فهو مرة يقول: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة]. ومرة يقول: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ﴾ [الحج].

ومرة يستفهم بـ (ما) ومرة بـ (ماذا) والقصة واحدة. فيقول مرة في إبراهيم عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء]. ويقول مرة أخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات] وغير ذلك وغيره.

وقُلْ مثل ذلك عن التقديم والتأخير. فهو قد يقدم كلمة في مكان ويؤخرها في مكان. أو يقدم عبارة في مكان ويؤخرها في مكان فهو يقدم (السماء) على (الأرض) مرة، ومرة يقدم (الأرض) على (السماء)، ومرة يقدم (الإنس) على (الجن)، ومرة يقدم (الجن) على (الإنس). ومرة يقدم (الركوع) على (السجود) ومرة يقدم (السجود) على (الركوع) فهو مرة يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّكْرُ ءَامِنُوا آرْكَعُوا وَأَسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج] ومرة أخرى يقول: ﴿يَنْمِرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران].

ويقول مرة: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم].

ويقول مرة أخرى: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة].

وهو قد يذكر كلمة أو عبارة في موطن لا يذكرها في موطن آخر يبدو شبيهاً به فهو يقول مثلاً في موطن: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة] ويقول في موطن آخر ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران] فيزيد عبارة (ولا ينظر إليهم). وغير ذلك وغيره.

كل ذلك يضعه وضعاً فنياً في غاية الروعة والجمال.

ثم هو يجمع بين ضروب القول المختلفة ويؤلف بينها في حشد فني عجيب لا يملك العارف بشيء من أسرار التركيب إلا أن يسجد لصاحب هذا الكلام إجلالاً وخشوعاً ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَقَّشَ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر].

لقد دُرِسَ التعبيرُ القرآني دراساتٍ مستفيضة وأولي من النظر مالم يَنَلُهُ نصٌّ آخر في الدنيا .

فقد دُرِسَ من حيث تصويره الفني فكان أجمل تصوير وأبرع لوحة فنية^(١). ودرس من حيث نظمه وموسيقاه فكان أروع عقد منظوم وأعذب قطعة فنية موسيقية. وهل يشك أحد في فخامة نظمه وحلاوة موسيقاه وعذوبة جرسه وحسن اختيار ألفاظه وجمال وقع آياته؟!

وُدُرِسَ تناسبُ سورِهِ سورةَ سورة وتناسب آياته آية آية وتناسب فواتح السور وخواتمها، فكان قطعة فنية واحدة محكمة الربط فخمة النسيج، وكان كما قال الفخر الرازي: إن القرآن كالسورة الواحدة لاتصال بعضه ببعض^(٢) بل هو كآية الواحدة^(٣)

ودرس من حيث إعجازه فكانت جوانب إعجازه لا تحصى . أهو في أسلوبه وتعبيره. أم هو في تشريعه وفقهه، أم في معالجته جوانب الحياة المختلفة على أكمل وجه وأبهى صورة، أم هو في إخباره عن الأمم الماضية والأقوام البائدة^(٤). أم هو في إخباره عما سيقع^(٥). أم هو فيما قرره من حقائق علمية وكونية يكتشف الناس على مدى الدهر قسماً منها، أم هو فيما وضعه من

(١) انظر التصوير الفني في القرآن لسيد قطب.

(٢) التفسير الكبير ٣٠/٢١٤ وانظر ٣١٩.

(٣) التفسير الكبير ٣٢/١٠٤.

(٤) انظر كتابنا: نبوة محمد من الشك الى اليقين.

(٥) انظر المصدر السابق.

قواعد وأصول التربية ومعرفته بأدواء القلوب والنفوس. أم هو فيما ذكره من سنن التاريخ والخلق أو فيما ذكره من أصول علم الاجتماع أو غير ذلك وغيره. أم هو في كل ذلك وأشياء أخرى فوق ذلك؟!

أهو كتاب لغة أم كتاب أدب أم كتاب تشريع أم كتاب اقتصاد أم كتاب تربية أم كتاب تاريخ أم كتاب اجتماع أم كتاب سياسة أم كتاب عقائد أم هو كل ذلك وفوق ذلك؟!

عجيب أمر هذا الكتاب!

يراه الأديبُ معجزاً ويراه اللغوي معجزاً، ويراه أرباب القانون والتشريع معجزاً، ويراه علماء الاقتصاد معجزاً ويراه المربون معجزاً، ويراه علماء النفس والمُعنيون بالدراسات النفسية معجزاً، ويراه علماء الاجتماع معجزاً، ويراه المصلحون معجزاً، ويراه كل راسخ في علمه معجزاً.

لقد كشف لهم وهم يبحثون في وجوه إعجازه عن بحار ليس لها ساحل، وغاصوا في لجج ليس لها قعر، وكُلُّ عاد بلؤلؤة كريمة أو عقد نظيم وبقيت ثمة خزائن تفوق الحصر لم يلجها الوالجون وكنوز لا يطيقها إحصاء، لم تمتد إليها الأيدي، تفنى الدنيا ولا تفنى، ويلى كل جديد ولا تبلى. فيها من عجائب صنع الله ما لو اطلعت عليه لم تعرف كيف تصنع ولا استبدَّ بك عجب لا ينتهي وتمكن منك انبهار لا ينقضي. ومفتاح ذلك تدبره والنظر فيه.

فامنحه شيئاً من التدبر والنظر يمنحك من أسرار ما لم يكن منك ببال. إنه يعطيك أضعاف ما تعطيه.

إن هذا الكتاب يمنح مَنْ نظر فيه وتدبره خزائن بغير حساب ويفتح الله عليه من ألطافه ما يجلّ عن الوصف فلا تُضَيِّع هذه الصفقة الراححة وإلا فأنت والله مغبون.

أدركت الآن سر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد].

أَمَا أَنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ لَفَتَحَتْ أَقْفَالُ الْقُلُوبِ وَلَانَ مَا كَانَ عَصِيًّا مِنَ الْأَفْتَدَةِ ،
وَلَأَوْقَدَتْ مَصَابِيحَ عَهْدُهَا بِالنُّورِ بَعِيدٍ ، وَأَشْرَقَتْ دُرُوبٌ لَمْ يَسْقُطْ عَلَيْهَا فِيمَا مَضَى
نُورٌ ، وَلَحِيتْ نَفُوسٌ مَا عَرَفَتْ قَبْلَ ذَلِكَ حَيَاةً .

أَلَمْ يَسْمَهُ اللَّهُ نُورًا فَقَالَ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء] .

أَوَلَمْ يَسْمَهُ اللَّهُ رُوحًا فَقَالَ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى] ؟

فهو روح ونور — وهل بعد ذلك شيء ! وهل قبله شيء !

ليت شعري هل يفقه الناس ؟

ألا ليت الناس يفقهون .

البنية في التعبير القرآني

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً في غاية الدقة والجمال:

١- فمن ذلك استعمال الفعل والاسم. فمن المعلوم أن الفعل يدل على الحدوث والتجدد والاسم يدل على الثبوت^(١) تقول: هو يتعلم وهو متعلم. ف (يتعلم) يدل على الحدوث والتجدد أي: هو آخذٌ في سبيل التعلم بخلاف: (متعلم) فإنه يدل على أن الأمر تم وثبت وأن الصفة تمكنت في صاحبها. ومثله: هو يحفظ وهو حافظ. ف (يحفظ) يدل على الحدوث والتجدد و(حافظ) يدل على ثبات الأمر واستقراره في صاحبه ومثله: هو يجتهد ومجتهد.

وربما كان الأمر لم يحدث بعد ومع ذلك يؤتى بالصيغة الاسمية للدلالة على أن الأمر بمنزلة الحاصل المستقر الثابت وذلك نحو قولك: أترأه سيفشل في مهمته؟ فتقول: هو فاشل وذلك لوثوقك بما قررتَه أي: كأن الأمر تم وحصل وإن لم يحدث فعلاً، ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة]. فهو لم يجعله بعد ولكن ذكره بصيغة اسم الفاعل للدلالة على أن الأمر حاصل لا محالة فكأنه تم واستقر وثبت. ومثله قوله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود] فلم يقل: سأغرقهم أو إنهم سيغرقون. ولكنه أخرجه مخرج الأمر الثابت أي: كأن الأمر استقر وانتهى. ومثله قوله تعالى في قوم لوط عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ﴾ [العنكبوت] ولم يقولوا: سنهلك. فذكرها بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات أي: كأن الأمر انتهى وثبت.

فخلاصة الأمر أن الفعل يدل على الحدث والتجدد والاسم يدل على الثبوت والاستقرار. وقد استعمل القرآن الفعل والاسم استعمالاً فنياً في غاية الفن والدقة.

(١) انظر كتابنا: (معاني الأبنية في العربية) باب: (الاسم والفعل).

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام] فاستعمل الفعل مع الحي فقال: (يخرج) واستعمل الاسم مع الميت فقال: (مخرج) وذلك لأن أبرز صفات الحي الحركة والتجدد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد ولأن الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال: ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الأنعام].

وقد تقول: ولماذا قال في سورة آل عمران ﴿وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بالصيغة الدالة على التجدد في الموطنين؟

فنقول: إنَّ السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام، وذلك أن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً، فالله سبحانه يؤتي ملكه من يشاء أو ينزعه منه، ويعز من يشاء أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث، فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب] [آل عمران].

في حين أن السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات وإنما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام] فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ [الأنعام].

فأنت ترى أنه بدأ الآية بالجملة الاسمية وكان مسندها اسماً أيضاً ثم جاء بعده باسمين آخرين هما (مخرج الميت) و (فالق الإصباح) ثم ذكر أنه (يخرج الحي) بالصورة الفعلية لما ذكرت من حركة الحي بخلاف ما في آية آل عمران من دلالة على التغيير والحركة. فالسياق مختلف ولذا تتوالى الأفعال في هذه الآية. فوضع كل صيغة في المكان اللائق بها.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ﴾ [الأعراف].

«ففرق بين طرفي التسوية فقال: (أدعوتموهم) بالفعل ثم قال: (أم أنتم صامتون) بالاسم ولم يسو بينهما فلم يقل: أدعوتموهم أم صمتم بالفعلية. أو: أنتم داعوهم أم صامتون.

وذلك أن الحالة الثابتة للإنسان هي الصمت وإنما يتكلم لسبب يعرض له. ولو رأيت إنساناً يكلم نفسه لاثمته في عقله. فالكلام طارئ يحدثه الإنسان لسبب يعرض له ولذا لم يسو بينهما بل جاء للدلالة على الحالة الثابتة بالاسم: (صامتون) وجاء للدلالة على الحال الطارئة بالفعل: (دعوتموهم) أي: أحدثتم لهم دعاء أم بقيتم على حالكم من الصمت»^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «إن قيل: هلا قيل: أم صمتم؟ ولم وضعت الجملة الاسمية موضع الفعلية؟

قلت: لأنهم كانوا إذا حزبهام أمر دعوا الله دون أصنامهم... فكانت حالتهم أن يكونوا صامتين عن دعوتهم. فقيل: إن دعوتموهم لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم»^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود].

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية (مهلك) وفي الثانية بالصيغة الفعلية (ليهلك) وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة

(١) معاني الأبنية ١١-١٢.

(٢) الكشاف ١/٥٩٢.

عَمَّا كَانَ فِي الدُّنْيَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجَاءَ الَّذِينَ أَجَلَتْ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ فَاصْبِرْ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُفَوِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمَعَشَرَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَكِّرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَفْسَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام].

فقد ذكر صفة الله وهو أنه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يكلفوا ولم يأتهم رسل ينذرونهم. فالذين لم ينذروا غافلون قال تعالى: ﴿لِيُذَكِّرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿١﴾﴾ [يس]. فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت.

في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها وذكر سنة الله في الأمم قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٢﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذَكَرَى لِلذَّكِرِ ﴿٣﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٥﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿٦﴾﴾ [هود].

فهو - كما ترى - في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية لأن الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا. فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد (ليهلك). ثم انظر كيف جاء في الآية الأولى بـ (لم) الدالة على الماضي (ذلك أن لم يكن ربك) لأن الأمر حصل وتم في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة. وجاء ههنا بلام الجحود التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ [هود].

أما ما ختم به كل آية من الآيتين فله مكان آخر.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفَةٌ لِّعَذَابِهِمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ أَلْفَةٌ مُّعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَعْفِرُونَ﴾ [الأنفال].

فقد جاء في صدر الآية بالفعل: (ليعذبهم) وجاء بعده بالاسم: (معذبهم) وذلك أنه جعل الاستغفار مانعاً ثابتاً من العذاب بخلاف بقاء الرسول بينهم فإنه - أي العذاب - موقوت ببقائه بينهم. فذكر الحالة الثابتة بالصيغة الاسمية والحالة الموقوتة بالصيغة الفعلية وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص] فالظلم من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية للدلالة على الثبات. ثم انظر كيف جاءنا بالظلم بالصيغة الاسمية أيضاً دون الفعلية فقال: (وأهلها ظالمون) ولم يقل: (يظلمون) وذلك معناه أن الظلم كان وصفاً ثابتاً لهم مستقراً فيهم غير طارئ عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيء.

فانظر كيف ذكر أنه يرفع العذاب عنهم باستغفارهم، ولو لم يكن وصفاً ثابتاً فيهم، وأنه لا يهلكهم إلا إذا كان الظلم وصفاً ثابتاً فيهم، فإنه جاء بالاستغفار بالصيغة الفعلية (يستغفرون) وجاء بالظلم بالصيغة الاسمية (ظالمون). فانظر إلى رحمة الله سبحانه وتعالى بخلقه.

ومن ذلك قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿وَإِذَا قُودُوا إِلَى الْمَوْتِ قَالُوا إِنَّا أَنَا مَوْتٌ وَإِذَا قُودُوا إِلَى شَيْءٍ غَيْرِ ذَلِكَ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ [البقرة].

«فقد فرق بين قولهم للمؤمنين وقولهم لأصحابهم فقد خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية الدالة على الحدوث (آمنا)، وخاطبوا جماعتهم بالجملة الاسمية المؤكدة الدالة على الثبوت والدوام (إنّا معكم) ولم يسوّ بينهما فلم يقولوا: (إنّا مؤمنون) كما قالوا: (إنّا معكم) وذلك إمّا لأن أنفسهم لا تساعد على إذليس من عقائدهم باعث ومحرك، وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحية وصدق رغبة... وأما مخاطبة إخوانهم فيما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبعد من أن يزولوا عنه على صدق رغبة

ووفور نشاط وارتياح للمتكلم به وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد^(١).

ومن لطيف الاستعمال الفني للفعل والاسم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [غافر].

فاستعمل مع الليل الفعل (لتسكنوا فيه) ومع النهار الاسم (مبصراً) ولم يسو بينهما فلم يقل: ساكناً ومبصراً ولا لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه مع أن الاستعمال الحقيقي هو: (لتبصروا فيه).

وذلك أنه جمع الحقيقة والمجاز في تعبير واحد ولو جعلهما بصورة تعبيرية واحدة لفاتت هذه المزية الفنية فإنه ذكر نعمة الله علينا في الليل فقال ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ [يونس]. ولو قال: «هو الذي جعل لكم الليل ساكناً» لم يكن فيه دلالة نعمة على الخلق من ناحية ولكانت (لكم) هنا زائدة ليس لها فائدة، فهو جاء بـ (لكم) وبالصيغة الفعلية للدلالة على قصد النعمة والتفضل علينا. وعلاوة على ذلك فإنه لو قال: (ساكناً) لم يكن التعبير مجازياً لأن الليل يصح أن يوصف بالسكون فيقال: ليل ساكن وليل ساج، فتحويله إلى الصيغة الاسمية ليس فيه فائدة معنوية ولا فنية، ولما تقررت دلالة النعمة في صدر الآية كان العدول إلى التعبير المجازي بعد ذاك كسباً فنياً.

فعدل من الفعل إلى الاسم ومن الحقيقة إلى المجاز العقلي فقال: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ وذلك أن النهار لا يبصر بل يبصر من فيه: فجمع بين التعبير الحقيقي والمجازي ودلّ على المقصد الأول من الآية وهو الدلالة على النعمة بأقرب طريق فكسب المعنى والفن معاً. ولو قال: «لتسكنوا فيه ولتبصروا فيه» لفات التعبير الفني الجميل تعبير المجاز. ولو قال: «ساكناً ومبصراً» لفات الدلالة على النعمة التي هي المقصد الأول من هذه الآية. ولو قال: «ساكناً ولتبصروا فيه» لفات المجاز في التعبيرين وكان التعبير سمجاً لا معنى تحته كما أوضحنا قبل قليل.

(١) انظر الأبنية ١٢-١٣، والكشاف ١/١٤٢.

فانظر كيف دل على المعنى بأسلوب فني جميل من أخصر طريق وأيسره .
فأنت ترى أنه لو وضع الكلام بأية صورة غير الصورة التي عبر بها القرآن ما أدى
هذا المؤدى . هذا علاوة على ما في جعل النهار مبصراً من جمالٍ وزيادة في
المعنى فقد أفاد هذا العدول إلى الاسمية معنيين :

الأول : أننا نبصر فيه كما قيل : ليل نائم والمقصود : نائم أهله .

والمعنى الآخر : أنه جعله مبصراً أيضاً يبصر أعمالنا ويكون شاهداً علينا
بالخير والشر فكأن له عينين تبصران . فنحن نبصر فيه وهو يبصر أيضاً . فانظر
إلى جمال هذا التعبير ودقته وروعته . جاء في (الكشاف) في هذه الآية : «فإن
قلت : لِمَ قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال؟ وهَلَّا كانا حالين أو مفعولاً
لهما فيراعى حق المقابلة؟

قلت : هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى
الآخر ، ولأنه لو قيل : «لتبصروا فيه» فأتت الفصاحة التي في الإسناد المجازي .
ولو قيل : ساكناً ، والليل يجوز أن يوصف بالسكون على الحقيقة ألا ترى إلى
قولهم : ليل ساج وساكن لا ريح فيه ، لم تتميز الحقيقة من المجاز»^(١) .

ومن جميل التعبير بالفعل والاسم ما جاء في سورة (الكافرون) وهو قوله
تعالى : ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَّدْتُمْ ۝٤ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ .

فأنت ترى أن الرسول نفى عبادة الأصنام عن نفسه بالصيغتين : الفعلية
والاسمية (لا أعبد ما تعبدون) و (ولا أنا عابد ما عبدتم) وبالفعلين : المضارع
والماضي (تعبدون) و (عبدتم) . ونفى عن الكافرين العبادة الحق بصيغة واحدة
مرتين هي الصيغة الاسمية : (ولا أنتم عابدون ما أعبد) .

ومعنى ذلك أنه نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة
في جميع الأزمنة وهذا غاية الكمال . إذ لو اقتصر على الفعل لقليل : إن هذا أمر

(١) الكشاف ٥٨/٣ .

حادث قد يزول. ولو اقتصر على الاسم ل قيل: صحيح أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناه أنه مستمر على هذا الوصف لا يفارقه، فإن الوصف قد يفارق صاحبه أحياناً، بل معناه أن هذا وصفه في غالب أحواله، فالحليم قد يغضب ويعاقب، والجواد قد يأتيه وقت لا يوجد فيه إذ هو ليس في حالة جُودٍ مستمر لا ينقطع. والرحيم قد يأتيه وقت يغضب فلا يرحم. ولئلا يظن ذاك في الرسول أعلن براءته من معبوداتهم بالصيغتين الفعلية والاسمية: الصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والصيغة الاسمية الدالة على الثبات ليعلم براءته منها في كل حالة. ثم إنه استغرق الزمن الماضي والحال والاستقبال باستعماله الفعل الماضي والمضارع، في حين نفاه عنهم بالصيغة الاسمية فقط. فإصراره هو على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم والنفي عنه أدوم وأبقى من النفي عنهم.

ثم انظر كيف أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلاً: (قل يا أيها الكافرون) نفى عنهم العبادة الحقّة بالصورة الاسمية أيضاً فقال: (ولا أنتم عابدون ما أعبد). فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات أيضاً . وهو تناظر جميل . ومن جميل استعمال القرآن للفعل والاسم أنه يستعملهما استعمالاً مناسباً مع وقوع الحدث في الحياة فإذا كان مما يتكرر حدوثه ويتجدد استعماله بالصورة الفعلية وإذا لم يكن كذلك استعماله بالصورة الاسمية .

فمن ذلك مثلاً استعمال القرآن للفعل (ينفق) فإنه يستعمله بالصيغة الفعلية لأن الإنفاق أمر يتكرر ويحدث باستمرار قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِآيَاتٍ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة] فاستعمل الفعل المضارع الدال على التجدد والحدوث لأن الإنفاق أمر يتجدد. ونحوه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْفَغْبِطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقًا النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء].

ولم ترد بالصورة الاسمية إلا في آية واحدة هي قوله تعالى : ﴿الْحَصِيرِ وَالصَّادِقِ وَالْقَانِتِ وَالْمُنْفِقِ وَالْمُسْتَغْفِرِ

بِالْأَسْمَاءِ ﴿٧﴾ [آل عمران] وهو في سياق أوصاف المؤمنين الدالة على الثبات.

ومن ذلك استعمال القرآن للإيمان، فقد استعمله بالصيغة الاسمية كثيراً وذلك لأن الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب وليس كالإنفاق يحدث وينقطع قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ ﴿٧﴾ [السجدة]. وقال : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلُمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ ﴿٧٣﴾ [طه] وقال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾ [الروم]. وغيرها وغيرها.

كما استعمله بالصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا ﴾ ﴿١٧﴾ [الأنعام] فجاء به بالصيغة الفعلية لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد. ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ﴿١٣﴾ [البقرة] وغير ذلك وغيره. جاء في (البرهان) : «ومن هذا يعرف لم قيل : (الذين ينفقون) ولم يقل : (المنفقين) في غير موضع؟

وقيل كثيراً: المؤمنون والمتقون، لأن حقيقة النفقة أمر فعلي شأنه الانقطاع والتجدد بخلاف الإيمان فإن له حقيقة تقوم بالقلب يدوم مقتضاها وإن غفل عنها، وكذلك التقوى والإسلام والصبر والشكر والهدى والضلال والعمى والبصر فمعناها أو معنى وصف الجارحة؛ كل هذه لها مسميات حقيقية أو مجازية تستمر وآثار تتجدد وتنقطع، فجاءت بالاستعمالين إلا أن لكل محل ما يليق به. فحيث يراد تجدد حقائقها أو آثارها فالأفعال. وحيث يراد الاتصاف بها فالأسماء»^(١).

ومن ذلك استعماله للاستغفار فإنه لما كان الاستغفار يحدث ويتجدد جاء به بالصيغة الفعلية كثيراً شأن الإنفاق قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ﴿٧﴾ [غافر].

(١) البرهان ٤/ ٦٧.

وقال : ﴿وَالْمَلَكَةُ يُسَيِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى].

ولم يرد بالصيغة الاسمية إلا في آية واحدة هي التي ورد فيها الإنفاق اسماً وهي قوله تعالى : ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِيتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران] أي أصحاب هذه الصفات.

ومثل ذلك التسييح فإنه ورد بالصيغة الفعلية كثيراً للسبب نفسه وذلك نحو قوله تعالى : ﴿وَيُسَيِّحُونَ لَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف]. و ﴿يُسَيِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة].

ولم يرد بالصيغة الوصفية إلا في آيتين : إحداهما : في وصف نبي الله يونس عليه السلام قال : ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات]. بمعنى أنه كان هذا وصفه الثابت. فنجا لأنه كان من أصحاب هذا الوصف. والمجيء بالصيغة الوصفية هنا إشارة إلى أن مداومة التسييح تخلص من الكروب والمكاره، وأن يونس إنما نجا من هذه الشدة بمداومة التسييح.

والثانية : في صفة الملائكة ﴿وَأَنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ [الصافات] أي هذه صفتهم الثابتة. وقد ذكر الله سبحانه أن الملائكة ﴿يُسَيِّحُونَ أَيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء] إذن فالتسييح وصف ثابت فيهم.

«وانظر هنا الى لطيفة وهو أن ما كان من شأنه ألا يفعل إلا مجازاة وليس من شأنه أن يذكر الاتصاف به لم يأت إلا في تراكيب الأفعال كقوله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم] وقال : ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج] ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد].

ومنه قوله تعالى : ﴿تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف] لأن البصر صفة لازمة للمتقين، وعين الشيطان ربما حجت فإذا تذكر

رأى المذكور ولو قيل: (يبصرون) لأنبأ عن تجدد واكتساب لا عود صفة^(١).

ثم انظر كيف ذكر الله الإضلال وأضافه إلى نفسه بالصورة الفعلية فقط للدلالة على أن هذا أمر طارئ يفعل من يستحقه ولم يسند هذا الأمر إلى نفسه بالصورة الاسمية للدلالة على أن هذا ليس من صفات الله ونعوته قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر] وقال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ [غافر] وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة].

في حين وصف الشيطان بذاك فقال: ﴿هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌ مُّبِينٌ﴾ [القصص] فجعله وصفاً ثابتاً له ويجدده أيضاً فقال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ [٢] ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج] وقال الشيطان عن نفسه: ﴿وَلَا ضَلَّغْنَهُمْ وَلَا مَتِّعْنَهُمْ﴾ [النساء].

فجعل وصف الشيطان الثابت والمتجدد الإضلال، كما جعل الله وصف ذاته العلية الثابت والمتجدد الهداية فقال: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدَايَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج].

وقال: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان] وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُم سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة] وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس] فشتان ما بين الوصفين.

ومن بدائع الفن في هذا الباب قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَلَفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [٣] إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات].

«ففرق الله سبحانه وتعالى بين السلامين فجعل الأول بالنصب والثاني بالرفع ولم يسو بينهما، وذلك لأن قوله: (سلاماً) بالنصب تقديره: نُسَلِّمُ سلاماً أي بتقدير فعل. وقوله: (سلام) تقديره: (سلام عليكم) أي: بتقدير اسمية الجملة. والاسم أثبت وأقوى من الفعل فدل على أن إبراهيم عليه السلام حيا الملائكة

بخير من تحيتهم»^(١). قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحَيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء] فرد التحية بخير منها.

وجاء في «التفسير الكبير» أن «إبراهيم عليه السلام أراد أن يرد عليهم بالأحسن فأتى بالجملة الاسمية فإنها أدل على الدوام والاستمرار»^(٢).

ومنه قوله تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصٍ يَدْمِرُ كَذِبًا قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف] فجاء بالصبر مرفوعاً أي: بتقدير الجملة الاسمية لأنه وُطِّنَ نفسه على الصبر الطويل الدائم الذي لا يعرف له نهاية والذي قد يستغرق ما بقي من عمره، ولم يقل: (فصبراً) بالنصب بتقدير الفعل أي: لأصبر صبراً، لأنه يدل على الصبر الحادث الذي يتغير لا الصبر الدائم الثابت. فثمة فرق بين الاستعمالين والمعنيين.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَأَمَّا إِذَا نَكَحُوا نِكَاحًا فَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَوْلَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهِمَا﴾ [البقرة] فانظر كيف جاء بالطلقة الثالثة بالرفع، وذلك لأنها الطلقة الأخيرة والحكم معها يكون على وجه الدوام، إمّا الإمساك بالمعروف أو التيسير الذي لا رجعة فيه، فانظر كيف لم يقلها بالنصب وذلك لأن النصب موقوت. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد] كيف جاء بـ (ضرب) منصوباً وذلك على تقدير الفعل أي: فاضربوا، ولم يأت به بالرفع وذلك لأنه موقوت بالمعركة وليس أمراً دائماً.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُّزْمَةً﴾ [الهمزة] فانظر كيف قال: (ويل) بالرفع ولم يقل: (ويلاً) بالنصب وذلك لأنه بالرفع جملة إسمية وبالنصب جملة فعلية، فأخبر أن لهم عذاباً دائماً لا ينقطع أو دعا عليهم به. ولو قال: (ويلاً) بالنصب لكان إخباراً بالعذاب غير الدائم. ثم انظر كيف قال

(١) معاني الأبنية ١٥.

(٢) التفسير الكبير ٢٨/٢١٢ وانظر الكشاف ١/٣٨-٣٩، ٣/١٦٩، بدائع الفوائد ٢/١٥٧.

في آخر السورة: ﴿إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ۖ﴾ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾ فَأخبر أن أبوابها مغلقة عليهم لا تنفتح إشارة إلى دوام العذاب وخلوده، وكيف ناسب ذلك أول السورة برفع الويل.

فانظر هذا التناسق الجميل في التعبير والمعنى بين المفتتح والختام. وفي هذا القدر كفاية فإن غرضنا التمثيل وليس الاستقصاء فإن الاستقصاء يطول.

٢ - وكذلك استعماله للأبنية الأخرى فهو يستعملها استعمالاً فنياً عجيباً ويضعها وضعاً معجزاً، فمن ذلك أنه يأتي بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل يأتي بمصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من أقرب طريق وأيسره وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿٨﴾ [المزمل] فإنه جاء بالفعل (تبتّل) غير أنه لم يأت بمصدره وإنما جاء بمصدر فعل آخر هو (بتّل) وذلك أن مصدر تبتّل هو (التبتّل) فإن مصدر (تفعل) يكون على (التفعل) كتعلم تعلماً وتقدّم تقدّماً. وأما (التبتّل) فهو مصدر بتّل لا تبتّل فإن (التفعل) هو مصدر (فعل) كعلم تعليماً وعظم تعظيماً. وكان المتوقّع أن يقول (وتبتّل إليه تبتلاً) غير أنه لم يقل ذاك. وسبب ذلك أنه أراد أن يجمع بين معنيي التبتّل والتبتيل، وذلك أن تبتّل على وزن تفعل و (تفعل): يفيد التدرج والتكلف مثل: تجسس وتحسس وتبصّر وتدرّج وتمشّى وغيرها، فإن في تجسس وتحسس وبقية الأفعال تدرّجاً وتكلفاً. ألا ترى أنّ في (تبصّر) من التدرج وإعادة النظر والتكلف ما ليس في (بصر)، وفي (تمشّى) من التدرج ما ليس في (مشى)؟

وأما (فعل) يفيد التكثير والمبالغة وذلك نحو: كسر وكسر، فإن في كسر المضاعف من المبالغة والتكثير ما ليس في كسر الثلاثي فقولك: (كسرت القلم) يفيد أنك جعلته كسرة كسرة بخلاف ما إذا قلت: (كسرت القلم) فإنه يفيد أنك كسرت مرة واحدة. وكذلك قولك: (قطعت اللحم) فإنه يفيد أنك جعلته قطعة قطعة بخلاف ما إذا قلت: (قطعت اللحم) بلا تضعيف فإنه يفيد أنك قطعت مرة واحدة. وتقول: (موت الإبل) إذا كثر فيها الموت ولا يقال:

(موت البعير) لأنه ليس في موت البعير تكثير. فالله سبحانه جاء بالفعل لمعنى التدرج ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر هو التكثير، وجمع المعنيين في عبارة واحدة موجزة ولو جاء بمصدر الفعل (تبتّل) فقال: (وتبتل إليه تبتلاً) لم يفد غير التدرج وكذلك لو قال (وبتّل نفسك إليه تبتيلاً) لم يفد غير التكثير. ولكنه أراد المعنيين فجاء بالفعل من صيغة والمصدر من صيغة أخرى وجمعهما فهو بدل أن يقول: (وتبتّل إليه تبتلاً وبتّل نفسك إليه تبتيلاً) جاء بالفعل لمعنى ثم جاء بالمصدر لمعنى آخر، ووضعهما وضعاً فنياً فكسب المعنيين في آن واحد وهذا باب شريف جليل.

جاء في (التفسير القيم): «ومصدر تبتل إليه: (تبتّل) كالتعلّم والتفهم ولكن جاء على (التفعيل) مصدر (فعل) لسر لطيف. فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدرج والتكلف والتعلّم والتكثير والمبالغة. فأتى بالفعل الدال على أحدهما وبالمصدر الدال على الآخر فكأنه قيل: بتّل نفسك إلى الله تبتيلاً وتبتل إليه تبتلاً، ففهم المعنيان من الفعل ومصدره.

وهذا كثير في القرآن وهو من حسن الاختصار والإيجاز»^(١).

وليس هذا كل شيء في هذا الجزء من الآية بل انظر الوضع الفني التربوي الآخر وهو أنه جاء بالفعل الدال على التدرج أولاً، ثم بالمعنى الدال على الكثرة والمبالغة بعده وهو توجيهه تربوي حكيم، إذ الأصل أن يتدرج الإنسان من القلة إلى الكثرة، والمعنى: احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، والمعنى: ابدأ بالتدرج في العبادة وانه بالكثرة. وليس من الحكمة أن يضع الصيغة الدالة على الكثرة والمبالغة أولاً ثم يأتي بالصيغة الدالة على التدرج والتكلف فيما بعد، بل الطريق الطبيعي أن يتدرج الإنسان في حمل النفس على الشيء من القلة إلى الكثرة والمبالغة حتى يكون وصفاً ثابتاً له. فهو وضعها وضعاً تربوياً أيضاً.

(١) التفسير القيم ٥٠١-٥٠٢.

ثم انظر كيف وضعها ربنا وضعاً فنياً عجبياً آخر فجاء للدلالة على معنى التدرج والحدوث بالصيغة الفعلية، لأن الفعل يدل على الحدوث والتجدد فقال: (وتبتل) ثم جاء للدلالة على معنى المبالغة والكثرة والثبوت بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت والكثرة لأنها الحالة الثابتة المرادة في العبادة. أما حالة التدرج فهي حالة موقوتة يراد منها الانتقال لا الاستمرار والاستقرار، فجاء لكل معنى بما يناسبه.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] والقياس أن يقول: (أن يُضِلَّهُمْ إِضْلَالًا بَعِيدًا) «لأن مصدر (أضل): الإضلال أما الضلال فهو مصدر ضلّ، قال تعالى ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء] والمعنى أن يُضِلَّهُمْ فَيَضِلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا، وقد جمع المعنيين: الإضلال والضلال في آن واحد.

والمعنى أن الشيطان يريد أن يُضِلَّهُمْ ثم يريد بعد ذلك أن يَضِلُّوا هم بأنفسهم، فالشيطان يبدأ المرحلة وهم يُتِمُّونها. فهو يريد منهم المشاركة في أن يتدعوا الضلال ويذهبوا فيه كل مذهب. يريد أن يطمئن إلى أنهم يقومون بمهمته هو^(١).

ولو جاء بمصدر الفعل المذكور لما زاد عن معنى الفعل المذكور، ولكنه جاء بالفعل لمعنى، وجاء بالمصدر لمعنى آخر، فجمع بين المعنيين. والمعنيان مرادان والله أعلم.

وقد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة، فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاءُ عَجَبٌ﴾ [ق].

(١) معاني النحو ٥٨٩/٢.

وقوله: ﴿قَالَتْ يَوْنَيْقَءُ أَلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود].

وقوله في مكان آخر: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص].

فأنت ترى أنه قال في سورة ق: (هذا شيء عجيب) وفي هود: (إن هذا لشيء عجيب) وفي سورة ص: (إن هذا لشيء عجاب) فعدل من عجيب إلى عجاب، وذلك أنه تدرج في العجب بحسب قوته ففي آية (ق) ذكر أنهم عجبوا من أن يجيء منذر منهم فقالوا: (هذا شيء عجيب).

وفي سورة هود كان العجب أكبر لأنه من خلاف المعتاد أن تلد امرأة عجوز وعقيم (انظر سورة الذاريات ٢٩) وبعلمها شيخ إذ كل ذلك يدعو إلى الغرابة والعجب فالعجوز لا تلد، فإذا كانت عقيماً كانت عن الولادة أبعد إذ يستحيل على العقيم أن تلد. فإذا اجتمع إلى كل ذلك أن بعلمها شيخ كان أبعد وأبعد ولذا أكد العجب بأن واللام فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود] بخلاف سورة (ق) فإنه لم يؤكد العجب.

وأما في سورة (ص) فقد كان العجب عند المشركين أكبر وأكبر إذ كيف يمكن أن يؤمنوا بوحداية الإله ونفي الشرك وهم قوم عريقون فيه؟ بل إن الإسلام جاء أول ما جاء ليردعهم عن الشرك ويردهم إلى التوحيد، وحسبك أن كلمة الإسلام الأولى هي: (لا إله إلا الله) وقد استسهلوا أن يحملوا السيف ويعلموا الحرب الطويلة على أن يقرأوا بهذه الكلمة، فالقتل أيسر عندهم من النطق بكلمة التوحيد، ولذا كان العجب عندهم أكبر وأكبر فجاء بأن واللام وعدل من (عَجِيب) إلى (عُجَاب) وذلك أن (فُعَالاً) أبلغ من (فَعِيل) عند العرب فـ (طُوال) أبلغ من (طويل) فإذا قلت: (هو رجل طويل) فهو الطويل يكون مثله، فإذا زاد عن المعتاد قلت: هو طُوال ونحوه: كريم وكُرام، وشجيع وشُجاع.

فانظر كيف عدل من صيغة إلى صيغة بحسب ما يقتضيه المقام، وانظر كيف يراعي دقة التعبير في كل موضع، وكيف يلحظ كل كلمة ويضعها في المكان المناسب على تباعد الأمكنة.

ومن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿فَلَمَّا رَأَى السَّمَاسَ بَايَغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ إِلَيَّ بَرِّي وَمِمَّا قُتِرُ كُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله في مكان آخر على لسانه أيضاً: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف].

فانظر كيف عدل من (بريء) إلى (براء) من الصفة المُشَبَّهة إلى المصدر «وأنت ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم عليه السلام في آية الأنعام في مقام الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربه على وجه التحقيق، فقد ظن أن الكوكب ربه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كل ذلك.

أما في الآية الثانية فهو في مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلًا من ربه أعلن حربه على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه، فهناك فرق بين المقامين والبراءتين»^(١).

ولذا قال في الآية الأولى: (بريء) وفي الثانية: (براء) وذلك أن (براء) أقوى من بريء فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد فإن قولك: (هو رجل عدل) أبلغ من قولك (هو رجل عادل) وذلك لأن معناه أنه أصبح هو العدل، أي: لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه. وقولك: (هو رجلٌ سوءٌ) أبلغ من قولك: (هو رجل سيئ) فمعنى رجل سيئ أنه اتصف بالسوء ومعنى (رجل سوء) أنه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء، ومثله قوله تعالى في ابن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَنْتُحِ إِلَهُكُم مِّنْ أَهْلِكُمْ إِنَّهُم لَكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود] ولم يقل إنه عامل غير صالح، والمعنى أن ابنك تحول إلى عمل غير صالح ولم يبق فيه من عنصر الذات شيء، أي: تحول إلى حدث مجرد وأن العمل غير الصالح لو تجسّد لكان ابنك. فالبراءة في آية الزخرف أشد.

ثم انظر كيف ناسب هذه القوة في البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء النون - أعني نون الوقاية - في آية الزخرف زيادة في التوكيد فقال: (إنني براء) ولم يأت بها في آية الأنعام بل قال: (إني بريء) وأن النون في مثل هذا المقام تفيد التوكيد^(٢).

(١) معاني النحو. ٣٨٨/١.

(٢) انظر معاني النحو. ٣٨٨/١.

فانظر كيف أكد براءته في آية الأنعام بالنون وبتحويل الصيغة إلى المصدر وهي نظيرة ما مر في آيات العجب السابقة. فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أن القرآن كاللوحه الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها كل جزئية من جزئياتها واعتني بكل لمسة من لمساتها، وصدق الإمام الرازي إذ قال: القرآن كالسورة الواحدة بل كالأية الواحدة.

وقد يجمع بين صيغتين من مادة واحدة احتياطاً للمعنى وذلك كقوله تعالى: (الرحمن الرحيم) فإنّ (الرحمن) على وزن فعلان و (الرحيم) على وزن فاعيل فجمع بينهما، وذلك أن صيغة (فعلان) تدل على الصفات المتجددة، وذلك نحو: عطشان وجوعان وغضبان ونحوها، فإن العطش في: عطشان، ليس صفة ثابتة بل يزول ويتحول وكذلك جوعان وغضبان، بخلاف: (فاعيل) فإنه يدل على الثبوت وذلك نحو: كريم وبخيل وطويل وجميل فإن هذه صفات ثابتة فليس (طويل) مثل: (عطشان) في الوصف ولا (قبيح) مثل (جوعان). «ودلالة هذا البناء على الحدوث بارزة في لغتنا الدارجة تقول: (هو ضعيفان) إذا أردت الحدوث فإن أردت الثبوت قلت: (هو ضعيف)، وكذلك سمنان وسمين: ألا ترى أنك تقول لصاحبك: أنت ضعيفان، فيرد عليك: أنا منذ نشأتي ضعيف. وتقول له: أراك طولان. فيقول: أنا طويل منذ الصغر.

وهذا من أبرز ما يميز صيغة (فعلان) عن (فاعيل)... فإن صيغة (فعلان) تفيد الحدوث والتجدد، وصيغة (فاعيل) تفيد الثبوت فجمع الله سبحانه لذاته الوصفين. إذ لو اقتصر على (رحمن) لظن ظان أن هذه صفة طارئة قد تزول كعطشان وريان. ولو اقتصر على (رحيم) لظن أن هذه صفة ثابتة ولكن ليس معناها استمرار الرحمة وتجدها، إذ قد تمر على الكريم أوقات لا يكرم فيها وقد تمر على الرحيم أوقات كذلك. والله سبحانه متصف بأوصاف الكمال فجمع بينهما حتى يعلم العبد أن صفته الثابتة هي الرحمة وأن رحمته مستمرة متجددة لا تنقطع، حتى لا يستبد به

الوهم بأن رحمته تعرض ثم تنقطع أو قد يأتي وقت لا يرحم فيه سبحانه - فجمع الله كمال الاتصاف بالرحمة لنفسه^(١).

ومن ذلك أنه يستعمل صيغة جمع في مكان ثم يستعمل صيغة جمع أخرى في مكان آخر يبدو شبيهاً بالأول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبٌّ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَأْسَنُ﴾ [يوسف].

فأنت ترى أن العدد في الآيتين واحد هو سبع، ولكن استعمل معه: (سنبلات) مرة ومرة أخرى: (سنابل) وسر ذلك أن سنابل جمع كثرة وسنبلات جمع قلة، وقد سقت الآية الأولى في مقام التكثير ومضاعفة الأجور فجاء بها على (سنابل) لبيان التكثير.

وأما قوله: (سبع سنبلات) فجاء بها على لفظ القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير^(٢). فجاء لكل موضع بما يقتضيه السياق.

ومن لطيف استعمال القلة والكثرة ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٢٦] شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ آجَبْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان].

فجمع النعمة في آية النحل جمع قلة (أنعم) وجمعها في لقمان جمع كثرة (نعمه) وذلك أن نعم الله لا تحصى، فلا يطبق الإنسان شكرها جميعها، ولكن قد يشكر قسماً منها، ولذلك لما ذكر إبراهيم وأثنى عليه قال: إنه شاكر لأنعمه،

(١) معاني الأنبياء ٩١ - ٩٢.

(٢) التفسير القيم ١٥٤ - ١٥٥، البرهان ٢٢/٤.

ولم يقل: لنعمه، لأن شكر النعم ليس في مقدور أحد، بل إن إحصاءها ليس في مقدور أحد فكيف بشكرها؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [النحل]. وأما الآية الثانية فهي في مقام تعداد نعمه وفضله على الناس فقال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان]. فذكرها بزنة جمع الكثرة.

وقد ذكرت في كتابي «معاني الأبنية في العربية» أمثلة أخرى لاستعمال صيغ الجموع المختلفة. وقد يستعمل المفرد مرة والجمع مرة أخرى مع أن الموضعين يبدوان متشابهين فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [آل عمران].

فقال مرة: (معدودة) ومرة أخرى: (معدودات) مع أن القصة واحدة.

والحقيقة أن السياق في الموضعين مختلف. وإيضاح ذلك أن المفرد المؤنث إذا وقع صفة للجمع دل على أن الموصوف أكثر منه، إذا كانت صفته جمعاً سالماً، فإنك إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقة) دل ذلك على أن عندكم جبلاً كثيرة بخلاف ما إذا قلت: (في بلدنا جبال شاهقات) فإنه يدل على القلة. والأنهار في قولك: (أنهار جارية) أكثر منها في: (أنهار جاريات) وعلى هذا فالأيام المعدودة أكثر من الأيام المعدودات وسبب ذلك أن المقامين مختلفان.

أما الأولى فالكلام فيها على بني إسرائيل وقد أكثر من الكلام عليهم وفي صفاتهم السيئة فذكر أنهم يُحَرِّفُونَ كلام الله وهم يعلمون. قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَقِلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [٧٥] وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُفُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُواهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة].

فهم يعرفون جرهم ويقرّون به ويعملون به عن قصد وإصرار وقد توعدّهم الله بالعذاب الشديد فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ أَرْشَاءُ بِهِمْ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة].

إذن فهم يعملون بالجرم عن قصد ويحرفونه عن علم ليشترخوا به ثمناً قليلاً.
ولإذن فهم يعلمون أن الله معاقبهم على هذا الجرم فقالوا: (إلا أياماً معدودة)
فجاء بصيغة الكثرة.

وليس الأمر كذلك في آية آل عمران فقد قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ
الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُوقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا
لَن نَّمَسُكِنَا النَّكَارَ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْرُتُونَ ﴿٢٤﴾ .

فليس في آية آل عمران مثل الجرم المذكور في سورة البقرة من
ارتكاب الذنب العمد وتحريف كلام الله، ففرق كبير بين المقامين. فجاء
بزمن العذاب الطويل للجرم الكبير، والقليل للذنب القليل فقال:
(معدودات) بصيغة جمع القلة في آل عمران، بخلاف آية البقرة فسبحان الله رب
العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنبياء].
وقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان].

فقال في آية الأنبياء: (السماء) وفي آية الفرقان: (السموات) وسبب ذلك
أن القول عام يشمل السر والجهر فهو أعم من السر ألا ترى أنك تقول: قلت
في نفسي كذا وكذا؟

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَيُشْسِ
الْمُصِيبُ﴾ [المجادلة].

جاء في (الكشاف) أن «القول عام يشمل السر والجهر فكان في العلم به
العلم بالسر وزيادة فكان أكد في بيان الاطلاع على نحو أهم»^(١).

والسماء هنا أعم من السماوات وذلك أن (السماء) في القرآن تستعمل على
معنيين فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ السَّمَاءَ

(١) الكشاف ٣٢١/٢ وانظر تفسير البضاوي ٤٢٦.

الَّذِينَ بِمَصْنُوعٍ ﴿٥﴾ [المُلْك] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١١﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ [الحجر].

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ ﴿١١﴾ [نوح] والسما هنا بمعنى المطر.

وقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ﴿١٧﴾ [الرعد] والسما هنا بمعنى السحاب.

وقال: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ﴿١٢٩﴾ [الأنعام] والسما هنا بمعنى الجو.

والمعنى أن الضالَّ عن الحق يكون صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في الجو لأن المرتفع في الجو يضيق صدره لاختلال الضغط كما هو معلوم. وهذا إعجاز علمي علاوة على الإعجاز اللغوي، لأنه أخبر بهذه الحقيقة العلمية قبل اختراع المنطادات والطائرات بدهور.

وقال: ﴿مَنْ كَانَتْ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾ [الحج].

والسما هنا بمعنى السقف، أي: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ لَن يَنْصُرَهُ اللَّهُ مُحَمَّدًا فَلْيَمْدُدْ حَبْلًا إِلَى سَقْفِ بَيْتِهِ ثُمَّ لِيَخْنُقْ نَفْسَهُ بِهِ لِأَنَّ مُحَمَّدًا مُنْتَصِرٌ لَا مُحَالَةٌ. وهذا إعجاز آخر لأنه إخبار عن المستقبل وقد تحقق ذاك.

ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من السماوات لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع. فجاء به (القول) الذي هو أعم من (السر) مع السماء التي هي أعم من السماوات فاستعمل العام مع الخاص والخاص مع الخاص.

ألا ترى كيف قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد].

فلما جاء بالسموات قال: (عرضها السماوات والأرض)، ولما جاء بالسماء التي هي أعم من السماوات قال: (عرضها كعرض السماء والأرض) فجاء بكاف التشبيه وذلك لأن السماء أعرض بكثير من السماوات.

ثم ألا ترى كيف قال الله تعالى في كُلِّ من الآيتين، ففي آية السماوات قال: (أعدت للمتقين) وفي آية السماء قال: (أعدت للذين آمنوا بالله ورسله) وذلك لأن المتقين أخص من المؤمنين بالله ورسله، لأن المتقي لا يكون إلا مؤمناً أما المؤمن بالله ورسله فقد لا يكون متقياً، فالمؤمنون بالله ورسله أكثر من المتقين فجاء للطبقة الواسعة وهم المؤمنون بالله ورسله بذكر صفتها الواسعة (كعرض السماء) وجاء مع الطبقة الخاصة الذين هم أقل ممن قبلهم وهم المتقون بلفظ: (السماوات) التي هي أقل سعة من السماء فناسب بين السعة والعدد.

ثم انظر كيف زاد في آية الحديد قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد]. وذلك لما زاد تفضله على الخلق فوسَّع دائرة الداخلين في الجنة، وجعلها في المؤمنين عامة ولم يقصرها على المتقين منهم، ذكر هذا الفضل العظيم في آية الحديد.

ثم انظر كيف أنه لما ذكر الجنة بأوسع صفة لها وذكر كثرة الخلق الداخلين فيها وذكر فضله العظيم على عباده قال: (سابقوا) وفي الآية الأخرى قال: (سارعوا) وذلك لأن كثرة الخلق المتوجهين إلى مكان ما تستدعي المسابقة إليه لا مجرد المُسارعة.

فانظر كيف ذكر في آية الحديد (المسابقة) وهي تشمل المسارعة وزيادة، وذكر (السماء) وهي تشمل السماوات وزيادة، وذكر المؤمنين بالله ورسله وهم يشملون المتقين وزيادة. وزاد فيها ذكر الفضل على المغفرة والجنة. فجعل في كل موضع ما يناسبه من الألفاظ فجلّت حكمة الله.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣) وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ ﴿١٤﴾ [النساء].

فقال في أصحاب الجنة: (خالدين فيها) بالجمع وفي أصحاب النار: (خالداً فيها) بالإفراد وقالوا: إن الحكمة في جمع الوصف أولاً للإشعار بالاجتماع المستلزم لزيادة الأنس والسعادة عند أهل الجنة فإن الوحدة لا تطاق، وإفراده لزيادة التعذيب عند أهل النار فإنه تعذيب بالنار، والوحدة جاء في (حاشية يس على التصريح) في هاتين الآيتين: «ولعل الحكمة في جمع الوصف أولاً بذلك الاعتبار وإفراده ثانياً باعتبار اللفظ، ما في صيغة الجمع من الإشعار بالاجتماع المستلزم للتأنس زيادة في النعيم وما في الإفراد من الإشعار بالوحدة المستلزم للوحدة زيادة في التعذيب كما ذكره المولى أبو السعود.

وقيل: إنه لما ذكر في الأول جنات متعددة لا جنة واحدة قال: (يدخله) والضمير المنصوب في (يدخله) وإن كان مجموعاً في المعنى فهو في اللفظ مفرد من حيث هو مفرد، والمفرد من حيث هو مفرد لا يصح أن يكون في جنات متعددة فجاء (خالدين) لرفع هذا الإبهام اللفظي، فهو اعتبار لفظي ومناسبة لفظية وإن كان المعنى صحيحاً.

أما الآية الثانية فذكر فيها ناراً فناسبها الإفراد في (خالداً) (١).

ومن ذلك قوله تعالى في قصة صالح: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَقْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ (٧٦) [الأعراف].

وقوله في قصة شعيب: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورُ لَقَدْ أَتَلَقْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأَ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (١٢٦) [الأعراف].

فأفرد الرسالة مع صالح وجمعها مع شعيب فقال: (رسالات) قالوا: وذلك أن شعبياً بُعث إلى أمتين: مدين وأصحاب الأيكة، وصالحاً بُعث إلى أمة واحدة، قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً﴾ (١٥٠) [الأعراف].

(١) حاشية يس على التصريح ١٤٠/١.

وقال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلَةِ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء].

ومدين غير أصحاب الأيكة، وشعيب عليه السلام كان من مدين ولم يكن من أصحاب الأيكة ولذلك إذا ذكرت مدين قال: (أخوهم) وإذا ذكر أصحاب الأيكة لم يقل: (أخوهم). قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف، هود ٨٤، المؤمنون ٣٦].

وقد ذكر الله جملة من الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء، وكلهم قال فيه: (أخوهم) إلا أصحاب الأيكة.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿١٧٤﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿١٤٢﴾﴾ [الشعراء].

وقال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿١٦٨﴾﴾ [الشعراء].

ثم قال بعد ذلك: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلَةِ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْقِوُ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء].

فانظر كيف قال: (أخوهم) مع الأنبياء الذين أرسلوا إلى أقوامهم ولم يقل ذلك فيمن أرسل إلى غير قومه.

فشعيب أرسل إلى أمتين ولذلك جمع الرسالة فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَاكُمْ رِسَالًا رَبِّي ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف]. وقال صالح: ﴿أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف].

ثم لو نظرت إلى ما ذكره كل من صالح وشعيب عليهما السلام وبلغ به قومه لوجدت أن ما ذكره شعيب من الأوامر والنواهي أكثر مما ذكره صالح.

قال تعالى على لسان صالح بعد أن ذكر نعمة الله عليهم: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٥٧﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يَصْلِحُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الشعراء].

وقال على لسان شعيب: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ (٧٧) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٧٨) ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ (٧٩) ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (٨٠) ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٨١) ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِلَّةَ الْأُولَى﴾ (٨٢) ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (٨٣) [الشعراء].

فهي في حق صالح رسالة، وفي حق شعيب رسالات.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٨٤) [الأعراف].

وقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٨٥) [هود].

وقوله: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾ (٨٦) [هود].

فأنت ترى حيث ذكر الصيحة جمع الدار وحيث ذكر الرجفة وهي الزلزلة الشديدة، وخذ الدار، وذلك لأن الصيحة تبلغ أكثر مما تبلغ الرجفة فالرجفة تختص بجزء من الأرض، أما الصيحة فإنما يبلغ صوتها مساحة أكبر من مساحة الرجفة فلذلك وخذ مع الرجفة وجمع مع الصيحة^(١).

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ (٨٧) [يونس].

وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ (٨٨) [يونس].

فقال: (يستمعون) بلفظ الجمع وقال بعده: (ينظر) بلفظ المفرد وذلك لأن المستمعين أكثر من الرائين على وجه العموم، ألا ترى أننا نستمع إلى أناس كثير لا نراهم في الإذاعات وأشرطة التسجيل وغيرها من وسائل السمع، فجمع المستمعين لأنهم أكثر وإن كان لفظ (من) يحتمل الجمع والمفرد. وذكر الكرمانى أنما فرق بينهما « لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي ﷺ بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة، فجمع ليطابق اللفظ المعنى.

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٨٤، ٢٣٩.

وَوَحَّدَ (ينظر) حملاً على اللفظ إذ لم يكثرُوا كثرتهم^(١).

وربما كان ذلك لسبب آخر علاوة على ما ذكر فإن التأثر بالدعوة يكون بحسب أثر الاستماع لا بحسب الرؤية، فوَحَّدَ النظر لأن رؤيته ﷺ واحدة لا تختلف بالنسبة إلى الرائيين. وجمع الاستماع لأن الاستماع يختلف أثره من شخص لآخر. فالكلام يختلف مواقعه من مستمع لآخر، ولذلك وَحَّدَ الرائيين لأنهم يرون شيئاً واحداً وجمع المستمعين لأن أثر ذلك مختلف عندهم.

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ﴿وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء] فجمع الشافع ووحيد الصديق: «فإن قلت: لِمَ جمع الشافع ووحيد الصديق؟ قلت: لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق»^(٢) «ولأن الصديق الواحد يسعى أكثر مما يسعى الشفعاء»^(٣) وبخاصة أنه وصف الصديق بأنه حميم فإن ذلك أندر.

وقريب من ذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَقٌّ عَظِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج].

فجمع أولاً فقال: (ترونها) ثم وَحَّدَ فقال: (وترى الناس) جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لِمَ قيل أولاً: (ترون)، ثم قيل: (ترى) على الأفراد؟

قلت: لأن الرؤية أولاً علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعاً رائيين لها. وهي معلقة أخيراً بكون الناس على حال السكر فلا بد أن يجعل كل واحد منهم رائياً لسائرهم»^(٤) وهذا باب واسع نكتفي منه بهذا القدر.

(١) البرهان ٢٢٣.

(٢) الكشاف ٤٣٠/٢.

(٣) تفسير البضاوي ٤٩١.

(٤) الكشاف ٣٤١/٢.

التقديم والتأخير

يمكننا تقسيم أحوال التقديم والتأخير على قسمين :

الأول : تقديم اللفظ على عامله نحو : (خالداً أعطيت) و : (بمحمد اقتديت) .

الثاني : تقديم الألفاظ بعضها على بعض في غير العامل وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ وَمَا أَهْلَ لغيرِ اللَّهِ ﴾ [المائدة] ومثل : (أعرت خالداً كتابي) و : (أعرت كتابي خالداً) .

١- تقديم اللفظ على عامله

ومن هذا الباب تقديم المفعول به على فعله ، وتقديم الحال على فعله ، وتقديم الظرف والجار والمجرور على فعلهما ، وتقديم الخبر على المبتدأ ونحو ذلك . وهذا التقديم في الغالب يفيد الاختصاص فقوله : (أنجدت خالداً) يفيد أنك أنجدت خالداً ولا يفيد أنك خصصت خالداً بالنجدة بل يجوز أنك أنجدت غيره أو لم تنجد أحداً معه . فإذا قلت : (خالداً أنجدت) أفاد ذلك أنك خصصت خالداً بالنجدة وأنت لم تنجد أحداً آخر .

ومثل هذا التقديم في القرآن كثير .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة] فقد قدم المفعول به (إياك) على فعل العبادة وعلى فعل الاستعانة دون فعل الهداية فلم يقل : (إيانا اهد) كما قال في الأولين ؛ وسبب ذلك أن العبادة والاستعانة مختصتان بالله تعالى ، فلا يعبد أحد غيره ولا يستعان به . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر] وقوله : ﴿ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة] فقدم المفعول به على فعل العبادة في الموضعين وذلك لأن العبادة مختصة بالله تعالى .

ومثل التقديم على فعل الاستعانة قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم] وقوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا ﴾ [الأعراف] وقوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود] فقدم الجار والمجرور للدلالة على

الاختصاص وذلك لأن التوكل لا يكون إلا على الله وحده والإنابة ليست إلا إليه وحده.

ولم يقدم مفعول الهداية على فعله فلم يقل: (إيانا اهد) كما قال: (إياك نعبد) وذلك لأن طلب الهداية لا يصح فيه الاختصاص إذ لا يصح أن تقول: اللهم اهدني وحدي ولا تهد أحداً غيري أو خصني بالهداية من دون الناس. وهو كما تقول: اللهم ارزقني واشفني وعافني. فأنت تسأل لنفسك ذلك ولم تسأله أن يخصصك وحدك بالرزق والشفاء والعافية فلا يرزق أحداً غيرك ولا يشفيه ولا يعافيه.

ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [المُلْك] فقدم الفعل (آمنا) على الجار والمجرور (به) وآخر (توكلنا) عن الجار والمجرور (عليه) وذلك أن «الإيمان لما لم يكن منحصراً في الإيمان بالله، بل لا بد معه من رسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وغيره مما يتوقف صحة الإيمان عليه، بخلاف التوكل فإنه لا يكون إلا على الله وحده لتفرده بالقدرة والعلم القديمين الباقيين، قدم الجار والمجرور فيه ليؤذن باختصاص التوكل من العبد على الله دون غيره لأن غيره لا يملك ضراً ولا نفعاً فيتوكل عليه»^(١).

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى] «لأن المعنى أن الله تعالى مختص بصيرورة الأمور إليه دون غيره. ونحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٦٦﴾» [الغاشية]. فإن الإياب لا يكون إلا إلى الله، وهو نظير قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَدْعُوا إِلَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد] وقوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ [القيامة] فالمساق إلى الله وحده لا إلى ذات أخرى، وهذا ليس من التقديم من أجل مراعاة المشاكلة لرؤوس الآي كما ذهب

(١) البرهان ٢/ ٤١٢ وانظر التفسير الكبير ٣٠/ ٧٦.

(٢) الطراز ٢/ ٧٠-٧١.

بعضهم^(١) بل هو لقصد الاختصاص نظير قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس] وقوله: ﴿وإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا﴾ [هود] وقوله: ﴿كُلُّ إِنْسَانٍ رَاجِعٌ حَيْثُ وَكُنْتُ لَهُ الْآيَاتُ﴾ [الأنبياء] وغير ذلك من الآيات.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت] فعلم الساعة مختص بالله وحده لا يعلمه أحد غيره ونحوه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ وهو نظير الآية السابقة.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام] فقدم الظرف الذي هو الخبر على المبتدأ (مفاتيح الغيب) وذلك لاختصاصه سبحانه بعلم الغيب ألا ترى كيف أكد ذلك الاختصاص بأسلوب آخر هو أسلوب القصر فقال: (لا يعلمها إلا هو)؟

وقد يكون التقديم من هذا النوع لغرض آخر كالمدح والثناء والتعظيم والتحقير وغير ذلك من الأغراض، إلا أن الأكثر فيه أن يفيد الاختصاص. ومن التقديم الذي لا يفيد الاختصاص قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام] فهذا ليس من باب التخصيص إذ ليس معناه أننا ما هدينا إلا نوحاً وإنما هو من باب المدح والثناء. ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى] إذ ليس المقصود به جواز قهر غير اليتيم ونهر غير السائل، وإنما هو من باب التوجيه فإن اليتيم ضعيف وكذلك السائل وهما مظنة القهر، فقدمهما للاهتمام بشأنهما والتوجيه إلى عدم استضعافهما.

٢- تقديم اللفظ وتأخيرهِ على غير العامل

إن تقديم الألفاظ بعضها على بعض له أسباب عديدة يقتضيها المقام وسياق القول، يجمعها قولهم: إن التقديم إنما يكون للعناية والاهتمام. فما كانت به عنايتك أكبر قدمته في الكلام. والعناية باللفظة لا تكون من حيث أنها لفظة

(١) انظر الطراز ٧١/٢.

معينة بل قد تكون العناية بحسب مقتضى الحال . ولذا كان عليك أن تقدم كلمة في موضع ثم تؤخرها في موضع آخر لأن مراعاة مقتضى الحال تقتضي ذاك . والقرآن أعلى مثل في ذلك فإننا نراه يقدم لفظة مرة ويؤخرها مرة أخرى على حسب المقام . فنراه مثلاً يقدم السماء على الأرض ومرة يقدم الأرض على السماء ، ومرة يقدم الإنس على الجن ومرة يقدم الجن على الإنس ، ومرة يقدم الضر على النفع ومرة يقدم النفع على الضر ، كل ذلك بحسب ما يقتضيه فن القول وسياق التعبير .

فإذا أردت أن تبين أسباب هذا التقديم أو ذاك فإنه لا يصح الاكتفاء بالقول إنه قدم هذه الكلمة هنا للعناية بها والاهتمام دون تبين موطن هذه العناية وسبب هذا التقديم .

فإذا قيل لك مثلاً : لماذا قدم الله السماء على الأرض هنا؟

قلت : لأن الاهتمام بالسماء أكبر .

ثم إذا قيل لك : ولماذا قدم الله الأرض على السماء في هذه الآية؟

قلت : لأن الاهتمام بالأرض هنا أكبر .

فإذا قيل لك : ولماذا كان الاهتمام بالسماء هناك أكبر وكان الاهتمام بالأرض هنا أكبر؟

وجب عليك أن تبين سبب ذلك وبيان الاختلاف بين المواطنين ، بحيث تبين أنه لا يصح أو لا يحسن تقديم الأرض على السماء فيما قدمت فيه السماء ، أو تقديم السماء على الأرض فيما قدمت فيه الأرض بياناً شافياً . وكذلك بقية المواطن الأخرى . أما أن تكتفي بعبارة أن هذه اللفظة قدمت للعناية والاهتمام بها فهذا وجه من وجوه الإبهام . والاكتفاء بها يضيع معرفة التمايز بين الأساليب فلا تعرف الأسلوب العالي الرفيع من الأسلوب المهلهل السخيف ، إذ كل واحد يقول لك : إن عنايتي بهذه اللفظة هنا أكبر دون البصر بما يستحقه المقام وما يقتضيه السياق .

إن فن التقديم والتأخير فن رفيع يعرفه أهل البصر بالتعبير والذين أوتوا حظاً من معرفة مواقع الكلام وليس ادعاء يدعى أو كلمة تقال.

وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفن - كما في غيره - الذروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقه في التعبير بحيث تستقر في مكانها المناسب. ولم يكتف القرآن الكريم في وضع اللفظة بمراعاة السياق الذي وردت فيه بل راعى جميع المواضع التي وردت فيها اللفظة ونظر إليها نظرة واحدة شاملة في القرآن الكريم كله. فنرى التعبير متسقاً متناسقاً مع غيره من التعبيرات كأنه لوحة فنية واحدة مكتملة متكاملة.

إن القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة. وسنوضح هذا القول المجمل ببيان شاف.

إن القرآن - كما ذكرت - يقدم الألفاظ ويؤخرها حسبما يقتضيه المقام فقد يكون سياق الكلام - مثلاً - متدرجاً حسب القدم والأولية في الوجود، فيرتب ذكر الكلمات على هذا الأساس فيبدأ بالأقدم ثم الذي يليه وهكذا وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] فخلق الجن قبل خلق الإنسان بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَجَّأَنَ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر] فذكر الجن أولاً ثم ذكر الإنسان بعدهم.

ونحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذْهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة] لأن السنة وهي النعاس تسبق النوم^(١) فبدأ بالسنة ثم النوم.

ومن ذلك تقديم عاد على ثمود^(٢) قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِ نِهِمُ﴾ [العنكبوت] فإن عاداً أسبق من ثمود.

(١) انظر كتابنا (معاني النحو) - باب العطف.

(٢) الإتيان ١٥/٢.

وجعلوا من ذلك تقديم الليل على النهار والظلمات على النور^(١) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الأنبياء] فقدم الليل لأنه أسبق من النهار وذلك لأنه قبل خلق الأجرام كانت الظلمة وقدم الشمس على القمر لأنها قبله في الوجود. وقال: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة. ومثل تقديم الليل على النهار تقديم الظلمات على النور كما ذكرت. قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام] وذلك لأن الظلمة قبل النور لما مر في الليل.

قالوا: ومن ذلك تقديم العزيز على الحكيم حيث ورد في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر] قالوا: لأنه عز فحكم^(٢).

ومنه تقديم القوة على العزة لأنه قوي فعز أي غلب فالقوة أول قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج ٤٠، ٧٤] وقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب].

وقد يكون التقديم بحسب الفضل والشرف، منه تقديم الله سبحانه في الذكر^(٣) كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء].

فقدم الله على الرسول ثم قدم السعداء من الخلق بحسب تفاضلهم، فبدأ بالأفضلين وهم النبيون ثم ذكر من بعدهم بحسب تفاضلهم. كما تدرج من القلة إلى الكثرة فبدأ بالنبيين وهم أقل الخلق، ثم الصديقين وهم أكثر، ثم الشهداء ثم الصالحين، فكل صنف أكثر من الذي قبله فعه تدرج من القلة إلى الكثرة ومن الأفضل إلى الفاضل. ولا شك أن أفضل الخلق هم أقل الخلق إذ كلما ترقى الناس في الفضل قلَّ صنفهم.

(١) الإتيان ١٥/٢.

(٢) الإتيان ١٤/٢.

(٣) الإتيان ١٤/٢.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧] فبدأ بالرسول لأنه أفضلهم^(١).

وجعلوا من ذلك تقديم السمع على البصر قال تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى، وانظر غافر ٢٠] وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء، غافر ٥٦].

وقال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان] فقدم السمع على البصر.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان].

فقدم الصُّمَّ وهم فاقدو السمع على العميان وهم فاقدو البصر. قالوا: لأن السمع أفضل^(٢). قالوا: والدليل على ذلك أن الله لم يبعث نبياً أصم، ولكن قد يكون النبي أعمى كيعقوب عليه السلام فإنه عمى لفقد ولده.

والظاهر أن السَّمْعَ بالنسبة إلى تلقي الرسالة أفضل من البصر، ففاقد البصر يستطيع أن يفهم ويعي مقاصد الرسالة فإن مهمة الرسل التبليغ عن الله. والأعمى يمكن تبليغه بها ويتيسر استيعابه لها كالبصير، غير أن فاقد السمع لا يمكن تبليغه بسهولة. فالأصم أنأى عن الفهم من الأعمى، ولذا كان من العميان علماء كبار بخلاف الصم. فلكون متعلق ذلك التبليغ كان تقديم السمع أولى.

ويمكن أن يكون تقديم السمع على البصر لسبب آخر عدا الأفضلية، وهو أن مدى السمع أقل من مدى الرؤية، فقدم ذا المدى الأقل متدرجاً من القصر إلى الطول في المدى، ولذا حين قال موسى في فرعون: ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغَى﴾ [طه] قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه].

(١) انظر الكشف ٥٣١/٢.

(٢) انظر البرهان ٢٥٤/٣.

فقدم السمع لأنه يوحى بالقرب إذ الذي يسمعك يكون في العادة قريباً منك بخلاف الذي يراك فإنه قد يكون بعيداً وإن كان الله لا يندّ عن سمعه شيء .

وقد يكون التقديم بحسب الرتبة وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿١١﴾ هَمَازٌ مَشَاءٌ بَنِمِيمٍ ﴿١٢﴾ مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٣﴾ [القلم] « فإن الهمّاز هو العيَاب وذلك لا يفتقر إلى مشي بخلاف النميمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص (١) » .

فبدأ بالهماز وهو الذي يعيب الناس وهذا لا يفتقر إلى مشي ولا حركة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو المشي بالنميمة، ثم انتقل إلى مرتبة أبعد في الإيذاء وهو أنه يمنع الخير عن الآخرين، وهذه مرتبة أبعد في الإيذاء مما تقدمها. ثم انتقل إلى مرتبة أخرى أبعد مما قبلها وهو الاعتداء، فإن منع الخير قد لا يصحبه اعتداء، أما العدوان فهو مرتبة أشد في الإيذاء. ثم ختمها بقوله: (أثيم) وهو وصف جامع لأنواع الشرور، فهي مرتبة أخرى أشد إيذاءً. جاء في (بدائع الفوائد): « وأما تقدم (هماز) على (مشاء بنميم) فالرتبة لأن المشي مرتب على القعود في المكان. والهماز هو العيَاب وذلك لا يفتقر إلى حركة وانتقال من موضعه بخلاف النميم. وأما تقدم (مناع للخير) على (معتد) فبالرتبة أيضاً لأن المناع يمنع من نفسه والمعتدي يعتدي على غيره ونفسه قبل غيره» (٢) .

وجعلوا منه تقدم السمع على العلم حيث وقع في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٣٧﴾ [البقرة] وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٦﴾ [الأنفال] وذلك أنه «خبر يتضمن التخويف والتهديد، فبدأ بالسمع لتعلقه بما يقرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخفي صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم وإن كان علمه تعالى متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً على ما قرب وشطن. ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم فهو أولى بالتقديم» (٣) .

ويمكن أن يُقال: إن السمع من وسائل العلم فهو يسبقه .

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٢ .

(٢) بدائع الفوائد ١/ ٦٢ .

(٣) بدائع الفوائد ١/ ٧٤، البرهان ٣/ ٢٤٩ .

وجعلوا منه أيضاً تقديم المغفرة على الرحمة نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة] في آيات كثيرة وقوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء] قالوا: وسبب تقديم الغفور على الرحيم أن «المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ] فالرحمة شملتهم جميعاً والمغفرة تخص بعضاً. والعموم قبل الخصوص بالرتبة»^(١).

وأيضاح ذلك أن جميع الخلائق من الإنس والجن والحيوان وغيرهم محتاجون إلى رحمته، فهي برحمته تحيا وتعيش وبرحمته تتراحم. وأما المغفرة فتخص المكلفين فالرحمة أعم.

ومن التقديم بالرتبة أيضاً قوله تعالى في من يكثر الذهب والفضة: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة] فبدأ بالجباه ثم الجنوب ثم الظهر « قيل: لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا وإذا ضمهم وإياه مجلس ازوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم»^(٢). فتدرج بحسب الرتبة.

وقد يكون التقديم بحسب الكثرة والقلة فقد يرتب المذكورات متدرجاً من القلة إلى الكثرة حسبما يقتضيه المقام وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتَیْ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة] فكل طائفة هي أقل من التي بعدها فتدرج من القلة إلى الكثرة. فالطائفون أقل من العاكفين لأن الطواف لا يكون إلا حول الكعبة. والعكوف يكون في المساجد عموماً. والعاكفون أقل من الراكعين لأن الركوع أي: الصلاة تكون في كل أرض طاهرة، أما العكوف فلا يكون إلا في المساجد. والراكعون أقل من الساجدين وذلك لأن لكل ركعة سجدتين ثم أن كل راکع لا بد أن يسجد وقد يكون سجود ليس له ركوع كسجود التلاوة وسجود الشكر. فهو هنا تدرج من القلة إلى الكثرة^(٣).

(١) البرهان ٢٤٩/٣، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) الكشف ٣٨/٢.

(٣) انظر بدائع الفوائد ٦٥/١ والبرهان ٢٥٠/٣ وانظر معاني النحو - باب العطف.

ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام فإن الكلام على بيت الله الحرام. قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَيْكَ بِرِزْقِهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَّرَ بَيْتَ اللَّطَائِفِينَ وَالْمَكِينِ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة] فالطائفون هم الصق المذكورين بالبيت لأنهم يطوفون حوله، فبدأ بهم ثم تدرج إلى العاكفين في هذا البيت أو في بيوت الله عموماً، ثم الركع السجود الذين يتوجهون إلى هذا البيت في ركوعهم وسجودهم في كل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج] فبدأ بالركوع وهو أقل المذكورات، ثم السجود وهو أكثر، ثم عبادة الرب وهو أعم، ثم فعل الخير.

وقد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَمُرِّيهِمْ أَقْنِي لِرَبِّكَ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران] فبدأ بالقنوت وهو عموم العبادة، ثم السجود وهو أقل وأخص، ثم الركوع وهو أقل وأخص^(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنُفِّسَكُمْ كَافِرٌ وَمُؤْمِنٌ﴾ [التغابن] فبدأ بالكفار لأنهم أكثر(*) قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف].

(١) بدائع الفوائد ٨/١.

(*) أو هو إشارة إلى أنه سيبدأ بذكر الكافرين ثم بذكر المؤمنين بعدهم فقد قال بعد هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقال: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا عَمِلُوا وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ وَمَا عَلَّمَهُمْ عَلَى اللَّهِ سِيْرًا﴾ ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكْثِرْ عِنْدَ رَبِّهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

فقدم الكلام على الكافرين ثم ذكر المؤمنين بعدهم كما فعل في الآية التي ذكرناها أولاً. ولا يناقض هذا ما ذكرناه في تعليل التقديم ولا يخالفه من أن التقديم ههنا إنما جرى بحسب الكثرة والقلة إذ ربما كان أكثر من ملحظ للتقديم والتأخير. فقد تعاضد على ذلك أمران كلاهما يقتضي التقديم. وهو تعاضد فني رفيع.

ونحوه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ۖ﴾ [فاطر] فقدم الظالم لكثرة ثم المقتصد وهو أقل ممن قبله ثم السابقين وهم أقل^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: ((فإن قلت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيدان بكسر الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالاضافة إليهم والسابقون أقل من القليل))^(٢).

ألا ترى كيف قال الله تعالى في السابقين: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة] إشارة إلى ندرتهم وقلة وجودهم؟

قالوا: ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة] قدم السارق على السارقة لأن السرقة في الذكور أكثر. وقدم الزانية على الزاني في قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور] لأن الزنى فيهن أكثر^(٣).

ألا ترى أن قسماً من النساء يحترفن هذه الفعلة الفاحشة؟ وجاء في حاشية ابن المنير على «الكشاف» قوله: «وقدم الزانية على الزاني والسبب فيه أن الكلام الأول في حكم الزنى والأصل فيه المرأة لما يبدو منها من الإيماض والإطماع والكلام^(٤)، «ولأن مفسدته تتحقق بالاضافة إليها»^(٥).

وقد يكون التقديم لملاحظ أخرى تتناسب مع السياق فنراه يقدم لفظة في موضع ويؤخرها في موضع آخر بحسب ما يقتضي السياق.

فمن ذلك تقديم لفظ (الضرر) على (النفع) وبالعكس قالوا: إنه حيث تقدم النفع على الضرر فلتقدم ما يتضمن النفع، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا

(١) انظر الاتقان ١٥/٢.

(٢) الكشاف ٥٧٨/٢.

(٣) الاتقان ١٥/٢.

(٤) حاشية ابن المنير ٣٧٣-٣٧٤.

(٥) تفسير البضاوي ٤٦٢.

ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف] فقدم النفع على الضرر وذلك لأنه تقدمه في قوله ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَاُضِلِّكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف] فقدم الهداية على الضلال، وبعد ذلك قال: ﴿وَلَوْ كُنْتَ أَعْلَمَ الْغَيْبَ لَاسْتَكْرْتُمْ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف] فقدم الخير على السوء ولذا قدم النفع على الضرر إذ هو المناسب للسياق.

وقال: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ ﴿١٣٩﴾ [يونس] فقدم الضرر على النفع وقد قال قبل هذه الآية: ﴿وَلَوْ يُعِجِلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ ﴿١٣٨﴾ [يونس] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ﴾ ﴿١٤٠﴾ [يونس].

فقدم الضرر على النفع في الآيتين. ويأتي بعد هذه الآية قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابٌ بَيْنَنَا أَوْ نَحَارًا مَاذَا اسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٤١﴾ [يونس] فكان المناسب تقديم الضرر على النفع ههنا.

وقال: ﴿قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ﴿١٤٢﴾ [الرعد]. فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ ﴿١٤٣﴾ [الرعد] فقدم الطوع على الكره.

وقال: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ ﴿١٤٤﴾ [سبأ] فقدم النفع على الضرر، قالوا: وذلك لتقدم قوله: ﴿قُلْ إِنْ رَأَيْتُمْ بِسْطَ الرِّزْقِ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ يَقْدِرُ لَهُ﴾ ﴿١٤٥﴾ [سبأ] فقدم البسط.

وغير ذلك من مواضع هاتين اللفظيتين^(١).

ومن ذلك تقديم الرحمة والعذاب. فقد قيل إنه حيث ذكر الرحمة والعذاب بدأ بذكر الرحمة كقوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ﴿١٤٦﴾ [المائدة] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ ﴿١٤٧﴾ [فصلت] وقوله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ ﴿١٤٨﴾ [غافر].

(١) انظر البرهان ١/١٢٢، البرهان للكرمانلي ١٩٧ وما بعدها، ٣٤٩ درة التنزيل ٢٠٩.

وعلى هذا جاء قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «إن رحمتي سبقت غضبي».

وقد خرج عن هذه القاعدة مواضع اقتضت الحكمة فيها تقديم ذكر العذاب ترهيباً وزجراً. من ذلك قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢١﴾ لأنها وردت في سياق ذكر قطاع الطرق والمحاربين والسراق فكان المناسب تقديم ذكر العذاب وذلك أنها وردت بعد قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ ﴿٢٢﴾ [المائدة] فقدم القتل على الإحياء، ثم قال بعدها: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِمَّا دَلَّكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿٢٣﴾ [المائدة] ثم جاء بعدها: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ [المائدة]. ثم جاء بعدها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٢٥﴾ [المائدة].

فأنت ترى أن المناسب ههنا تقديم العذاب على المغفرة. جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ إلى قوله ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾

«فإن قلت: لم قدم التعذيب عن المغفرة؟

قلت: لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة» (١).

ومن ذلك قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ﴿٢١﴾ وذلك لأنها في سياق إنذار إبراهيم لقومه ومخاطبة نمرود

(١) الكشاف ٤٦٠/١ وانظر ملاك التأويل ١٣٨/١ وما بعدها، ٢٥٢/١ وما بعدها.

وأصحابه وأن العذاب وقع بهم في الدنيا^(١). فقد أُنذر إبراهيم قومه قائلاً:
﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ ۖ ﴾ [العنكبوت] ثم قال: ﴿ وَإِن تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت] وهددهم بعد بقوله:
﴿ وَمَا أَنشَأْتُ مِصْرَ بْنَ لَاحِثٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [الأنبياء] وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثِلِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُونَ لَهَا عَذَابًا
أَلِيمًا ﴾ [العنكبوت] فأنت ترى أن السياق يقتضي تقديم العذاب هنا.

وقد يكون التقديم والتأخير على نمط آخر غير الذي ذكرت من تقديم الضرر والنفع والعذاب والمغفرة وغيرها من الخطوط العامة. فقد يقدم لفظة في مكان ويؤخرها في مكان آخر حسبما يقتضيه السياق.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء].

وقوله ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾ [نوح] ﴿ لَسَلَكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح] فقدم الفجاج على السبل في الآية الأولى، وأخرها عنها في آية نوح وذلك أن الفجج في الأصل هو الطريق في الجبل أو بين الجبلين، فلما تقدم في آية الأنبياء ذكر الرواسي وهي الجبال قدم الفجاج لذلك، بخلاف آية نوح فإنه لم يرد فيها ذكرٌ للجبال فأخرها.

فوضع كل لفظة في الموضع الذي تقتضيه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [آل عمران] ﴿ وَلَئِن مُّتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران] فقدم القتل على الموت في الآية الأولى، وقدم الموت في الآية التي تليها وسبب ذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر في الآية الأولى (في سبيل الله) وهو الجهاد قدم القتل إذ هو المناسب لأن الجهاد مظنة القتل، ثم هو الأفضل أيضاً ولذا ختمها بقوله: (لمغفرة من الله ورحمة) فهذا جزاء الشهيد ومن مات في سبيل الله.

(١) انظر البرهان ٤/٦٣-٦٤، البرهان للكرمانى ١١١، ٣٧٠.

ولما لم يقل في الثانية: (في سبيل الله) قدم الموت على القتل لأنه الحالة الطبيعية في غير الجهاد ثم ختمها بقوله: (لإلى الله تحشرون) إذ الميت والمقتول كلاهما يحشره الله إليه. فستان مابين الخاتمتين. فلم يزد في غير الشهيد ومن مات في سبيل الله على أن يقول: (لإلى الله تحشرون) وقال في خاتمة الشهيد: (لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون) فوضع كل لفظة الموضع الذي يقتضيه السياق.

وقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة] فقدم الأنعام على الناس.

وقال في مكان آخر: ﴿وَلَكُمْ مِنْهَا وَأَبَاكُمْ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس] فقدم الناس على الأنعام وذلك أنه لما تقدم ذكر الزرع في آية السجدة ناسب تقديم الأنعام، بخلاف آية عبس فإنها في طعام الإنسان قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ [عبس] إلى أن يقول: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَبًّا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَخَلًّا وَحَدَائِقَ غُلَبًا وَلَكُمْ مِنْهَا وَأَبَاكُمْ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس] ^(١) ألا ترى كيف ذكر طعام الإنسان من الحب والفواكه أولاً ثم ذكر طعام الأنعام بعده وهو الأب أي: التبن، فناسب تقديم الإنسان على الأنعام ههنا كما ناسب تقديم الأنعام على الناس ثم. فسبحان الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء] فقدم رزق الآباء في الآية الأولى على الأبناء، وفي الآية الثانية قدم رزق الأبناء على الآباء، وذلك أن الكلام في الآية الأولى موجه إلى الفقراء دون الأغنياء فهم يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم لا أنهم يخشونه، فأوجبت البلاغة تقديم عديتهم بالرزق تكميل العدة برزق الأولاد.

وفي الآية الثانية الخطاب لغير الفقراء وهم الذين يقتلون أولادهم خشية الفقر لا أنهم مفتقرون في الحال، وذلك أنهم يخافون أن تسلبهم كلف الأولاد ما بأيديهم من الغنى فوجب تقديم العدة برزق الأولاد فيأمنوا ما خافوا من الفقر^(١). فقال: لا تقتلوهم فإننا نرزقهم وإياكم، أي أن الله جعل معهم رزقهم فهم لا يشاركونكم في رزقكم فلا تخشوا الفقر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً﴾ [البقرة].

وقوله: ﴿وَحَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِمْ غِشْوَةً﴾ [الجاثية] فقدم القلوب على السمع في البقرة، وقدم السمع على القلب في الجاثية وذلك لأنه في البقرة ذكر القلوب المريضة فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة] فقدم القلوب لذلك.

وفي الجاثية ذكر الأسماع المعطلة فقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية] فقدم السمع. فوضع كل لفظة في المكان الذي يناسبها.

ثم إن آية البقرة ذكرت من أصناف الكافرين من هم أشد ضللاً وكفراً ممن ذكرتهم آية الجاثية فقد جاء فيها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة] خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ [البقرة].

وجاء في الجاثية قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية] فقد ذكر في البقرة أن الإنذار وعدمه عليهم سواء وأنهم ميؤوس من إيمانهم. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية.

ثم كرر حرف الجر (على) مع القلوب والأسماع في آية البقرة مما يفيد توكيد الختم فقال: ﴿عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة]. ولم يقل مثل ذلك في الجاثية،

(١) انظر بديع القرآن لابن أبي الإصبع ٢٦٠-٢٦١، تحرير التحرير ٥٦١.

بل انتظم الأسماع والقلوب بحرف جر واحد فقال: (وختم على سمعه وقلبه).

ثم قال في البقرة: ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غُشُوءٌ﴾ (٧) بالجملة الإسمية، والجملة الإسمية كما هو معلوم تفيد الدوام والثبات، ومعنى ذلك أن هؤلاء لم يسبق لهم أن أبصروا وإنما هذا شأنهم وخلقهم فلا أمل في إبصارهم في يوم من الأيام.

في حين قال في الجاثية: ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غُشُوءٌ﴾ (٢٢) بالجملة الفعلية التي تفيد الحدوث. ومعلوم أن (جعل) فعل ماضٍ، ومعنى ذلك: أن الغشاوة لم تكن قبل الجعل، يدلك على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (٢٢) مما يدل على أنه كان مبصراً قبل ترويه. ثم ختم آية البقرة بقوله: ﴿وله عذاب عظيم﴾ ولم يقل مثل ذلك في الجاثية. فدل على أن صفات الكفر في البقرة أشد تمكناً فيهم.

ولذا قدم ختم القلب على ما سواه لأنه هو الأهم، فإن القلب هو محل الهدى والضلال، وإذا ختم عليه فلا ينفع سمع ولا بصر قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا لَا نَعْمَىٰ الْأَبْصَرُ وَلَكِن نَّعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (١٦) [الحج].

وقال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

فكان تقديم القلب في البقرة أولى وأنسب، كما أن تقديم السمع في الجاثية أنسب. ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨) [النمل].

وقوله: ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِن هَٰذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٢٨) [المؤمنون].

فقدم (هذا) في الآية الأولى وأخرها في آية (المؤمنون) وذلك «أن ما قبل الأولى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ (٢٧) [النحل]، وما قبل الثانية: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ (٨٢) [المؤمنون] فالجهة المنظور فيها هناك كونهم أنفسهم وآباؤهم تراباً. والجهة المنظور فيها هنا كونهم تراباً وعظاماً. ولا شبهة أن الأولى أدخل عندهم في تبعيد

البعث»^(١) ذلك أن البلى في الحالة الأولى أكثر وأشد وذلك أنهم أصبحوا تراباً مع آبائهم . وأما في الآية الثانية فالبلى أقل وذلك أنهم تراب وعظام فلم يصبهم ما أصاب الأولين من البلى ، ولذا قدم (هذا) في الآية الأولى لأنه أدعى إلى العجب والتعبد .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام] .

وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [غافر] .

فأنت ترى أنه قدم في آية الأنعام : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وآخر : ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وفي غافر جاء بالعكس . وذلك أنه في سياق الإنكار على الشرك والدعوة إلى التوحيد الخالص ونفي الصاحبة والولد قال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُمُ بَيْنِينَ وَبَنَتِ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبُحْنَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يَصِفُون ﴾ [١١٦] بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [١١٧] ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام] .

فأنت ترى أن الكلام على التوحيد ونفي الشرك والشركاء والصاحبة والولد ولذا قدم كلمة التوحيد : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ على : ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وهو المناسب للمقام .

ثم انظر كيف قال : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ بعد قوله : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ﴾ فأخر الخلق بعد التوحيد ، وهو نظير تأخيره بعد قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ فقال : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وهو تناظر جميل .

أما في (غافر) فليس السياق كذلك وإنما هو في سياق الخلق وتعداد النعم قال تعالى : ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [٥٧] [غافر] إلى أن يقول : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [٥٨] [غافر] ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١٦﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٧﴾ [غافر].

فالكلام كما ترى على الخلق وعلى نعم الله وفضله على الناس لا على التوحيد فقدم الخلق لذلك فوضع كل تعبير في موطنه اللائق حسب السياق.

جاء في (البرهان) للكرمانى: « قوله: ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ في هذه السورة. وفي المؤمن ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات، فدمغ قول قائله بقوله: ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ثم قال: ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾. وفي (المؤمن) قبله ذكر الخلق وهو ﴿ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ ﴿٥٧﴾ فخرج الكلام على إثبات خلق الناس لا على نفي الشرك فقدم في كل سورة ما يقتضيه قبله من الآيات ^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة].

فقدم الأموال والأنفس على (في سبيل الله) في سورة الأنفال. وقدم (في سبيل الله) على الأموال والأنفس في سورة التوبة، وذلك لأنه في سورة الأنفال تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة من مثل قوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا ﴾ [الأنفال] وهو المال الذي فدى الأسرى به أنفسهم، وقوله: ﴿ لَوْ لَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال] أي: من الفداء، وقوله: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال] وغير ذلك فقدم المال ههنا، لأن المال كان مطلوباً لهم حتى عاتبهم الله في ذلك فطلب أن يبدووا بالتضحية به.

وأما في سورة التوبة فقد تقدم ذكر الجهاد في سبيل الله من مثل قوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيُصِفُّ صُفُوفَهُمْ

(١) البرهان ١٦١-١٦٢، درة التنزيل ١٢٧، ملاك التأويل ٣٤١/١.

مُؤْمِنِينَ ﴿١١﴾ [التوبة] وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة].

وقوله: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [التوبة] ^(١).

فقدم ذكر: (في سبيل الله) على الأموال والأنفس وهو المناسب ههنا للجهاد كما قدم الأموال والأنفس هناك لأنه المناسب للأموال.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ﴾ [فاطر].

قدم (مواخر) على الجار والمجرور في النحل وقدم (فيه) على (مواخر) في فاطر. وذلك أنه تقدم الكلام في النحل على وسائط النقل، فذكر الأنعام وأنها تحمل الأثقال، وذكر الخيل والبغال والحمير لنركبها وزينة، ثم ذكر الفلك وهي واسطة نقل أيضاً فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل].

قدم المواخر لأنها من صفات الفلك وهذا التقديم مناسب في سياق وسائط النقل. وليس السياق كذلك في سورة فاطر وإنما قال الله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر] ثم قال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر].

فالكلام هنا على البحر وأنواعه وما أودع الله فيه من نعم. فلما كان الكلام على البحر قدم ضمير البحر على المخر فقال: (وترى الفلك فيه مواخر).

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٠٣، درة التنزيل ١٨٩-١٩٠.

فانظر كيف أنه لما كان الكلام على وسائط النقل والفلك قدم حالة الفلك ،
ولما كان الكلام على البحر ذكر ما يتعلق به .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ
إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء].

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ
جَدَلًا ﴾ [الكهف].

قدم (للناس) على (في هذا القرآن) في الإسراء وأخرها في (الكهف) وذلك
لأنه تقدم الكلام في (الإسراء) على الإنسان ونعم الله عليه ورحمته به
فقال : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِ اللَّهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَتُوسَّسُ ﴾ [الإسراء].

إلى أن يقول :

﴿ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء] لَا رَحْمَةً مِنْ
رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿ ٨٧ ﴾ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء].

فناسب ذلك تقديم الناس في سورة الإسراء .

ولم يتقدم مثل ذلك في الكهف .

ثم انظر في افتتاح كل من السورتين فقد بدأ سورة الكهف بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴾ [١] فِيمَا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ
لَدُنْهُ ﴾ [٢] [الكهف].

فقد بدأ السورة بالكلام على الكتاب وهو القرآن ثم ذكر بعده أصحاب الكهف وذكر
موسى والرجل الصالح وذكر ذا القرنين وغيرهم من الناس ، فبدأ بذكر القرآن ثم ذكر
الناس ، فكان المناسب أن يتقدم ذكر القرآن على الناس في هذه الآية كما في البدء .

وأما سورة الإسراء فقد بدئت بالكلام على الناس ثم القرآن . فقد بدئت بقوله
تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي
بَرَكْنَا حَوْلَهُ ﴾ [١] [الإسراء].

ثم تكلم على بني إسرائيل . ثم قال بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ ﴾ [الإسراء].

فكان المناسب أن يتقدم ذكر الناس فيها على ذكر القرآن في هذه الآية . وهذا تناسب عجيب بين الآية ومفتتح السورة في الموضوعين .

ثم انظر خاتمة الآيتين ، فقد ختم آية الإسراء بقوله : ﴿ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝ ﴾ والكُفُور : هو جحد النعم ، فناسب ذلك تقدم ذكر النعمة والرحمة والفضل ألا ترى أن مقابل الشكر الكفران ومقابل الشاكر الكفور قال تعالى : ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝ ﴾ [الإنسان] فكان ختام الآية مناسباً لما تقدم من السياق .

أما آية الكهف فقد ختمها بقوله : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ۝ ﴾ لما ذكر قبلها وبعدها من المحاورات والجدل والمرء من مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ۝ ﴾ [الكهف] .

وقوله : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ۝ ﴾ [الكهف] .

وبعدها : ﴿ وَيَحْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۝ ﴾ [الكهف]

وذكر محاورة موسى والرجل الصالح ومجادلته فيما كان يفعل .

وقال : ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ ۝ ﴾ [الكهف] .

ولم يرد لفظ الجدل ولا المحاورة في سورة الإسراء كلها . فما أطف هذا التناسق وأجمله وما أجل هذا الكلام !

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلَوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِقَاةً النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ ﴾ [البقرة] .

وقوله : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَاحُ الْبَعِيدُ ۝ ﴾ [إبراهيم] .

فقال في آية البقرة: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ ﴿٢٢٦﴾ فقدّم الشيء وأخر الكسب.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ ﴿١٨﴾ فقدّم الكسب وأخر الشيء، وذلك أن آية البقرة في سياق الإنفاق والصدقة، والمنفق معطٍ وليس كاسباً، ولذلك آخر الكسب فقال: ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾.

وأما الآية الثانية فهي في سياق العمل، والعامل كاسب فقدّم الكسب.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ ﴿١٢٧﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿١٢٨﴾ [الأنفال].

فقدّم القلوب على الجار والمجرور في آل عمران فقال: (ولتطمئن قلوبكم به)، وأخرها عنه في الأنفال فقال: (ولتطمئن به قلوبكم) علماً بأن الكلام على معركة بدر في الموطنين غير أن الموقف مختلف.

ففي آل عمران ذكر معركة بدر تمهيداً لذكر موقعة أحد وما أصابهم فيها من قرح وحزن والمقام مقام مسح على القلوب وطمأنة لها من مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٢٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴿١٣٠﴾ [آل عمران] إلى غير ذلك من آيات المواساة والتصبير فقال في هذا الموطن: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ ﴿١٣١﴾ فذكر أن البشرى (لهم)، وقدم (قلوبهم) على الإمداد بالملائكة فقال: ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ كل ذلك من قبيل المواساة والتبشير والطمأنة.

ولما لم يكن المقام في الأنفال كذلك، وإنما المقام ذكر موقعة بدر وانتصارهم فيها ودور الإمداد السماوي في هذا النصر وقد فصل في ذلك أكثر مما ذكر في آل عمران فقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِ بْنِ الْمُطَلِّكَ مُرْدِفِينَ﴾ ﴿١٣٢﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ يُنْفِثُ الْنَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٢﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فِئْتَوُا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ [الأنفال].

أقول لما كان المقام مختلفاً خالف في التعبير .

أنه لما كان المقام في الأنفال مقام الانتصار وإبراز دور الإمداد الرباني قدم (به) على القلوب والضمير يعود على الإمداد . ولما كان المقام في آل عمران هو الطمأنة وتسكين القلوب قدمها على الإمداد فقال : ﴿ وَلِيُطْمِئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ﴾ وزاد كلمة (لكم) فقال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ زيادة في المواساة والمسح على القلوب فجعل كلاً في مقامه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّمْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾ [المائدة] .

وقوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُمْ رَجَسُوا أَوْ فَسَقُوا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام] .

فقد قال في آية البقرة : ﴿ وَمَا أَهَلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾ فقدم (به) على (لغير الله) . ومعنى : (ما أهل به) : ما رفع الصوت بذبحه وهو البهيمة .

وقال في آيتي المائدة والأنعام : ﴿ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ فقدم (لغير الله) على (به) وذلك أن المقام في آية الأنعام هو في الكلام على المفترين على الله ممن كانوا يشرعون للناس بإسم الله وهم يفترون عليه فقال : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [١٦٦] وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ

أَوْلَدِهِمْ شُرَكَاءُؤُهُمْ لِيُزِدُوهُمْ وَلِيَكْلِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرَّتْ جَبْرُ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءَ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرِمَتْ طُحُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ ﴿١٢٨﴾ [الأنعام].

إلى غير ذلك من الآيات التي تبين أن ثمة ذوات غير الله تحلل وتحرم مفترية على الله، وذوات يزعمون أنها شركاء لله تعبد معه ونصيبتها أكبر من نصيب الله في العبادة، ولذا قدم إبطال هذه المعبودات من غير الله على (به) فقال: ﴿أَوْفَسَاءُ أَهْلَ لِعَٰغِرِ اللَّهِ بِهِ﴾ لأنه هو مدار الاهتمام والكلام.

والكلام في المائدة أيضاً على التحليل والتحريم ومن بيده ذلك، ورفض أية جهة تحلل وتحرم من غير الله فإن الله هو يحكم ما يريد. قال: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مَحَلِّي الْأَصِيدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا شَعْبِيرَ اللَّهِ . . . ﴿٢﴾ حَرِمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِعَٰغِرِ اللَّهِ بِهِ . . . ﴿٣﴾ يَسْتَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ . . . ﴿٤﴾ [المائدة].

فهو يجعل التحليل والتحريم بيده ويرفض أية جهة أخرى تقوم بذلك، لأن ذلك من الشرك الذي أبطله الإسلام ولذا قدمه في البطلان فقال: ﴿وَمَا أَهْلَ لِعَٰغِرِ اللَّهِ بِهِ﴾. ثم إنه جاء في الموطنين بذكر اسم الله على الذبائح فذكر في أية الأنعام أن المشركين لا يذكرون اسم الله على بعض ذبائحهم تعمداً فقال: ﴿وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾. وأمر في أية المائدة بذكر اسم الله فقال: ﴿وَادْكُرُوا أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فناسب ذلك تقديم بطلان ذكر غير الله.

وأما في البقرة فليس المقام كذلك فلم يذكر أن جهة أخرى تقوم بالتحليل والتحريم وإنما الكلام على ما رزق الله عباده من الطيبات فقال: ﴿يَتَأَيَّاهُ النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴿١٦٦﴾ [البقرة]. وقال بعدها: ﴿يَتَأَيَّاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٦٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لِعَٰغِرِ اللَّهِ . . . ﴿١٦٨﴾ [البقرة].

فلما كان المقام مقام الرزق والطعام والأمر بأكل الطيبات قدم (به).
والضمير يعود على ما يذبح وهو طعام مناسبة للمقام^(١) والله أعلم.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَأْمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ﴾^(١١)
﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾^(١٢) [المُلْك] وقوله:
﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾^(١٣) [الأنعام].

فقدم خسف الأرض على إرسال الحاصب في آية المُلْك، وآخر عذاب الأرض عما يأتي من السماء في آية الأنعام.

وذلك أن آية الملك تقدمها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾^(١٤) [المُلْك] فكان أنسب شيء في الموعظة تذكيره بخسفها من تحتهم. «أما آية الأنعام فتقدمها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾^(١٥) [الأنعام] فصرف هذا الخطاب تفكر النفس في عين الجهة التي ذكر منها القهر، وكان أنسب شيء ذكر منها القهر وكان أنسب شيء ذكر التخويف من تلك الجهة بخلاف آية المُلْك^(٢).

ومما زاد ذلك حسناً قوله تعالى: (ويرسل عليكم حَفَظَةً) والحفظة: هم الملائكة، والملائكة مسكنهم في السماء، وربنا يرسلهم من فوق فناسب تقديم هذه الجهة على غيرها.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة فإن فيها كفاية فيما أحسب فهي تدل دلالة واضحة على أن التعبير القرآني تعبير مقصود، كل لفظ فيه وضع وضعاً فنياً مقصوداً، وأنه لم يقدم لفظة على لفظة إلا لغرض يقتضيه السياق. وقد روعي في ذلك التعبير القرآني كله ونظر إليه نظرة واحدة شاملة.

وأظن أن ما مر من الأمثلة تريك شيئاً من فخامة التعبير القرآني وعلوه وأن مثل هذا النظم لا يمكن أن يكون في طوق بشر فسبحان الله رب العالمين .

(١) انظر ملاك التأويل ١٠٧/١-١٠٨.

(٢) ملاك التأويل ٩٠٨/٢.

الذكر والحذف

يدخل في هذا الموضوع ما حذف وأصله أن يذكر، كحذف حرف أو فعل أو اسم مما أصله أن يذكر.

كما يدخل فيه في ما ذكر في موطن، ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به لأن الموطن اقتضاه.

القسم الأول :

قد يحذف في التعبير القرآني لفظ أو أكثر حسبما يقتضيه السياق، فقد يحذف حرفاً أو يذكره أو يجتزىء بالحركة للدلالة على المحذوف، كل ذلك لغرض بلاغي تلحظ فيه غاية الفن والجمال، فمن ذلك قوله تعالى:

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾^(١٧) [الكهف].

وهذه الآية قالها ربنا في السد الذي صنعه ذو القرنين من قطع الحديد والنحاس المذاب. قال تعالى على لسان ذي القرنين: ﴿ءَاتَوْني زُبُرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلُوا نَارًا قَالَ ءَاتَوْني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾^(١٨) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا^(١٩) [الكهف].

فقال: (فما استطاعوا أن يظهره) أي: يصعدوا عليه، فحذف التاء، والأصل: (استطاعوا)، ثم قال: (وما استطاعوا له نقباً) بإبقاء التاء. وذلك أنه لما كان صعود السد الذي هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً، خفف الفعل للعمل الخفيف، فحذف التاء، فقال: (فما استطاعوا أن يظهره) وطوّل الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل فقال: (وما استطاعوا له نقباً) فحذف التاء في الصعود وجاء بها في النقب^(٢٠).

(١) كنت أقول بهذا التعليل منذ وقت طويل ولم أكن أعلم أن أحداً قد ذكره حتى وقع في يدي كتاب (ملاك التأويل) فوجدته قد ذكره في ج ٢/ ٦٥٥.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] .

وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة] .

فحذفت النون من (أنا) في آية آل عمران، وثبتت في آية المائدة فقليل: (إننا) وسبب ذلك والله أعلم «أن آية المائدة لما ورد فيها من التفصيل فيما يجب الإيمان به وذلك قوله: (أن آمنوا بي وبرسولي) فجاء على أتم عبارة في المطلوب وأوفاهما ناسب ذلك (أننا) على أوفى الحالين وهو الورد على الأصل. ولما لم يقع إفصاح بهذا التفصيل في سورة آل عمران حين قال تعالى: (قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله)، فلم يقع هنا: (وبرسوله) إيجازاً للعلم به وشهادة السياق ناسب هذا الإيجازُ الإيجازُ، كما ناسب الإتمامُ في آية المائدة الإتمامُ، فقليل هنا: (واشهد بأننا مسلمون) وجاء كل على ما يجب، ولو قدر ورود العكس لما ناسب»^(١).

يضاف إلى ذلك أنه قال في المائدة: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ) أي، أن الله هو الذي أوحى إليهم وثبتهم، فناسب ذلك زيادة النون تأكيداً لأن النون قد تأتي في مقام التأكيد^(٢).

ولم يرد مثل ذلك في آية آل عمران فناسب كل في موضعه .

ومن ذلك قوله تعالى في سورة النحل ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل] .

وقوله في سورة النمل: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل] فحذف نون (تكن) في آية النحل، وأبقاها في آية النمل .

(١) ملاك التأويل ١/ ١٦٥-١٦٦ .

(٢) انظر كتابنا: معاني النحو ١/ ٣٨٨ .

وذلك أن السياق مختلف في السورتين، فالآية الأولى نزلت حين مثل المشركون بالمسلمين يوم أحد: « بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، فوقف رسول الله ﷺ على حمزة وقد مثل به فراه مبقور البطن فقال: «أما والذي أحلف به لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك». فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل) فكفر عن يمينه وكف عما أراده» (١).

فقد أوصاه ربنا بالصبر ثم نهاه أن يكون في ضيق من مكرمهم فقال له: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٢٧) أي: لا يكن في صدرك ضيق مهما قل. فحذف النون من الفعل إشارة إلى ضرورة حذف الضيق من النفس أصلاً.

وهذا تطيب مناسب لضخامة الأمر وبالعجز، وتخفيف لأمر الحدث وتهوينه على المخاطب، فخفف الفعل بالحذف إشارة إلى تخفيف الأمر وتهوينه على النفس.

أما الآيات الثانية فهي في سياق المحاجة في المعاد، وهو مما لا يحتاج إلى مثل هذا التصبير قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَنْبَاءَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٢٧) لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٢٨) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٢٩) وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (النمل).

جاء في (البرهان) للكرماني: إنما خصت سورة النحل بحذف النون موافقة لما قبلها وهو قوله: ﴿إِنْ إِنْزَاهِيَهُمْ كَانَتْ أُمَّةً فَأَنَا لِلَّهِ حَقِيقًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل).

والثاني: « أن هذه الآية نزلت تسلياً للنبي ﷺ حين قُتل عمه حمزة ومُثل به فقال عليه الصلاة والسلام: «لأفعلن بهم ولأصنعن».

(١) الكشف ٢/٢٢٢، تفسير ابن كثير ٢/٥٩٢.

فأنزل الله تعالى: ﴿... وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ۝ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل] ليكون ذلك مبالغة في التسلي، وجاء في النمل على القياس لأن الحزن هناك دون الحزن هنا والله أعلم^(١).

ونحو هذا قوله تعالى: ﴿... فَلَا تَكُ فِي مَرِيضَةٍ مِّنْهُ...﴾ [هود].

وقوله ﴿... فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيضَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ...﴾ [السجدة].

فقال في الآية الأولى: (فلا تك في مرية) بحذف نون تكن. وقال في الثانية: (فلا تكن في مرية) بذكرها وذلك أن السياق في الآيتين مختلف، فقد قال في الآية الأولى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَتْنٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَتَارَ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مَرِيضَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود].

وقال في الثانية: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مَرِيضَةٍ مِّنْ لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة].

فإن الآية الأولى تثبت للرسول ونهي له عن الريب والمرية، فقد بدأ الكلام بقوله: إنه كان على بينة من ربه، ثم يتلوها شاهد منه، ثم قبله كتاب موسى، وختمه بقوله: (إنه الحق من ربك) فناسب ذلك أن يقال: (فلا تك في مرية منه) بخلاف الآية الأخرى فإنها ليس فيها مثل هذه الدواعي كما ترى.

ثم إن الكلام في الآية الأولى على القرآن الكريم وعلى قوم الرسول وتهديد من يكفر به، والكلام في الثانية على التوراة وبني إسرائيل.

فناسب الحذف في الآية الأولى دون الثانية تثبتاً للرسول ونهياً له عن الريبة فيه، وذلك أنه طلب منه أن لا يكون في شيء من المرية أصلاً. فلما كان الكلام في القرآن وفي قومه ناسب الحذف هاهنا دون الثانية.

وجاء في (البرهان) للزركشي أن حذف النون في نحو هذا قد يكون « تنبيهاً على صغر مبدأ الشيء وحقارته، وأن منه ينشأ ويزيد إلى ما لا يحيط بعلمه غير الله مثل: ﴿الَّذِي تَطَفَّأَ﴾ [القيامة] حذفت النون تنبيهاً على مبتدأ الإنسان وصغر قدره بحسب ما يدرك هو من نفسه ثم يترقى في أطوار التكوين: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس] فهو حين كان نطفة كان ناقص الكون...

وكذلك ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ [النساء] حذفت النون تنبيهاً على أنها وإن كانت صغيرة المقدار حقيرة في الاعتبار فإن إليه ترتيبيها وتضاعيفها، ومثلها: ﴿يَبْقَىٰ بُنْيَانُهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ [لقمان] وكذلك ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ [غافر] جاءتهم الرسل من أقرب شيء في البيان الذي أقل من مبدأ فيه، وهو الحس إلى العقل إلى الذكر، ورقوهم من أخفض رتبة وهي الجهل إلى أرفع درجة في العلم وهي اليقين، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَّا يَتَّبِعُ بُنْيَانُهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ [المؤمنون] فإن كون تلاوة الآيات قد أكمل كونه وتم. وكذلك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ [النساء] هذا قد تم تكوينه... وكذلك ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ﴾ [غافر] انتفى عن إيمانهم مبدأ الانتفاع وأقله ما انتفى أصله^(١).

ومن ذلك ذكر ياء المتكلم أو حذفها والاجتزاء بالكسرة، وإن لم تكن ياء المتكلم من الحروف، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ [هود]

فقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة في الأعراف فقال: (ثم كيدون) وذكرها في هود فقال: (فكيدوني).

(١) البرهان ١/ ٤٠٧ - ٤٠٨.

ويمكن هنا أن نذكر أصلاً عاماً في ذكر الباء وحذفها وهو:

أن الاجتزاء بالكسرة عن الباء يختلف عن ذكر الباء في كل ما ورد في القرآن الكريم عدا خواتم الآي والنداء، ولها في كل ذلك خط عام إضافة إلى السياق الخاص، ففي كل موطن ذكر الباء فيه يكون المقام مقام إطالة وتفصيل في الكلام، بخلاف الاجتزاء بالكسرة فإن فيه اجتزاء في الكلام.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الباء تتردد مظهرة في المواطن التي تذكر فيها الباء أكثر من المواطن التي يجتزأ بالكسرة عنها.

وقد تتردد الكلمة ذات الباء المظهرة في السورة أكثر من تردد الكلمة ذات الباء المجتزأة في موطنها.

هذا علاوة على السياق الخاص الذي يقتضي الذكر والحذف كما سنبين، ونعود إلى الآيتين اللتين ذكرناهما، فإن المقام في هود مقام تحد كبير ومواجهة، فأظهر نفسه زيادة في التحدي، إذ المتحدي وطالب المواجهة لا بد أن يظهر نفسه وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه ليس فيها هذا التحدي، يدل على ذلك سياق كل من الآيتين فقد قال في الأعراف:

﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٩٠) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَبْصُرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَأْذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ﴾ (١٩١) [الأعراف].

وأما هود فالمقام فيها مختلف فقد دعاهم هود إلى عبادة الله وحده وترك ما عداه فقال لهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (١) إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ (٢) [هود] ونصح لهم بالتوبة والاستغفار ليرضى عنهم خالقهم ويزيدهم من فضله فرفضوا قوله وردوا عليه قائلين: ﴿يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (٣) إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْرَضَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءِ قَالَ إِنَّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ﴾ (٥) [هود].

فهم لم يكتفوا برّد دعوته وعدم التصديق به، بل قالوا له: إن بعض آلهتهم اعتراه بسوء مما جعله يتحداهم ويتحدى آلهتهم، فأشهد الله وأشهدهم على البراءة من آلهتهم، ثم دعاهم جميعاً إلى كيدهم له ثم لا يمهّلونه إن استطاعوا. فزاد كلمة: (جميعاً) زيادة في التحدي رداً على قولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا يُسُوهُ﴾ [هود].

إنهم قالوا له: إن أحد آلهتهم اعتراه بسوء، فتحدى الجميع ثم أظهر نفسه، فذكر الياء زيادة في التحدي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية إن التحدي والمواجهة في هود أطول وأكثر مما في الأعراف (انظر الآيات ٥٠-٥٨) فذكر الياء في هود لأن الياء أطول من الكسرة. وحذف الضمير واجتزأ بالكسرة في الأعراف، فناسب بين طول الكلمة والسياق، فجعل الكلمة الطويلة للسياق الطويل والكلمة المجتزأة للسياق المجتزأ. ومن ناحية أخرى نرى أنه قد تردد ذكر ياء الضمير في هود في هذا الموطن مرات عديدة وليس الأمر كذلك في الأعراف فقد قال: (إني أشهد الله) و (اشهدوا أني بريء) (فكيدوني جميعاً) (إني توكلت على الله ربي وربكم) (إن ربي على صراط مستقيم) و (يستخلف ربي قوماً غيركم) (إن ربي على كل شيء حفيظ).

وليس الأمر كذلك في الأعراف فإنه لم يظهر الياء في السياق إلا مرة واحدة وهو قوله: (إن وليي الله).

فناسب ذكر الياء ما ورد في هود، وناسب الاجتزاء بالكسرة سياق ما ورد في الأعراف.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قال في آية الأعراف: (ثم كيدون فلا تنظرون) فأدخل (ثم) على الكيد والفاء على الإنظار. وفي هود بالعكس أدخل الفاء على الكيد و (ثم) على الإنظار. والفاء تفيد التعقيب أما (ثم) فتفيد التراخي. فقد طلب منهم في الأعراف عدم المهلة في الإنظار. وعدم الإنظار هو المناسب لسياق الأعراف، فقد ذكر في هذه السورة تعجيل العقوبات لمستحقها في الدنيا، بخلاف سورة هود فإن سياقها في الإمهال في إيقاع العقوبات.

فقد بدأت الأعراف بقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ [الأعراف] فذكر حلول العقوبات وإهلاك الأمم، في حين قال في هود: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تُؤْبَإِ إِلَيْهِ يُمَتِّعُكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود] فذكر التمتع والإمهال.

وقال في هود أيضاً: ﴿وَلَمَّا أَخْرَجْنَاهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّيَقُولُوا مَا يَجْحِسُ فِي الْأَيَّامِ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود] فذكر تأخير العذاب إلى أجل وهو الإمهال.

وقال في الأعراف: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف] فقال: (فأخذناهم بغتة) بعد قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة)، وهو نظير قوله: (ثم كيدون فلا تنظرون). فالاستدراج المذكور في الآية وهو قوله: (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة...) نظير الكيد في قوله: (ثم كيدون) معنى واستعمالاً فكلاهما بثم وكلاهما إمهال.

وقوله: (فأخذناهم بغتة) نظير قوله: (فلا تنظرون) فكلاهما بالفاء وكلاهما عدم إنظار.

فانظر إلى التناظر الجميل بين الآيتين.

﴿ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ ﴿فأخذناهم بغتة﴾.

﴿ثم كيدون﴾ ﴿فلا تنظرون﴾.

ثم انظر إلى القصص في السورتين تر الفرق واضحاً بين السياقين. فانظر إلى قصة نوح في الأعراف فهي موجزة، وظاهر فيها عدم الإمهال فقد قال لهم نبيهم: ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف] وبعدها قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف].

فجاء بالفاء دالاً على سرعة إنزال العقوبة وعدم الإنظار (فكذبوه فأنجيناه).

أما في هود فالكلام طويل وهناك مهلة حتى استبطؤوا ما وعدهم به: ﴿قَالُوا يَنْشُوعُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثُرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٢٣) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ (هود).

وكذلك قصة عاد فقد قال في خاتمتها في الأعراف: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢) [الأعراف].

وقال في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨) وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ (٥٩) وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بَعْدَ إِعَادٍ قَوْمٌ هُودٍ﴾ (هود).

فانظر كيف عجل العقوبة لهم في الأعراف فجاء بالفاء الدالة على عدم الإمهال، بخلاف ما في سورة هود.

وكذا قصة صالح فقد قال في نهايتها في الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (٧٨) [الأعراف].

وقال في هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْغَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١١) وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جِثِيمًا﴾ (١٢) [هود].

فذكر إنزال العقوبة بالفاء في الأعراف: (فأخذتهم الرجفة) وقال في هود: (وأخذ الذين ظلموا الصيحة).

وهكذا، فأنت ترى أن سياق الأعراف هو عدم المهلة في الإنظار: بخلاف السياق في سورة هود. ولذا كان الأليق أن يأتي بالفاء مع عدم الإنظار في الأعراف فيقول: (فلا تنظرون) وأن يأتي بـ (ثم) معه في هود فيقول: (ثم لا تنظرون).

وهناك أمر فني آخر، وهو أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في الأعراف قدم (ثم) على الفاء، ومنها الآية المذكورة وفي هود بالعكس. فقد قال في الأعراف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ (١١) [الأعراف].

وقال: ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف]

وقال: ﴿ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُون﴾ [الأعراف].

وقال في هود: ﴿فَكِيدُوا فِي جَمِيعَاتِهِمْ لَا تُنْظِرُون﴾ [هود]

وقال: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود]

فما أجمل هذا التناسق وما أجل هذا الكلام!

ومن ذلك: أي ذكر ياء المتكلم أو حذفها قوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص].

فإنه حذف ياء الضمير واجتزأ بالكسرة في (الكهف) فقال: (يهديني)، وأبرز الضمير في القصص فقال: (يهديني) وذلك أن المقام يستدعي إبراز ياء المتكلم، لأنه مقام التجاء وخوف وخشية. والخوف يستدعي أن يلصق الإنسان بمن يحميه ويلقي بنفسه كلها عليه، ويستدعي أن يلتجئ إلى من ينصره ويأخذ بيده بكل أحاسيسه ومشاعره إلتجاء كاملاً، وهذا هو الموقف الأول، فقد خرج موسى خائفاً يترقب فاراً من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوجل طالباً منه أن يهديه سواء السبيل، ولذا أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء وإلقاء النفس كلها أمام خالقه، بخلاف ما في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَاً﴾ [الكهف] ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَّرَ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف].

فالفرق كبير بين المقامين، فمقام موسى في القصص يستدعي إلقاء النفس كلها أمام ربه وخالقه. ولما كان الخائف الضعيف يطلب أولاً من يحميه ويلتجئ إليه قدم (الرب) على فعل الهداية لأنه هو الملجأ فقال ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص].

بخلاف ما في الكهف فإن المقام فيها مقام ذكر القول الحق فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تباينت فيه الآراء، وهذا أمر يحتاج إلى الهداية والرشد، فقدم الهداية وهذا من دقيق الاستعمال.

ثم لننظر من ناحية أخرى فإن ياء الضمير تكرر في (القصص) أكثر مما في الكهف فناسب ذكر الياء في القصص.

ثم إن لفظ الهداية تكرر في القصص اثنتي عشرة مرة. أما في الكهف فقد تردد خمس مرات، فزاد اللفظ في القصص لما زاد تردده. وهذا الأمر مراعى في القرآن الكريم كما ذكرت. ألا ترى كيف قال الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ (١٧٨) بإثبات الياء، في حين قال في سورة الإسراء: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ (١٧) وفي سورة الكهف: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ (١٧). بالاجتزاء بالكسرة فيهما، وذلك أن لفظ الهداية تردد في سورة الأعراف أكثر مما تردد في سورتي الإسراء والكهف مجتمعتين. فقد ورد في الأعراف سبع عشرة مرة، في حين ورد في الإسراء ثماني مرات وفي الكهف ست مرات، فلما زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ: (المهتدي) على ما في السورتين.

وقال: ﴿لَيْنِ آخَرَتَيْنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ (١٧) [الإسراء] بالاجتزاء بالكسرة.

وقال: ﴿لَوْلَا آخَرَتَيْنِ إِلَيَّ أَجَلٌ قَرِيبٌ﴾ (١٧) [المنافقون]، فذكر الياء. وذلك أنه تردد فعل التأخير مرتين في سورة (المنافقون) في حين ذكر مرة واحدة في سورة (الإسراء) فزاد في موطن الزيادة وحذف في موطن الاجتزاء.

ونعود إلى آيتي الهداية في القصص والكهف، فنقول علاوة على ما مر: إن مقام التبسط والتطويل في (القصص) في قصة موسى أكثر بكثير مما ورد في (الكهف)، فإن المقام في (الكهف) مقام إيجاز جاء عرضاً في أثناء قصة أصحاب الكهف. فلما طوّل الكلام وتبسط طوّل الفعل بذكر الضمير في (القصص)، ولما اجتزأ القول في (الكهف) اجتزأ بذكر الكسرة عن الضمير، وهو نظير ما سبق ذكره في الآيتين السابقتين.

ومما حسن الحذف في الكهف علاوة على ما ذكرنا حذفه الياء من لفظ الهداية في موضع آخر من السورة، واجتزأه بالكسرة، وذلك هو قوله تعالى:

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف] هذا علاوة على حذف الياء في مواطن أخرى متعددة من هذه السورة، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنْتَ أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف] بحذف الياء من (ترني)

وقوله: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ [الكهف] بحذف الياء من (يؤتيني) وقوله: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف] بحذف الياء من (تعلمني)

وقوله: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْعُ﴾ [الكهف] بحذف الياء من (نبغي).

فانظر كيف تعاضد المعنى والسياق والألفاظ والإحصاء على وضع كل لفظة في موضعها. ومن هذا النوع من الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿أَلْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة]

وقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة].

فذكر الياء في (اخشوني) في آية البقرة، وحذفها واجتزأ بالكسرة في آيتي المائدة، وذلك أن السياق في البقرة يستدعي تحذير المسلمين من خشية الناس وعدم الالتفات إلى أراجيفهم، كما يستدعي توجيههم إلى مراقبة الله تعالى وخشيته أكثر بكثير مما في المواطنين الآخرين، وذلك أن السياق في البقرة في تبديل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام في مكة، وقد أرجف اليهود والمنافقون بسبب هذا التغير وأكثروا القول فيه، فاستدعى ذلك توجيه المسلمين إلى عدم الالتفات إلى أقوال أعداء الله أو خشيتهم، وإنما عليهم أن يخشوا الله وحده فأبرز الضمير العائد على الله فقال: (فلا تخشوهم واخلشوني). فقد بدأت الآيات بقوله: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ آلِي كَاؤُا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة].

إلى أن يقول:

﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة]

سَطَرُهُ لَيْتَلَا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَئِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٦﴾ [البقرة].

في حين كان سياق الآية الثانية يختلف عن ذلك، فهو يدور على ذكر المحرمات من الأطعمة . قال تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ ﴾ [المائدة ٣] ثم قال: ﴿ الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة ٣] فالكفار يائسون من محاربة الإسلام بعد أن أظهره الله وأعلى كلمته .

فالمحاربة في الموقف الأول ومظنة خشية الناس أكبر، بخلاف آية المائدة التي أنزلت بعدما أظهر الله دينه .

وكذا الأمر في الآية الأخرى وهي الآية ٤٤ من سورة المائدة، فإنه ليس فيها ما يستدعي الخشية من الناس، وليس فيها إرجاف ولا محاربة . قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّسُولُونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ [المائدة ١١].

فأنت ترى أن سياق آية البقرة وما فيها من خصومة ومحاجة ومحاربة يستدعي جانباً كبيراً من الخشية، فأظهر الله نفسه طلباً لمراقبته وخشيته وعدم الاكتراث بأقوال المرجفين، بخلاف ما في الآيتين الآخرين .

ثم انظر طول السياق وتكراره في سورة البقرة فقد بدأ بقوله:

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ آلِي كَاؤُا عَلَيْهَا ﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ﴾ [البقرة]

فذكر أن تغيير القبلة كبير عند الناس .

ثم ذكر بعدها : ﴿ قَدْ رَأَى ثَقَلُوبٌ وَجْهَكَ فِي السَّمَاوَاتِ فَلَنَوَلَّيَنَّكَ قِبْلَتَهُ رَضَاهَا قَوْلٌ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة]

ثم أخبر أن الذين أوتوا الكتاب لا يتبعون قبلة الرسول مهما جاءهم بالبينات فقال : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة] وهكذا .

فأنت ترى أنه أطال القول ههنا، فكان المناسب أن يطيل بذكر الضمير أيضاً. وهو المناسب لإطالة السياق بخلاف ما في الآيتين الأخريين .

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه أبرز الضمير (الياء) في سياق آية البقرة أكثر مما في الموطنين الآخرين من مثل قوله : (واخشوني) و : (ولأنتم نعمتي) (فاذكروني) (واشكروا لي) وغيرها .

فناسب كل ذلك ذكر الياء في آية البقرة بخلاف آيتي المائدة .

وهذا كما ترى نظير ما مر من ذكر الياء وحذفها آنفاً .

وشبيه بهذا الذكر والحذف وليس منه قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِنْشَاءُ لَوْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْظُرُوا إِلَنَّا مُنْظِرُونَ ﴾ [الأنعام] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٥٦] هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا ظَنُنَا مِنَ شَفْعَاءِ فَيَسْأَلُونَ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [٥٧] [الأعراف] .

وقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظِلْمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [١١٦] إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [١١٧] [هود]

فحذف الياء من (يأت)، واجتزأ بالكسرة في آية هود دون الآيتين السابقتين. ولهذا الحذف سببه. فقد ذكر الله في عدة مواطن من هود تعجل الذين

كفروا للعذاب. كما تردد الوعد بقرب نزوله فقد قال: ﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لِّقَوْلِكَ مَا يَحْسِبُهُ﴾ ﴿٨﴾ [هود].

وقال قوم نوح: ﴿قَالُوا بَيْنُوحَ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢١﴾ [هود].

وقال صالح لقومه: ﴿وَلَا تَمْشُوا هَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ ﴿١٥﴾ [هود].

وقال في قوم لوط: ﴿إِنْ مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ﴿٨١﴾ [هود].

وقال في موطن آخر: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ ﴿٨٢﴾ [هود].

فأنت ترى أنه تردد ذكر استعجال العذاب من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه تردد الوعد بقرب حلوله، فكان من المناسب الحذف من فعل الإتيان إشعاراً بقرب حلوله.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه ذكر في سورة (هود) عقاب الأمم السابقة وهلاكهم، ثم ذكر أن يوم القيامة آتٍ وأنه سيحل فيه عقاب الكافرين كما حل عقاب الأمم السابقة، وإن هو إلا أجل معدود فيحل. فحذف الياء من فعل الإتيان للدلالة على سرعة الإتيان، وليس الأمر كذلك في الآيات الأخرى.

هذا ومن ناحية أخرى أنه تردد ذكر الإتيان باشتقاقاته المختلفة في كل من (الأنعام) و(الأعراف) أربعاً وعشرين مرة وفي (هود) ثلاث عشرة مرة، فلما كثر الفعل في سورتي الأنعام والأعراف كثر البناء، ولما قلّ تردده في هود قلل من البناء. وهو نظير ما في (المهتد) و (المهتدي) وغيرها مما سبق ذكره.

ويمكن أن يضاف شيء آخر: وهو أنه لما منع الكلام في آية هود إلا بإذنه، حذف من الكلام فحذف الياء من (يأتي) وحذف التاء من فعل التكلم فقال: (تكلّم) ولم يقل: (تتكلم) إشعاراً بقلّة الكلام في ذلك الوقت. وهذا مما يدعو إلى العجب.

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف].

فقال في أصحاب الجنة: (ما وعدنا ربنا حقاً) وقال في الكافرين: (ما وعد ربكم حقاً) ولم يقل: (ما وعدكم) وذلك أن الكافرين كانوا منكرين لأصل الوعد والوعد، وليسوا منكرين لما وعدهم به فقط، فكأنه قال: هل وجدتم وعد ربكم حقاً؟ بخلاف المؤمنين فإنهم كانوا ينتظرون ما وعدهم ربهم من الخير والكرامة فقال: (وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم كما قيل: ما وعدنا ربنا؟ قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة (وعدنا) عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة، لأنهم كانوا مكذبين بذلك أجمع، ولأن الموعد كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم، فأطلق لذلك»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَهُمْ قَسُوفَ بُيُوتِهِمْ ﴿١٧٩﴾﴾ [الصافات].

وقوله: ﴿فَنَوَّلَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصَرَهُمْ قَسُوفَ بُيُوتِهِمْ ﴿١٧٩﴾﴾ [الصافات] فذكر الضمير في: (أبصرهم) الأولى وحذفه من الثانية فقال: (وأبصر).

قالوا: وسبب ذلك أن الأولى كانت بسبب نزول العذاب بهم يوم بدر وما حلّ بهم من قتل وأسر، فلما تضمنت المعركة ما تضمنت من قتل صناديد قريش وأسرههم وشفاء صدور المؤمنين قال: (وأبصرهم).

وأما الثانية فكانت في يوم فتح مكة وليس فيه قتل ولا أسر وإنما هو هداية ورحمة، ثم إن فتح مكة كان فتحاً لجزيرة العرب ولذا أطلق فقال: (وأبصر) لأنه ليس مختصاً بأهل مكة كما كان في بدر. فلما كانت وقعة بدر خاصة بأهل

(١) الكشاف ٥٤٩/١.

مكة وقد حل عليهم العذاب وحدهم قال: (أبصرهم)، ولما كان الفتح ليس فيه قتل جماعة ولا أسر وكان أثره عاماً أطلق فقال: (وأبصر). جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين: «ومن فوائد قوله تعالى في الأوليين: (وأبصرهم) وفي هاتين: (فأبصر) أن الأولى بنزول العذاب بهم يوم بدر قتلاً وأسراً وهزيمة ورعباً. فلما تضمنت التشفي بهم قيل له: (أبصرهم).

وأما يوم الفتح فإنه اقترن بالظهور عليهم الإنعام بتأمينهم والهداية إلى إيمانهم، فلم يكن وفقاً للتشفي بهم بل كان في إستسلامهم لعينه قرة ولقلبه مسرة ف قيل له: (أبصر)»^(١).

ومن بديع الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس].

فحذف (به) من آية الأعراف، بخلاف آية يونس، وذلك أن الإطلاق هو سياق الأعراف، والتخصيص هو سياق سورة يونس، فقد جاء قبل آية الأعراف قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف].

فأطلق التكذيب ولم يذكر بما كذبوا، وهو نظير الإطلاق في الآية التي بعدها: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) ولم يذكر بماذا كذبوا.

في حين أن السياق في يونس سياق الذكر لا الإطلاق، فقد جاء قبل الآية المذكورة قوله تعالى: ﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [يونس] وهو نظير الذكر في الآية التي بعدها (بما كذبوا به).

فانظر كيف قال في الأعراف: (ولكن كذبوا فأخذناهم) وقال: (فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل) فلم يذكر بماذا كذبوا.

(١) البرهان ٢٣/٣.

وانظر كيف قال في يونس: (وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا) ثم قال بعدها:
(فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل) فذكر بماذا كذبوا في الوطنين،
فاستدعى كل سياق ما ورد من ذكر وحذف.

ثم انظر السياق بعد كل من الآيتين فقد قال في سورة الأعراف: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ
بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ وَآيَيْنَاهُمَا أَنْ يَرْغَبَا فِي الْفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ [الأعراف].

وقال في سورة يونس: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
يُتَايَنِينَ﴾ [يونس]. فذكر في الأعراف أنه بعث موسى. وفي يونس ذكر أنه
بعث موسى وهرون فزاد ذكر (هرون). فانظر كيف لما زاد (به) في الآية الرابعة
والسبعين وزاد (بآياتنا) في الآية الثالثة والسبعين زاد (هرون) في السياق. فأية
دقة هذه؟ وأي فن هذا أيها الناس!؟

جاء في (البرهان) للكرماني أنه ذكر في يونس: (بما كذبوا به) « لأن أول
القصة في هذه السورة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا﴾ [الأعراف]. وفي الآية:
﴿وَلَكِن كَذَّبُوا﴾ وليس بعدها الباء فختم القصة بمثل ما بدأ به.

وكذلك في يونس وافق ما قبله وهو: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ﴾ [يونس] (كذبوا
بآياتنا) فختم بمثل ذلك فقال: (بما كذبوا به) «^(١).

ومن طريف الذكر والحذف في القرآن الكريم ذكر الاسم الموصول وحذفه،
فقد ذكر القرآن الكريم الاسم الموصول في مواطن، وحذفه في مواطن أخرى،
فقد قال مرة: ﴿لَمْ يَكُنِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [طه] بتكرير الاسم الموصول.
وقال مرة أخرى: ﴿لَمْ يَكُنِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة] فلم يكرره. وقال مرة
أخرى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [العنكبوت].

وقال مرة: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الحشر] وقال مرة أخرى:
﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد].

(١) البرهان للكرماني ١٨٨-١٨٩ وانظر درة التنزيل ١٦٥-١٦٦.

وهذا يقتضينا المساءلة عن سبب ذكر ما ذكر وحذف ما حذف، إذ من المعلوم أنه لا بد في الكلام البليغ من سبب للذكر والحذف، وخصوصاً في القرآن الكريم الذي هو أعلى الكلام.

لقد ذكر بعضهم أنه تأمل ما في التنزيل العزيز من قوله تعالى: (من في السماوات والأرض) و: (من في السماوات ومن في الأرض) وقوله: (ما في السماوات والأرض) وقوله: (ما في السماوات وما في الأرض) فوجد «أنه حيث قصد التنصيص على الأفراد ذكر الموصول والظرف، ألا ترى إلى المقصود في سورة يونس^(١) من نفي الشركاء الذين اتخذوهم في الأرض، وإلى المقصود في آية الكرسي^(٢) من إحاطة الملك.

وحيث قصد أمر آخر لم يذكر الموصول إلا مرة واحدة إشارة إلى قصد الجنس وللإهتمام بما هو المقصود في تلك الآية. ألا ترى في سورة الرحمن^(٣) المقصود منها علو قدرة الله تعالى وعلمه وشأنه وكونه مسؤولاً ولم يقصد السائلين^(٤)».

وهذا صحيح فإنه إذا قصد التنصيص على الأفراد، ذكر الموصول وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر] فهنا قصد التنصيص على كل فرد من أفراد السماوات والأرض على وجه التخصيص فكرر (من) لذلك. ونحوه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل].

غير أن هذا واحد من الأسباب التي تدعو إلى تكرار الاسم الموصول وليس هو السبب الوحيد. وهناك أسباب أخرى للتكرار منها:

- (١) يعني قوله تعالى ﴿إِلَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس].
- (٢) يعني قوله تعالى ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ﴾ [البقرة].
- (٣) يعني قوله تعالى ﴿يَسْأَلُهُمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن].
- (٤) البرهان ٧٤-٧٣/٤.

أنه إذا كان الموطن دالاً على التفصيل والإحاطة كرر الاسم الموصول، بخلاف ما إذا كان الكلام مجملاً غير مفصل، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَأَلَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاعِيَهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادُّهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنَّمَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ [المجادلة].

فكرر (ما) قائلاً: (يعلم ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لأن الموطن موطن إحاطة وتفصيل، بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنًا وَبَيِّنَاتٍ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥٢) [العنكبوت] فلم يكرر (ما).

وأنت تحس الفرق واضحاً بين الموطنين والسياقين، فإن في آية المجادلة من ذكر لسعة علم الله وشموله وإحاطته بالجزئيات والتفصيلات مالم يلى في آية العنكبوت، فقد ذكر في آية المجادلة أنه لا يند عنه شيء ولا يغيب عنه مجلس قل أو كثر، ثم نبىء الله أهله بكل ما قالوا وما تناجوا به، أحصاه الله ونسوه وهو بكل شيء عليم. فأنت ترى في آية المجادلة من التفصيل ما ليس في آية العنكبوت. فلما فصل في آية المجادلة أعاد ذكر (ما) ولما أجمل في العنكبوت أجمل في ذكر الموصول فلم يعد ذكره.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦) [طه] فكرر (ما) لأن الموطن موطن شمول وإحاطة وتفصيل، فقد ذكر أن له (ما في السماوات) و (ما في الأرض) و (ما بينهما) و (ما تحت الثرى) بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (٥٢) [النحل] فأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين في التفصيل والإحاطة، فكرر في موطن التفصيل وأجمل في موطن الإجمال.

ونحوه قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي
الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ﴾ (٢) [سبأ].

فالتفصيل في هاتين الآيتين واضح، ولذا كرر الاسم الموصول بخلاف قوله
تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَدِئُونَ﴾ (١١١)
[البقرة].

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ
بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ (١٥) [الرعد] فلم يكرر الموصول في حين قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ
يَسْجُدُ لَمْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ (١٨) [الحج].

فكرر (من) ههنا بخلاف الآية الأولى. ومقام التفصيل واضح في آية
الحج، فقد ذكر الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثيراً من
الناس بخلاف آية الرعد. ففي مقام التفصيل كرر وفصل وفي مقام الإجمال
أجمل وأوجز.

وقد يكون إعادة ذكر الموصول لأمر آخر وهو ذكر أمر يتعلق بصلته، فمن
الملاحظ في القرآن الكريم أنه إذا كرر الاسم الموصول فقال: (ما في السماوات
وما في الأرض) فإنه يريد أن يخص أهل الأرض بذكر أمر من الأمور، وإذا لم
يكرر (ما) فإنه لا يريد أن يذكرهم بأمر خاص بهم. ويتضح هذا في آيات التيسيح
خاصة نحو قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١) [الحديد] و ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (٢) [الحشر].

فحيث كرر (ما) في آيات التيسيح فإنه ذكر أهل الأرض بعدها، وحيث
أجمل لم يذكرهم. وإليك أمثلة على ذلك:

قال تعالى في (سورة الحديد): ﴿سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)
لَمْ يَلَمْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ
وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ (٤) [الحديد].

وقال في (سورة الحشر): ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ٢﴾ [الحشر].

فأنت ترى أنه في آيات الحديد لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض، بخلاف آية الحشر فقد قال بعدها: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ ويستمر في ذكر أحوالهم.

ويدلك على ذلك أنه في آخر سورة الحشر لم يكرر (ما) حين لم يذكر شيئاً عن أهل الأرض بعد الآية، فقد قال: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١٤﴾ [الحشر]. فكرر في أول السورة وأجمل في آخرها لما ذكرناه والله أعلم.

ونحوه ما جاء في سورة الصف، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ١ بَيَّنَّا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَهُنَّ مَرْصُوصٌ ٤﴾ [الصف].

ويمضي في الكلام على أهل الأرض فكرر (ما) لأنه خص أهل الأرض بعدها بالذكر، ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْكَافِرُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَمْنِ رَسُولًا مِنْهُمْ يَسْلُوْا عَلَيْهِمْ ءَايَتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِنِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٢﴾ ١ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٢﴾ [الجمعة]. ويمضي في الكلام على أهل الأرض.

ونحوه قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ٢﴾ [التغابن]. ويمضي في الكلام على أهل الأرض.

فكل موطن كرر فيه (ما) أعقبه بالكلام على أهل الأرض. في حين قال في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ١١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... ١٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ... ١٣﴾ بَقَلْبِ اللَّهِ أُنِيلَ وَالنَّهَارُ... ١٤﴾ [النور].

فلم يكرر (من) إذ لم يعقب التسبيح بالكلام على أهل الأرض^(١). ونكتفي بهذه النماذج وإلا فإن الأمر يطول ويطول.

ثم نأتي إلى القسم الثاني: وهو ما ذكر في موطن ولم يذكر في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف لنرى كيف يكون الكلام المعجز، لنرى كيف تكون الصياغة العجيبة في فن القول والتعبير. لنرى الكلام الذي قالت فيه الجن حين سمعته: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن].

القسم الثاني:

وهو أن يذكر في موطن ما لا يذكره في موطن آخر يبدو شبيهاً به، وليس عدم ذكره من باب الحذف، وإنما هو قد يزيد لفظاً أو أكثر مراعاة لما يقتضيه السياق أو يستدعيه المقام.

فقد يزيد حرفاً في مكان ولا يذكره في مكان آخر حسبما يقتضيه موطن الكلام. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَابْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَن يَصِدُقُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنُكِّمُ عَذَابَ اللَّهِ بَعْتَهُ أَوْ جَهَرَةً هَلَ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه قال مرة: (أرأيتم) ومرة أخرى: (أرأيتمكم) بزيادة الكاف. وهذه الزيادة إنما تكون لغرض توكيد الخطاب، وذلك كأن يكون المخاطب غافلاً أو يكون الأمر يوجب زيادة التنبيه. وإنما فرق بين الخطابين ههنا لسببين والله أعلم:

(١) انظر: معاني النحو - الاسم الموصول.

الأول: أنه قال في الآية الأولى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ﴾ فاحتاجوا بعد إلى زيادة في التنبيه والخطاب، وذلك أن فاقد السمع والبصر والمختوم على قلبه به حاجة إلى زيادة خطاب وتنبيه أكثر من السَّوِيِّ فقال فيما بعد: (أرأيتم).

والسبب الثاني: أن الآية الثانية أشد من الآية الأولى تنكيلاً وعذاباً، فإن فيها عذاب الله الذي هو أشد من أخذ السمع والبصر، فاحتاج الموقف إلى تنبيه أكثر وزيادة حذر وحيطة فجاء بكاف الخطاب.

وقد تقول: وَلِمَ قال تعالى في سورة يونس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس] ولم يقل: (أرأيتم) كما قال في الآية السابقة، أو كما قال في آية أخرى من سورة الأنعام فقد قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام] والآيات متشابهة والموقف واحد؟

والحقيقة أن الموقف مختلف والسياق غير متفق. فإنه لا ينبغي أن ينظر إلى الآيات مجردة، بل تؤخذ في مواطنها وسياقها، وهكذا ينبغي أن ينظر إلى كل نص أدبي، فإن اللغة ليست جملاً مفردة بل هي مواقف ومواطن، وقد تصلح جملة في موطن ولا تصلح في موطن آخر.

وإليك إيضاح الفرق بين الآيتين:

قال تعالى في سورة الأنعام:

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَن يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه وصف الذين كذبوا بآيات الله بالصمم والبكم وأنهم في الظلمات فاحتاجوا إلى زيادة تنبيه وخطاب ليسمعوا وليعوا. وهذا شبيه بالموقف الذي سبق أن ذكرناه آنفاً في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ﴾ [الأنعام] بخلاف سورة يونس التي ليس فيها هذا الأمر. جاء في

(البرهان): « وأما أرايتك فقد وقعت هذه اللفظة في سورة الأنعام في موضعين وغيرها وليس لها في العربية نظير، لأنه جمع فيها بين علامتي خطاب وهما التاء والكاف. والتاء اسم بخلاف الكاف، فإنها عند البصريين حرف يفيد الخطاب، والجمع بينهما يدل على أن ذلك تنبيهاً (كذا) على مبناها عليه من مرتبة وهو ذكر الاستبعاد بالهلاك، وليس فيما سواها ما يدل على ذلك فاكتفى بخطاب واحد.

قال أبو جعفر بن الزبير: « الإتيان بأداة الخطاب بعد الضمير المفيد لذلك تأكيد باستحكام غفلته، كما تحرك النائم باليد والمفرط الغفلة باليد واللسان، ولهذا حذفت الكاف في آية يونس [٥٠] لأنه لم يتقدمها قبلها ذكر صمم ولا بكم يوجب تأكيد الخطاب، وقد تقدم قبلها قوله: ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ ﴾ [يونس].

إلى ما بعدهن فحصل تحريكهم وتنبيههم بما لم يبق بعد إلا التذكير بعذابهم انتهى^(١) ومثل هذا الذكر والحذف قوله تعالى:

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ لِمَ تَعَاجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [١٥] هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُعَاجُونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَآئِنًا أَيْمًا ﴾ [١٧] يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [١٨] هَآأَنْتُمْ هَآؤَآءَ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء].

فذكر (ها) التنبيه قبل الضمير وقبل اسم الإشارة في آية آل عمران: (ها أنتم هؤلاء) لأنه أراد أن يقرعهم ويزيد في تنبيههم ولومهم لأنهم جادلوا بالباطل وهم يعلمون، فكرر التنبيه مرة قبل الضمير ومرة قبل اسم الإشارة فقال: (ها

(١) البرهان ١٥١/٤ - ١٥٢.

أنتم هؤلاء حاجتكم)، وكذلك في آية النساء فقد كرر تنبيههم ولومهم ليتعظوا فلا يقفوا مثل هذا الموقف وأنت ترى أن الموقف يتطلب الزيادة في تنبيههم ووعظهم، بخلاف قوله تعالى مثلاً: (ها أنتم أولاء تحبونهم) فإن الموقف لا يحتاج إلى زيادة في التنبيه واللوم، فإنه خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَآأَن تُمْ أُولَآءِ يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَفُوقُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَقُوا عَصَاكُمْ آلَا نَامِلٍ مِّنَ الْغَيْظِ ﴿١١٩﴾﴾ [آل عمران].

فأنت ترى أن الموقف مختلف عما في الآيتين السابقتين، وهوليس موقف تقريع ولوم كما كان ثم.

وقد لا يحتاج الموقف إلى التنبيه فلا يذكره، وذلك نحو قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام مخاطباً ربه: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه].

فلم يأت بالتنبيه لأنهم غير حاضرين.

فأنت ترى أن التنبيه أتى به في المكان المناسب بالقدر الذي يحتاج إليه. فقد يكرر أو لا يكرر أو لا يذكر التنبيه بحسب الحاجة إليه^(١).

ومن ذكر التنبيه وعدمه قوله تعالى:

﴿وَإِن يَخِذْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة].

فلم يجرى بـ (ها) التنبيه في الموطنين في حين قال:

﴿أَمَّنْ هَآذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِن الْكٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢١﴾﴾ أَمَّنْ هَآذَا الَّذِي يَرُفُّكَ إِن أَمْسَكَ رَبُّكَ بِأَلْجَافِ عَتَوٍ وَنُقُورٍ ﴿٢٢﴾﴾ [المُلك].

(١) انظر معاني النحو باب أسماء الإشارة.

فجاء ب (ها) التنبيه. وسبب ذلك - والله أعلم - أن التحدي في الآيتين الأخيرتين أشد وأقوى، وهو واضح من السياق. فالآية الأولى خطاب للمؤمنين. قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَصْرُكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُ لَكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران].

وآية سورة الملك في الكلام على الكافرين وهو في سياق التخويف من قدرة الله ويطشه قال تعالى: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦١﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنِ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٦٢﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦٣﴾ أَمْ نَظُنُّكَ أَنْ يَرْزُقَكُنَا إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [الملك].

فالسياق والجو مختلف في الآيتين، فالأولى مقام رحمة ومسح على جراح المؤمنين ومقام عفو ومغفرة بعد معركة أحد. وأما الثانية فمقام ترهيب وإنذار وتخويف وتحذير فجاء ب (ها) التنبيه زيادة في التحذير والتنبيه وهو ما يقتضيه المقام.

وقد تقول: ولم قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ [البقرة] من دون تنبيه في حين قال: ﴿أَمْ نَظُنُّكَ أَنْ يَرْزُقَكُنَا إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ...﴾ [الملك] فذكر التنبيه، والمقامان متشابهان؟

والحق أن المقامين مختلفان وليسا متشابهين، وذلك أن آيات سورة الملك في خطاب الكافرين - كما ذكرنا - وليس كذلك سياق آية الكرسي.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن مقام آية الكرسي مقام شفاعة، ومقام آية الملك مقام نصر ورزق، ومقام الشفيع يختلف عن موقف الناصر.

فقد قال في آية الكرسي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ...﴾ [البقرة] والشفيع طالب حاجة مرتج قضاءها عالم بأن الأمر بيد من هو أعلى منه، فهو متلطف بسؤاله في

حين قال في سورة الملك: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَمْسُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ۚ﴾ . . . ﴿٢٠﴾
 أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رَزْقَكُمْ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ ﴿٢١﴾ [المُلْك] وهذا كما ترى
 موقف ندّ وليس موقف شفيع . فالناصر من دون الرحمن والرازق إن أمسك الرحمن
 رزقه لا يكون إلا ندّاً لله سبحانه، تعالى الله عن الند، ولا يمكن أن يكون هذا لغير
 الله . ولذا سأل رب العزة قائلاً: من هذا الناصر الرازق من دوني؟ فزاد التنبيه . هذا
 علاوة على ما في هذا من السخرية من إله لا يعرفه رب العالمين!! .

فأنت ترى أن السياق في آية الملك يقتضي زيادة التنبيه، بخلاف آية البقرة .
 فما أعظم هذا الكلام وأجله!

ومن هذا الباب قوله تعالى في سورة الصافات على لسان سيدنا إبراهيم عليه
 السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ أَيْفَكُمَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ
 الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الصافات] .

وقوله في سورة الشعراء على لسانه أيضاً: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَارًا مِنْ سَمَوَاتِنَا أَنْزَلْنَاهَا فَنَزَلَ مِنَ الْعَمَاءِ فَتَبَايَعُوا عَلَى الْكَفَرِ﴾ ﴿١٦﴾ إِذْ قَالَ
 لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُهَا عَنْ كَتِفِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ [الشعراء] .

فقال في الآية الأولى: (ماذا تعبدون) وقال في الثانية: (ما تعبدون) .

وهناك فرق بين (ما) و (ماذا) في الاستفهام، فإن في (ماذا) قوة ومبالغة في
 الإستفهام ليست في (ما)، ففي قولك (ماذا فعلت؟) قوة ليست في (ما فعلت؟)
 ولعل ذلك يعود إلى زيادة حروفها . ويدل على ذلك الاستعمال القرآني^(١) ومن
 ذلك ما جاء في الآيتين اللتين ذكرناهما . فإنه إنما جاء في الآية الأولى بـ (ماذا)
 وفي الثانية بـ (ما) لأن الأولى في موقف تحدّ ظاهر ومجابهة قوية، بخلاف
 الثانية، يدل ذلك على ذلك السياق .

فإن المقام في الأولى ليس مقام استفهام وإنما هو مقام تقرّيع، ولذلك
 لم يجيبوه عن سؤاله بل مضى يقرعهم بقوله: ﴿أَيْفَكُمَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ
 تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ [الصافات] .

(١) انظر كتابنا: (معاني النحو) باب الاستفهام .

وأما في الثانية فهو في مقام استفهام المحاجة إذ قال لهم: ما تعبدون؟
فأجابوه: نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين.

فسألهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٦) ﴿أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٧) [الشعراء].

فأجابوه قائلين: ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (٧٨) [الشعراء].

فأنت ترى أن المقام مقام محاجة بخلاف الآية الأولى فإنه مقام تحدّ وتقرّيع ومجابهة.

ويوضح ذلك نهاية القصتين.

ففي آية الشعراء قال: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ (٧٩) ﴿أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ﴾ (٨٠) ﴿فَأَنَّهُمْ عَذَابٌ إِلَى الْأَرْبِّ الْعَلِيمِينَ﴾ (٨١) [الشعراء - وما بعدها].

وأما في آية الصافات فانتهى السياق بتحطيم الأصنام وتحريقه بالنار.

﴿فَرَأَى إِلَهُ الْهَنَئِمِ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ (٨٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ (٨٣) ﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرُبًا يَلْمِينَ﴾ (٨٤) ... ﴿قَالُوا أَنْتُمْ أَنْبَاءُ لَكُمْ بَيْنَنَا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٨٥) ... وما بعدها [الصافات].

فثمة فرق كبير بين النهايتين وبين السياقين. فجاء في مقام المجابهة وشدة التحدي بـ (ماذا) دون المقام الآخر الذي جاء فيه بـ (ما).

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل عن زيادة (ذا) في قوله في الصافات (ماذا تعبدون) وإخلاء ما في الشعراء منها.

والجواب أن يقال: إنّ قوله (ما تعبدون) معناه: أي شيء تعبدون؟

وقوله: (ماذا تعبدون) في كلام العرب على وجهين:

أحدها: أن تكون (ما) وحدها اسماً و (ذا) بمعنى الذي، والمعنى: ما الذي تعبدون. و (تعبدون) صلة لها.

والآخر أن تكون (ما) مع (ذا) اسماً واحداً بمعنى: أي شيء. وهو في الحالتين أبلغ من (ما) وحدها إذا قيل: ما تفعل؟ و (ما تعبدون) في سورة الشعراء إخبار عن تنبيههم لهم، لأنهم أجروا مقاله مجرى مقال المستفهم،

فأجابوه وقالوا: ﴿قَالُوا تَعْبُدُوا أَصْنَامًا فَفُتِلَ لَهَا عَنكِينَ﴾ ﴿٧١﴾ فنبه ثانياً بقوله: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ كُرْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ ﴿٧٢﴾؟

وأما (ماذا تعبدون)؟ في سورة الصفات فإنها تقرع، وهو حال بعد التنبيه. ولعلمهم بأنه يقصد توبيخهم وتبكيته لم يجيبوا كإجابتهم في الأول. ثم أضاف تبكيته إلى تبكيت ولم يستدع منه جواباً فقال: ﴿أَيْفَكَاءِ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿٨١﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ [الصفات].

فلما قصد في الأول التنبيه كانت (ما) كافية. ولما بالغ وقرع استعمل اللفظ الأبلغ وهو (ماذا) التي إن جعلت (ذا) منها بمعنى (الذي) فهو أبلغ من (ما) وحدها. وإن جعلاً اسماً كان أيضاً أبلغ وأؤكد مما إذا خلت من (ذا) «^(١)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ ﴿٦٧﴾ [الأحزاب].

فمد (السبيل) في حين قال في الآية الرابعة من السورة نفسها: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ ﴿١﴾ [الأحزاب] فلم يمهده.

وذلك أن الأولى في كلام أهل النار وهم يصطرخون فيها ويمدون أصواتهم بالبكاء، فجاء بالمد، وهو المناسب لمد الصوت بالبكاء ورفع، بخلاف الآية الثانية.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ﴿٧٦﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَّ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ [العنكبوت].

(١) درة التنزيل ٣٣١.

فقد زاد (أن) بعد (لَمَّا) في سورة العنكبوت بخلاف سورة هود والقصة واحدة، وذلك أن سياق القصة في العنكبوت يقتضي هذه الزيادة من عدة أوجه، بخلاف سياقها في هود. فإنه أفاض في ذكر القصة في سورة العنكبوت أكثر مما هو في هود، فقد ذكر فيها من صفات قوم لوط السيئة ما لم يذكره في هود فقد قال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلَ فَحِشَةٍ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [٢٨] ﴿أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّيْلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ [٢٩] [العنكبوت].

ولم يزد في هود على أن قال: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [٣٠] [هود].
ففضل في عمل السيئات ما لم يفصله في هود.

فلما كان المقام مقام إطالة وتفصيل في سورة العنكبوت ذكر (أن) لمناسبة سياق الإطالة والتفصيل بخلاف سورة هود.

ومن ناحية أخرى أن برم لوط بقومه وضيقه بهم في سورة العنكبوت، كان أظهر وأشد مما في سورة هود. كما يبدو أن ترقب لوط للخلاص من قومه في سياق العنكبوت كان أظهر مما في هود. يدل على ذلك عدة مواضع في القصة:

منها قوله في سورة العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاءَ بِهِمْ مُضَاهَاكُمْ فِيهِمْ دَرَعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكَتَ مِنَ الْغَيْبِ﴾ [٣١] [العنكبوت].

في حين قال في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَاءَ بِهِمْ مُضَاهَاكُمْ فِيهِمْ دَرَعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [٣٢] [هود].

فزاد في آية العنكبوت قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيكَ...﴾.

ومنها دعاؤه ربه أن ينصره على قومه بعدما كذبوه وتعجلوا العذاب قائلين: ﴿أَفَتُنَادِي بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٣٣] [العنكبوت] فقال ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [٣٤] [العنكبوت] وليس الأمر كذلك في هود، فإنهم لم يصرحوا بتكذيبه ولم يدع لنفسه بالنصر. ومنها التصريح بلفظ التنجية ومجيء

الفرج في سورة العنكبوت مرتين، مرة مع سيدنا إبراهيم إذ قال ملائكة الله له في لوط: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُكُفِّرُهُ كَأَنَّكَ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [العنكبوت]. ومرة مع لوط نفسه، إذ قالوا له: ﴿إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا نَكُفِّرُكَ﴾ [العنكبوت] ولم يرد مثل ذلك في هود.

ولذا حسن ذكر (أَنْ) في العنكبوت دون هود مراعاة للتبسط في ذكر القصة والإفاضة فيها، وللدلالة على استطالة الوقت وطول الترقب والانتظار، وهو تعبير في غاية الجمال.

وشبه بهذه الزيادة للانتظار والترقب قوله تعالى في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا أَتَى الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا﴾ [يوسف].

فزاد (أَنْ) بعد (لما) وذلك لمناسبة حالة الإنتظار والترقب التي كان يمر بها نبي الله يعقوب، فقد كان شديد الالهفة على رؤية ولده. ومن المعلوم أن الشخص في مثل هذه الحال يستطيل كل لحظة تمر به، ففصل بين (لما) ومجيء البشير وباعد بينهما إشارة إلى الشعور باستطالة الوقت وطول الانتظار. ولا يؤدي اتصال (لما) بالشرط ما يؤديه هذا الفصل الجميل.

جاء في (معترك الأقران): «فإن قلت: إن قوله تعالى: (فلما أن جاء البشير) لم يقع فيه تكرار فَلَمَّ زَيْدَ (أَنْ) ولم يأت على الأصل؟

قلت: لما كان مجيء البشير إلى يعقوب عليه السلام بعد طول الزمن وتباعد المدة، ناسب ذلك زيادة (أَنْ) لما في مقتضى وضعها من التراخي»^(١).

وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك: «تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف، وبين مجيئه لبعده ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأن ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، تؤكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي: (أَنْ) في قوله: أن جاء»^(٢).

(١) معترك الأقران ٣/٣٥٩ وانظر ملاك التأويل ٢/٥٢٧.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٢٦٣.

ونحو ذلك قوله تعالى في موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ ثَقُلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ...﴾ [القصص] فزاد (أن) بعد (لما) وذلك أن موسى لم يكن مندفعاً للبطش بالقبطي في هذه المرة فزاد (أن) للدلالة على التريث والتمهل، وفصل بين (لما) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن وعدم الاندفاع، بخلاف المرة الأولى التي اندفع فيها فجأة لنصرة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرة الأولى: ﴿فَاسْتَغْنَهُ الَّذِي مِنْ شَيْعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ...﴾ [القصص] فجاء بالفاء الدالة على التعقيب وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة (فاستغائه، فوكزه، فقضى عليه).

ومما يدل على تمهله وعدم اندفاعه في المرة الثانية تعنيفه لصاحبه قائلاً: ﴿إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص] حتى ظن صاحبه أنه ينوي البطش به بدلاً من عدوه فقال له: ﴿يَمْوَسَىٰ أَرِيدُ أَنْ ثَقُلَني كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ﴾ [القصص]. فزاد (أن) للدلالة على ذاك.

وهذا نظير ما قبله كما هو واضح.

وقد يزيد كلمة أو أكثر في موضع، ولا يذكرها في موضع آخر، كل ذلك حسبما يقتضيه المعنى والسياق.

فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء].

وقوله:

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء].

فقد زاد قوله: (ومقتاً) في آية النساء وذلك أن «متزوج امرأة أبيه فاعل رذيلة يمقت فاعلها ويشناً وتستخسه الطباع السليمة، فوصفت فعلته بالمقت، وسأوت الزنى فيما وراء ذلك»^(١).

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٠٠.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ. وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

[التغابن].

وقوله :

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الطلاق].

فقد زاد في التغابن قوله : (ويكفر عن سيئاته) دون الطلاق وذلك أن آية التغابن خطاب للكافرين وقد دعاهم إلى الإيمان فقال : ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن] ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن].

ثم قال : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ﴾ [التغابن].

وأما آية الطلاق فهي خطاب للمؤمنين وقد دعاهم إلى التقوى فقال : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَبِ الَّذِينَ ءَامَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق].

ثم قال : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ...﴾ [الطلاق].

فكان ذكر تكفير السيئات مع الكافرين الذين هم في معصية مستديمة وسيئاتهم غير منقطعة أولى من ذكرها مع المؤمنين.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ [لقمان].

وقوله :

﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة] ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ [البقرة].

فقد زاد في آية لقمان قوله : (كأن في أذنيه وقراً) دون آية البقرة، وذلك «أن آية البقرة لما تقدم فيها قوله : ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة] ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنَزَّلُ

عَلَيْهِ تَمَّ ﴿[الجائية] فوصفه بسماع آيات الله لم يكن ليطابقه ذكر الوقر في الأذن لأنه قد ذكر سماعه الآيات. والوقر مانع من السماع فلم يناسب الإعلام بالسماع ذكر الوقر المانع منه... .

ولما لم يقع ذكر سماع الآيات في آية لقمان وتقدم ذكر المشار إليه بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ ﴿لُقْمَان﴾ وهذه زيادة مرتكب فناسبها ذكر زيادة الوقر، مع أنه لم يرد فيها ذكر سماعه الآيات كما ورد في آية الجائية. فازداد ووضح التلازم^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿المائدة﴾.

وقوله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿التغابن﴾.

فزاد في الآية الأولى قوله: (واحدروا) وقوله: (فاعلموا) مع اتحاد ما تضمنته الآيتان فيما سوى ذلك.

وسبب ذلك والله أعلم أن آية المائدة سبقها الأمر باجتناب الخمر وما ذكر معها من المحرمات وما تجرّه عليهم هذه المحرمات من شرور فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١١﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ ﴿المائدة﴾.

فناسب ذلك ذكر هذه الزيادة لتأكيد التحذير.

(١) ملاك التأويل ٢/ ٧٨٩-٧٩٠.

« وأما آية التغابن فلم يرد قبلها ما يستدعي هذا التأكيد، ألا ترى الوارد فيها من قوله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن] فلما لم يرد هنا نهى عن محرم متأكد التحريم... لم يرد هنا من الزيادة المحرزة لمعنى التأكيد ما ورد هناك. فجاء كل على ما يجب ويناسب. وليس عكس الوارد بمناسب «^(١).

وقد يزيد الجار والمجرور في موضع ولا يذكر نحوه في موضع آخر، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلَىٰ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [الفتح] وقوله:

﴿ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة].

فزاد (لكم) في آية الفتح ولم يذكر مثل ذلك في المائدة. والسبب أن الخطاب في سورة الفتح مختص بالمخلفين من الأعراب قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ﴾ [الفتح].

فلما كان الخطاب مختصاً بهؤلاء زاد (لكم) لأن الخطاب موجه إليهم.

أما في سورة المائدة فالخطاب عام، وليس خاصاً بجماعة معينين قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [المائدة].

ألا ترى إلى قوله تعالى: (ومن في الأرض جميعاً) كيف عم أهل الأرض فلم يحسن أن يذكر (لكم) بل جاء الخطاب عاماً. جاء في (درة التزيل) عن سبب ذكر (لكم) في (الفتح) وعدم ذكرها في (المائدة) قوله: إن آية سورة الفتح

(١) ملاك التأويل ١/ ٢٧٤-٢٧٥.

«نزلت في قوم تخلفوا عن رسول الله ﷺ من غير عذر وتأخروا عن الجهاد وقالوا: شغلتنا أموالنا وأهلونا، ثم سألوه ﷺ أن يستغفر لهم، يكتمون بذلك نفاقهم ويظهرون وفاقهم وقصدهم إستمالاته كيلا تضرهم عداوته فقال عزوجل:

﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح] فلما كان في قوم مخصوصين احتيج إلى (لكم) للتبيين.

فأما في هذه السورة [يعني سورة المائدة] فإنها لم تنزل لفريق مخصوص دون فريق بل عم بها. دليله أن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً. فلما سيقت الآية إلى العموم لم يحتج إلى (لكم) التي للخصوص «(١)». ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت].

وقوله:

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [الشورى].

زاد في آية (العنكبوت): (ولا في السماء) (٢) وذلك أن الكلام فيها في سياق تكذيب الأمم لرسولها بدءاً من نوح إلى إبراهيم إلى لوط إلى شعيب وغيرهم، وما حاق بهذه الأمم من العذاب والعقوبات، بخلاف آية الشورى فإنها وردت في سياق ما يصيب الإنسان من مصائب قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [٣٠] ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ...﴾ [الشورى].

فلما كان الكلام في العنكبوت في سياق تكذيب الأنبياء ومحاربة الرسل ومعاقبة الله لهؤلاء الأقوام، كان من المناسب أن يزيد لهم في

(١) درة التنزيل ٩٤ وانظر ٤٤٣، البرهان للكرمانى ٤٣٩، ملاك التأويل ٢٤٧/١ وما بعدها.

(٢) في هذه الآية إعجاز علمي إذ إن فيها إشارة إلى أنهم سيصعدون في السماء وأنه سيكون لهم فيها شأن ومع ذلك فهم غير معجزين في السماء كما أنهم غير معجزين في الأرض. وإلا فأين هم من السماء في ذلك الوقت؟!

القول ويبسط لهم في التحدي ويخبرهم أنهم ضعفاء حتى لو بلغوا السماء وصعدوا فيها.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ...﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء].

فزاد (منه) في آية المائدة، وذلك أن آية المائدة فيها تفصيل وتبيين لأحكام الوضوء كاملة، بخلاف آية النساء فإنها لم تذكر أحكام الوضوء تفصيلاً. فلما فصل وبين في آية المائدة وزاد في ذكر الأحكام زاد الجار والمجرور (منه) للزيادة في التبيين. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوْهُكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة].

وقال في سورة النساء: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء].

فأنت ترى أنه حيث كان السياق مجملاً أجمل في الذكر، وحيث كان مفصلاً مبيناً زاد وبين، فوضع كل تعبير في الموضع الذي هو أوفق له. جاء في (البرهان) للكرمانى: أنه زاد في آية المائدة (منه) « لأن

المذكور في هذه السورة [يعني النساء] بعض أحكام الوضوء والتميم فحسن الحذف. والمذكور في المائدة جميع أحكامها فحسن الإثبات والبيان ^(١).

ومثل هذه الزيادة للتفصيل ما جاء في قوله تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ ﴾

[الحديد].

وقوله:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ ۖ ﴾ [التغابن]

قوله: (في الأرض ولا في أنفسكم) على ما في التغابن، وذلك لأنه فصل في سورة الحديد في أحوال الدنيا والآخرة ما لم يفصله في التغابن، فكان المناسب أن يفصل ويزيد موافقة لما قبلها. جاء في سورة الحديد قوله: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرِبُهُ مُمْصِراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۚ ﴾ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله... ﴿... مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ... ﴾ [الحديد].

ولم يرد مثل ذلك في سورة التغابن قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۚ ﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ... ﴿... ﴾ [التغابن].

فأنت ترى أنه فصل وذكر في سورة الحديد ما لم يذكره في التغابن، ولذا زاد في التفصيل في الآية المذكورة موافقة لما قبلها. جاء في (البرهان) للكرمانبي أنه فصل في سورة الحديد وأجمل في سورة التغابن « موافقة لما قبلها في هذه السورة [يعني الحديد] فإنه فصل أحوال الدنيا

والآخرة فيها بقوله ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: (١)].

وقد يكون الذكر والحذف مراعاة لواقع الحال، فيكون الكلام في غاية الدقة في التعبير عن الحقيقة. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلِإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى...﴾ [الحج: (٤٢)].

فإنه قال: (وكذب موسى) ولم يقل: (قوم موسى) كما قال في الأقوام الأخرى، وذلك لأن قوم موسى لم يكذبوه وإنما الذي كذبه فرعون وقومه. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم قيل: (وكُذِّبَ موسى) ولم يقل: قوم موسى؟

قلت: لأن موسى ما كذبه قومه بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط» (٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِ إِسْرَءِيلَ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدٌ...﴾ [الصف: (٦)].

وقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ...﴾ [الصف: (٥)].

فإنه لم يقل في عيسى: (وإذ قال عيسى لقومه) كما قال في موسى: (وإذ قال موسى لقومه) بل قال: (يابني إسرائيل) وذلك أن عيسى عليه السلام لم يكن له نسب فيهم فيكونوا قومه إذ لم يكن له فيهم أب (٣) بخلاف موسى.

(١) البرهان ٤٥٢.

(٢) الكشاف ٣٥٠/٢.

(٣) معترك الأقران ٣/٥٣٠.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نَنْقُوْنَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء].

ولم يقل: (أخوهم شعيب) كما قال فيمن قبله من الأنبياء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نَنْقُوْنَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الشعراء] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نَنْقُوْنَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الشعراء] ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا نَنْقُوْنَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء] وغير أولئك من الرسل، إلا شعيباً فإنه لم يقل فيه: (أخوهم) وذلك أن شعيباً ليس من أصحاب الأيكة وإنما هو أخو مدين، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف] بخلاف أصحاب الأيكة. فهو قد أرسل إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: (أخوهم شعيب) كما في سائر المواضع؟

قلت: إن شعيباً لم يكن من أصحاب الأيكة. وفي الحديث: (إن شعيباً أخا مدين أرسل إليهم وإلى أصحاب الأيكة)»^(١).

ومن ذلك ما ورد في قصة نوح وهو قوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

وفي قصة هود قوله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِي إِنَّا لَنَرِيكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأعراف].

فقد زاد (الذين كفروا) على ملأ قوم هود دون ملأ قوم نوح. قيل: لأنه كان في أشراف قوم هود من آمن به، ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن، فأخرج المؤمنين من أشراف قوم هود، لأن القائلين هم الذين كفروا منهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: لم وصف الملأ بالذين كفروا دون الملأ من قوم نوح؟ قلت: كان في أشراف قوم هود من آمن به منهم: مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم لإسلامه، فأريدت التفرقة بالوصف. ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن.

(١) الكشاف ٤٣٥/٢.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ أَمْلَأْ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ آلِ الْآخِرَةِ﴾ [المؤمنون] ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير^(١).

وقد يكون الذكر والحذف لغير ذلك، فهناك أسباب مختلفة تدعو إلى الذكر والحذف، وكلها ترجع إلى مراعاة المقام وحسن الاختيار وذكر اللفظة في الوضع الذي يقتضيها وينادي عليها بأبلغ تعبير وأجمل صورة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] على لسان جميع الأنبياء الذين جرى ذكرهم في سورة الشعراء، فنوح قال لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء] وكذا قال هود لقومه (الشعراء ١٢٧)، وكذا قال صالح لقومه (الشعراء ١٦٤) وكذا قال شعيب (الشعراء ١٨٠) إلا إبراهيم وموسى فإنهما لم يقلوا ذلك.

أما إبراهيم فلأن أباه كان من المخاطبين، قال تعالى: ﴿وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء] فاستحيا أن يخاطب أباه بذلك.

وأما موسى فلأن فرعون رباه وقد ذكر ذلك له فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء] فلا يليق أن يقول له: (وما أسألك عليه من أجر). ألا ترى أنه لا يليق أن يقول شخص لأبيه أو لمن رباه وأنفق عليه: (لا أسألك أجراً) فانظر إلى جمال الذوق وحسن الاختيار في التعبير. جاء في (البرهان) للكرمانى أنه ليس في قصة موسى عليه السلام ذلك « لأنه رباه فرعون حيث قال: ألم نربك فينا وليداً؟

ولا في قصة إبراهيم لأن أباه في المخاطبين حيث يقول: (إذ قال لأبيه وقومه) وهو رباه.

واستحيا موسى وإبراهيم أن يقلوا: (ما أسألكم عليه من أجر) وإن كانا منزهين من طلب الأجرة^(٢).

(١) الكشف ٥٥٤/١.

(٢) البرهان ٣٥٣.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَلَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [إبراهيم].

فزاد في آية المائدة: (يا قوم) ولم يذكر ذلك في آية إبراهيم وذلك أنه في آية المائدة عددٌ عليهم النعم الجسماء في أن جعل منهم أنبياء وجعل منهم ملوكاً، وأنه آتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين، فحسن نداؤهم بـ (يا قوم) وذلك أن الإنسان يحب أن ينتسب إلى قوم ذوي رفعة ومكانة عالية، بخلاف المستذلين والمستعبدين وهو سياق الآية الثانية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنه طلب منهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم فقال: ﴿يَنْقُورُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة].

فناداهم بـ (يا قوم) عطفاً لقلوبهم لتحميلهم مهمة دخول الأرض المقدسة وتكليفهم بهذا الأمر الشاق.

أما آية إبراهيم فليس فيها طلب شيء ولا تكليف بأمر، وإنما فيها تذكيرهم بما مر عليهم من محن وعذاب. وفرق بين الحالتين.

ومن جهة أخرى أن سياق قصة موسى في سورة المائدة أطول مما في سورة إبراهيم، فزاد (يا قوم) لمناسبة طول القصة في سورة المائدة. وهذا خط واضح في التعبير القرآني فاقضى كل ذلك هذه الزيادة في سورة المائدة دون سورة إبراهيم والله أعلم.

جاء في (البرهان) للكرمانى أن «تصريح اسم المخاطب مع حرف الخطاب يدل على تعظيم المخاطب به. ولما كان ما في هذه السورة نعماً جساماً ما عليها من مزيد وهو قوله: ﴿جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ صرح فقال: (يا قوم). ولموافقة ما قبله لما بعده من النداء وهو قوله:

(يا قوم ادخلوا) (يا موسى إن فيها) (يا موسى أنا) ولم يكن ما في إبراهيم بهذه المنزلة فاقصر على حرف الخطاب «(١)» .

ومن لطيف الذكر والحذف قوله تعالى :

﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة] .

وقوله :

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة] .

فزاد في الآية الثانية قوله : (والمؤمنون) بخلاف الآية الأولى وذلك أن الآية الأولى في المنافقين ، وهم الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإيمان ولا يعلم المؤمنون بهم إلا من أطلعه رسول الله عليه ، فلم يقل : (والمؤمنون) لأن المؤمنين لا يرون أعمالهم بخلاف الآية الثانية فإنها في طاعات المؤمنين وهي ظاهرة للجميع ففرق بين الجماعتين .

قال تعالى في الطائفة الأولى وهم المنافقون : ﴿ يَعَذَّرُونَ لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعَذِّرُوا لِيْ تُوْمِنُ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة] .

وقال في الجماعة المؤمنة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٩٢] أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٩٣] وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة] .

جاء في (البرهان) للكرمانى في هاتين الآيتين أن « الآية الأولى في المنافقين ولا يطلع على ما في ضمائرهم إلا الله

تعالى، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليهما لقوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾.

والثانية في المؤمنين. وطاعات المؤمنين وعاداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين. وختم آية المنافقين بقوله: (ثم تردون) فقطعه عن الأول لأنه وعيد. وختم آية المؤمنين بقوله: (وستردون) لأنه وعد فبناه على قوله: (فسيرى الله) ^(١).

وجاء في (درة التنزيل) أن الآية الثانية: « فيمن أمر الله تعالى نبيه ﷺ وهو الذي أوجب عليهم الصدقات بأن يقول لهم: اعملوا ما أمركم الله به من الطاعات كالصلوات والصدقات فإن الله ورسوله والمؤمنين يرون ذلك، وهذه الأعمال مما ترى بالعين خلاف أعمال المنافقين التي تقتضي لهم النفاق لإضمارهم خلاف إظهارهم وهو مما لا يرى بالعين وإنما يعلمه عالم الغيب، فلذلك لم يذكر المؤمنون في الأولى وذكروا في الثانية » ^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَجْرِهُمْ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة].

فقد قال في الآية الأولى: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ وقال في الثانية: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾، وذلك أن الآية الأولى فيها ما ليس عملاً لهم كالظمأ والنصب والمخمصة فهذه ليست من أعمالهم غير أنه تكتب لهم أعمالاً صالحة.

أما الآية الثانية فما جاء فيها كله من أعمالهم فالنفقات وقطع الوديان هي أعمال لهم ولذا لم يكن ثمة داع إلى القول: (كتب له به عمل صالح) لأنه عمل حقيقة.

(١) البرهان ٢١٤-٢١٥ وانظر ملاك التأويل ٤٧٣/١.

(٢) درة التنزيل ٢٠٣.

ثم انظر إلى خاتمة كل من الآيتين. فقد قال في ختام الآية الأولى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن ما تقدم ليس عملاً وإنما هو من الإحسان الذي تدخل فيه عموم العبادات.

وقال في ختام الآية الثانية: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأنه من أعمالهم. جاء في (البرهان) للكرماني أن « الآية الأولى مشتملة على ما هو من عملهم وهو قوله: ﴿وَلَا يَطْثُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَبَلًا﴾ وعلى ما ليس من عملهم وهو الظمأ والنصب والمخمصة.

والله سبحانه وتعالى بفضلته أجرى ذلك مجرى عملهم في الثواب فقال: ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ أي: جزاء عمل صالح.

والآية الثانية مشتملة على ما هو من عملهم وهو إنفاق المال في طاعة الله وتحمل المشاق فكتب لهم ذلك بعينه. وكذلك ختم الآية بقوله: ﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن الكل من عملهم فوعدهم أحسن الجزاء عليه.

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ حين ألحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم. ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء^(١).

وجاء في (درة التنزيل): « فلما كان ما في الثانية عملهم كتب على جهته لم يحتج إلى أن يكتب به عمل صالح لأنه هو. والأول كان فيه ما ليس بعملهم فكتب به أجر مثل عملهم فلذلك كانت الزيادة في الأولى ولم يحتج إليها الأخرى.

والجواب عن المسألة الثانية وهي تعقيب الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ هو أن من أخبر عنه بأنه أصابه ظمأ ونصب وجوع فقد أخبر عنه بفعل غيره به ولم يخبر عنه بفعل فعله هو. إلا أنه يجب له بما وصل إليه من ألم العطش والجوع والتعب والنصب الأجر، فلذلك عقبه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أحسن طاعة الله وتعرض منها لما يلحقه فيه هذه الشدائد.

(١) البرهان ٢١٥-٢١٧.

وأما الآية الثانية وتعقيها بقوله: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلأن جميع ما ذكر كان عملاً لهم فوعدهم حسن الجزاء على عملهم. وذلك ظاهر والله أعلم»^(١).

ومن لطيف الذكر الذي يقتضيه المعنى قوله تعالى:

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِيَّائِمْ قَلْبُهُ...﴾ [البقرة].

ولم يكتف بقوله: (إنه آثم) بل أسند الإثم إلى القلب وذلك لأن الشهادة محلها القلب وكتمانها هو أن يبقها في قلبه فنسب الإثم إلى القلب وهو تعبير بديع. جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «فإن قلت: هلا اقتصر على قوله (آثم) وما فائدة ذكر القلب، والجمله هي الآثمة لا القلب وحده؟

قلت: كتمان الشهادة هو أن يضرها ولا يتكلم بها، فلما كان إثماً مقترناً بالقلب أسند إليه لأن إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ. ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد: هذا مما أبصرته عيني ومما سمعته أذني ومما عرفه قلبي. ولأن القلب هو رئيس الأعضاء والمضغة التي إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله فكأنه قيل: فقد تمكن الإثم في أصل نفسه وملك أشرف مكان فيه. ولئلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط»^(٢).

ومن الذكر الذي يقتضيه المعنى أيضاً قوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة، الأعراف ١٦٠].

وقوله:

﴿وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

فزاد في الآيتين الأوليين: (كانوا) بخلاف آل عمران وذلك أن آتي البقرة والأعراف في أقوام قد مضوا وهم بنو إسرائيل، قال تعالى في البقرة:

(١) درة التنزيل ٢٠٥.

(٢) الكشاف ١/٣٠٧.

﴿وَلَقَدْ لَنَّا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة].

وقال في الأعراف: ﴿وَلَقَدْ لَنَّا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف].

وأما آية آل عمران فهي ليست في أقوام ماضين وإنما مثل ضربه الله لكل عصر قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

فناسب ذكر (كان) في آيتي البقرة والأعراف دون آية آل عمران . جاء في (البرهان) للكرماني أن ما في السورتين يعني البقرة والأعراف « إخبار عن قوم ماتوا وانقرضوا وما في آل عمران مثل »^(١).

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا...﴾ [القصص].

فقد ذكر الزينة بخلاف قوله تعالى:

﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا...﴾ [الشورى].

وقد ورد ذكر الزينة في القصص لورودها فيما بعد في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ...﴾ [القصص] بخلاف سورة الشورى فإنها لم يرد فيها مثل ذلك .

جاء في (معترك الأقران): « فإن قلت: ما وجه زيادة (الزينة) في هذه الآية على آية الشورى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾؟

والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ فالتحمت الآية بتلك القصة. ولم يرد في سورة الشورى من أولها إلى آخرها

حال دنيوي لأحد بل تضمنت حقارة الدنيا ونزارة رزقها وأنه مقدور غير مبسوط. وتلك حال الأكثر^(١).

ومن الزيادة التي اقتضاها السياق قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران].

فقد زاد في آل عمران: (ولا ينظر إليهم) بخلاف البقرة وذلك لسببين:

الأول: أن آية البقرة في الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون بكتمانهم هذا ثمنًا قليلًا. وأما آية آل عمران فليست في الذين يكتمون بل في الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا وهو ذنب أكبر وأعظم من مجرد الكتمان. إذ هم لم يكتموا الحق فقط بل غيروه وأقسموا على ذلك واشتروا به ثمنًا قليلًا. فهم لم يكتفوا بالكتمان بل تجاوزوه في دعم الباطل، فلما زادوا في الذنب زاد الله لهم في العقوبة فقال: (ولا ينظر إليهم).

والسبب الثاني: أن السياق في آل عمران في الوفاء بعهد الله فقد قال قبل هذه الآية:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]. وليس الأمر كذلك في البقرة فقد سبق هذه الآية الكلام على الميتة والدم ونحوها قال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ﴾ [البقرة].

(١) معترك الأقران ٤٢٢/٣.

فلما كان المقام في آل عمران هو الكلام على عهد الله ناسب تشديد العقوبة
على مضيعيه أكثر مما في البقرة لأن السياق يقتضيه .

فما أجلّ هذا الكلام وأعظمه !

ونكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية وإلا فالاستقصاء بعيد المنال .

التوكيد في القرآن الكريم

من المعلوم أنه يؤتى بالألفاظ المؤكدة بحسب الحاجة إليها. فقد يكون الكلام لا يحتاج إلى توكيد، وقد يحتاج إلى مؤكد واحد أو أكثر بحسب ما يقتضيه المقام. وقد راعى القرآن الكريم ذلك أدق المراعاة في جميع ما ورد من مواطن التوكيد. فهو في غاية الدقة في اختيار الألفاظ المؤكدة في وضعها في الموضع المناسب بحسب طريقة فنية متقنة.

إن التوكيد القرآني كله وحدة متكاملة منظور إليه نظرة شاملة وقد روعيت في ذلك جميع مواطنه فهو يؤكد في موطن ما مراعيًا موطنًا آخر قرب أو بعد، فتدرك أنه أكد في هذا الموطن لسبب اقتضى التوكيد ولم يؤكد في موطن آخر يبدو شبيهًا به لانعدام موجب، وترى أنه هنا أكد بمؤكدين وأكد في موطن آخر يبدو شبيهًا به بمؤكد واحد لسبب دعا إلى استعمال كل تعبير في موطنه المناسب له. وكذلك في اختيار المؤكدات فهو يؤكد هنا بالنون المخففة مثلاً وفي موطن آخر بالنون الثقيلة. وهنا بياناً المشددة وفي موطن آخر بأن المخففة ويستبدل حرفاً بحرف كل ذلك بحسب منظور فني كامل متكامل في كل القرآن، فجاء التوكيد كله في القرآن كله كأنه لوحة فنية واحدة فيها من عجائب الفن - وليس فيها إلا العجيب - ما يجعل أمهر الفنانين يقف مبهوراً دهشاً مقراً بعجز الخلق أجمعين عن استخلاص عجائبه فضلاً عن الإتيان بمثله.

ولنضرب أمثلة على ذلك تكون مرقاة لما فوقها ومن الله التوفيق.

١- لقد ذكرنا أن القرآن الكريم قد يأتي بلفظ مؤكد في موطن وينزعه في موطن آخر يبدو شبيهًا به، وإذا تأملت ذلك وجدت أنه وضع كل تعبير في موطنه اللائق به.

أ- فمن ذلك مثلاً الإتيان باللام التي تفيد التوكيد وذلك نحو قوله تعالى:

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر].

وقوله:

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر - المؤمن].

فقد أدخل اللام في آية النحل على (بئس) فقال: (فلبئس مَثْوًى المتكبرين) دون الآيتين الأخريين إذ قال فيهما: (فبئس مَثْوًى المتكبرين) وذلك أنه في سورة النحل وصف قوماً أشد كفراً وأكبر جرماً من المذكورين في آيتي الزمر والمؤمن، وذلك أنهم ضلوا وأضلوا غيرهم وحملوا من أوزار الذين يضلونهم علاوة على أوزارهم هم فزاد عذابهم، قال تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَ مَا يَزِرُّوكَ﴾ [النحل].

فناسب ذلك زيادة اللام لتوكيد العذاب لهم بخلاف المذكورين في الآيتين الأخريين، فإنه لم يصفهم بمثل هذا الوصف.

ومن ناحية ثانية أفاض في سورة النحل في وصف الكافرين ما لم يفضه في السورتين الأخريين، فناسب ذلك أيضاً ذكر اللام والزيادة في التوكيد، إذ كما زاد وتبسط في الوصف زاد في التوكيد لأنه هو المناسب لمقام التبسيط والإفاضة. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول:

ما بال الآية في سورة النحل خصت وحدها بدخول اللام على قوله: (لبئس) فيها وإخلاء الآيتين من السورتين منها فيما قبلهما؟

الجواب أن يقال: إن الآية الأولى من هذه السورة في ذكر قوم قد ضلوا في أنفسهم وأضلوا غيرهم وهم الذين أخبر الله تعالى عن أتباعهم أنهم سألوهم عن القرآن فقالوا: ليس من عند الله وإنما هو أساطير الأولين: قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذًا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا اسْطِغِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النحل].

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلِيسَ مَا يَزِرُّوكَ﴾ [النحل].

وهؤلاء أكثر الناس آثاماً وأشدّهم عقاباً. ومنّ هذه صفته اختيار عند تغليظ العقاب له إلى المبالغة في تأكيد لفظه فاخترت اللام هنا لذلك، ولأن بعدها في ذكر أهل الجنة قوله: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل] فاللام في: (لنعم) بإزاء اللام في: (لبئس). وليس كذلك الآيتان في سورة الزمر والمؤمن لأنهما في ذكر جملة الكفار قال الله عز من قائل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا...﴾ [الزمر] وقال في سورة المؤمن: ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَنِمْنَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [غافر] إلى قوله: (ادخلوا) فلما كان المذكورون في سورة النحل فيمن لزمهم وزران عن ذنوبهم التي أتوها وعن ذنوب غيرهم التي حملوا^(١) عليها ولم يذكر من سواهم في الآيتين الأخيرتين يحمل أثقالاً مع أثقالهم، حسن التوكيد هناك فضل حسن فلذلك خص باللام «^(٢)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام].

فأكد ذلك باللام في حين قال:

﴿الَّذِي يُخَذُّ عَلَيْهِمْ مِيثَقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف].

فلم يؤكد باللام.

(١) كذا في المطبوع ولعل الصواب (حصلوا).

(٢) درة التنزيل ٢٦٣.

وسر ذلك والله أعلم أن السياق في آيات الأنعام والنحل هو عن الدار الآخرة، وليس كذلك السياق في آيات الأعراف.

قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقْفَوْنَ عَلَىٰ النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَٰنَا نَرُدُّ وَلَا نَكْذِبُ ۖ يُحَايَتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٢٧﴾ بَلْ بَدَأَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ٢٨﴾ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يُقْفَوْنَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ قَالَ أَلَيْسَٰ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِهِ اللَّهِ حَقًّا إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَقْتَةً قَالُوا إِنَّا نَحْسَرُنَا عَلَىٰ مَا قَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، وليس الأمر كذلك في آيات الأعراف بل هو في العقوبات الدنيوية لبني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ يَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَزَ ۖ وَلَعَلَّهُمْ يَنْقُوتُونَ ١٦٦﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ١٦٧﴾ فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ١٦٨﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رَبْكُ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَن يَسُوءُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَنَعْفُو رَجِيمٌ ١٦٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمْ ۖ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ١٧٠﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُ الَّذِي أَخَذَهُ ۖ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِّمَّا شِئْنَا أَن لَا يَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ١٧١﴾ [الأعراف].

فلما كان الكلام في آيات الأنعام على الدار الآخرة أكدها باللام، ولما كان الكلام في آيات الأعراف على عقوبات الدنيا لم يؤكد الآخرة باللام، بل أكد سرعة العقاب لأنه عاجلهم في الدنيا فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾.

وكذلك آية النحل فالسياق فيها يتحدث عن الدار الآخرة قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّوْنَ فِيهِمْ ۖ قَالِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مِّلَّةَكَ ظَالِمِينَ ۖ أَنفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ أَنَّا سَلَّمْنَا مَا

كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ لِّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ هُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُم مَّا لَكُمُكَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على الدار الآخرة، فأكدتها باللام بخلاف آية الأعراف^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي...﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل].

فلم يذكر اللام في جواب (لو) في الآية الأولى بخلاف الثانية، وذلك لأن هداية الناس أصعب وأعسر من الإهلاك. فإهلاك الألف وألف الألف ممكن بوسائل الفتك والتدمير والظواهر الطبيعية، ولكن هدايتهم عسيرة، فجاء باللام لما هو شاق عسير ونزعها مما هو أيسر.

ونحوه قوله تعالى: ﴿أَنْ لَوْ شَاءَ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ...﴾ [الأعراف] وهذه نظيرة آية الإهلاك السابقة بخلاف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً...﴾ [الزخرف]. فنزع اللام من الآية الأولى لأن فعلها أيسر من الآية الثانية، فأكد ما هو أعسر وأشق وإن لم يكن على الله شيء عسير.

ونحوه قوله تعالى:

﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ...﴾ [يس].

فإنه أيسر من قوله:

﴿وَلَوْ شَاءَ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَعُوا مُضِيًّا وَلَا

(١) انظر معاني النحو ٣٤٢/١ وما بعدها.

يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ [يَسْ] فالإطعام أيسر من المسخ^(١). فجاء باللام في الموضع الذي تستحقه، ونزعاها من الموضع الذي لا يقتضي ذكرها.

ومن طريف ذلك قوله تعالى:

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّتِي تَشْرَبُونَ ﴿١٨﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿١٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَا فَلَوَلَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ [الواقعة].

فقال في آية الزرع: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ باللام في: (لجعلناه)، وقال في آية الماء: ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أَجَا فَلَوَلَا تَشْكُرُونَ ﴾ فلم يذكر اللام وذلك لسر لطيف وهو أنه ذكر عمل الإنسان في الحراثة والزرع وبذل الجهد فيهما فقال: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۖ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٤﴾ [الواقعة] فإن الزراعة والحراثة تقتضي بذل جهد كبير ليستوي الزرع على سوقه، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر بذل جهد فيه للإنسان بل قال: ﴿ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿١٩﴾ [الواقعة] فأية الزرع ذكر فيها بذل الجهد والعمل، بخلاف آية الماء فإنه لم يذكر فيها شيئاً.

ثم إن الإنسان إذا حرث وزرع وبذل جهداً ومراقبة حتى إذا استوى زرعه على سوقه وحان وقت الاستفادة منه أصبح حُطاماً، كان ذلك أشق شيء عليه لأنه يرى عمله وكذبه وإنفاقه ذهب هباءً وضاع سُدىً، ألا ترى إلى قوله تعالى فيما بعد: ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿١٥﴾ إِنَّا لَمَغْرُمُونَ ﴿١٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿١٧﴾ [الواقعة]. ومعنى (تفكّهون): تندمون على اجتهداكم فيه^(٢) وتذكرون الحرمان بعد التعب، والمغرم: المثقل بالديون.

ثم انظر إلى فداحة الخسارة الاقتصادية بصيرورة الزرع حطاماً وما ينتج عن ذلك من كوارث جسام تحقيق بالبشرية.

(١) انظر معاني النحو - لو.

(٢) تفسير البضاوي ٧١٢.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الماء الأجاج يمكن تحويله إلى ماء عذب بالتقطير أو بغير ذلك من وسائل التحلية فيكون صالحاً للاستعمال والشرب كما نرى الآن في كثير من الأماكن، أما الحطام من الزرع فلا يمكن تحويله إلى حب أو فاكهة يأكل منها الإنسان، فحالة الحرمان والخسارة فيه أكبر. فانظر الفرق بين الحالين.

فوضع اللام في الموضع الذي يقتضيها. جاء في (الكشاف): «إن هذه اللام إنما أدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم... ولهذا قدمت آية المطعوم على آية المشروب»^(١).

يدلك على ذلك أنه حيث اجتمع الأكل والشرب في القرآن الكريم قدم الأكل على الشرب. قال تعالى: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ [الشعراء]. وقال: (كلوا واشربوا) في آيات عدة من القرآن الكريم^(٢) بتقديم الأكل على الشرب، وههنا قدم الحرث والزراعة على الماء، فناسب ذلك إدخال اللام على آية المطعوم دون المشروب.

وجاء في (روح المعاني) نقلاً عن (المثل السائر): «إن اللام أدخلت في المطعوم دون المشروب لأن جعل الماء العذب ملحاً أسهل إمكاناً في العرف والعادة، والموجود من الماء الملح أكثر من الماء العذب. وكثيراً ما إذا جرت المياه العذبة على الأراضي المتغيرة التربة أحالتها إلى الملوحة، فلم يحتاج في جعل الماء العذب ملحاً إلى زيادة تأكيد، فلذا لم تدخل لام التأكيد المفيدة لزيادة التحقيق.

وأما المطعوم فإن جعله حطاماً من الأشياء الخارجة عن المعتاد، وإذا وقع يكون عن سخط شديد. فلذا قرن باللام لتقرير إيجاده وتحقيق أمره. إنتهى»^(٣).

(١) الكشاف ١٩٧/٣.

(٢) انظر البقرة ٦٠، الطور ١٩، الحاقة ٢٤، المرسلات ٤٣.

(٣) روح المعاني ١٤٩/٢٧.

ب - ونحو ذلك إدخال نون التوكيد على الفعل في الموضع الذي يقتضيها وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴾ [البقرة].

وجاء هذا التعبير في الأنعام - الآية ١١٤ وفي سورة يونس - الآية ٩٤. غير أنه قال في سورة آل عمران:

﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴾ [آل عمران].

فأكد الفعل (تكون) في سورة البقرة والأنعام ويونس دون آية آل عمران. وذلك أن المقام يقتضي التوكيد في كل موطن أكد فيه الفعل دون الموطن الذي لم يؤكد فيه. فقد أكد في سورة البقرة لأن المقام فيها في تبديل القبلة وما صحب ذلك من إرجاف وأقاويل وإعلان حرب نفسية على المسلمين حتى ارتد بعض ضعاف الإيمان. قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَنِ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة]. وقال: ﴿ ... وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ... ﴾ [البقرة].

ثم ذكر أن أهل الكتاب لن يتوجهوا إلى قبلة المسلمين مهما جئتهم بالآيات البينات والحجج الواضحة فقال مؤكداً بالقسم: ﴿ وَلَئِنْ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ﴾ [البقرة].

ثم قرر أن هذا هو الحق الذي لا مرية فيه، فاحتاج كل ذلك إلى التوكيد فقال: ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴾.

وأما في آية آل عمران فليس الأمر كذلك فقد قال: ﴿ إِنْ مَثَلْ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران].

ففي آيات البقرة من الإرجاف والفتنة ما ليس في آية آل عمران، فاحتاج المقام في البقرة إلى التوكيد بخلاف آل عمران.

وكذلك السياق في آية يونس فإنه يقتضي التوكيد فقد قال تعالى :

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٩﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس].

فلما قال: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ ﴾ احتاج إزالة الشك إلى التوكيد. ثم انظر إلى المؤكدات في السياق وهي :

١- التوكيد بالقسم وقد في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾.

٢- التوكيد بالنون في قوله: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾.

٣- التوكيد بـ (إن) في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس] فافتضى كل ذلك التوكيد، إذ السياق كله مؤكد.

وكذلك ما جاء في آية الأنعام، فإن السياق فيها في تكذيب الرسول وعدم الإيمان به حتى قال: ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكِ كَكَلِمَتِهِمُ الْمَوْتِ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام].

ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام].

فانظر كيف احتاج السياق إلى توكيد أنه على الحق وأنه عليه ألا يكون من الممترين، فأكد في الموطن الذي اقتضى ذلك بخلاف ما لم يقتض ذلك.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ لَا يَعْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٢٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيُسَ الْهَادُ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ مَا يُجِدِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزِرُكَ تَقْلُبُكَ فِي الْيَلْدِ ﴾ [غافر].

فقد أكد النهي في آل عمران بالنون فقال: ﴿ لَا يَغْزِرُكَ تَقْلُبُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بخلاف آية غافر. وذلك أن المقام في آل عمران يقتضي التوكيد، إذ الآية في سياق ابتلاء المسلمين في أموالهم وأنفسهم والأذى الكثير ينالهم من عدوهم الكافر يبطش بهم ويفتنهم عن دينهم وينال منهم حتى يبلغ به الأمر إلى أن يخرجهم من ديارهم. قال تعالى:

﴿ تَتَّبِعُونَ فِي أُمُورِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ فَأَلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَفَتَلُوا وَقَتَلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ... ﴾ [آل عمران].

فاقتضى ذلك تأكيد عدم الاغترار بتقلب الذين كفروا في البلاد وسيطرتهم عليها، في حين لم يكن السياق في شيء من ذلك في (غافر) فلم يحتاج إلى التأكيد والله أعلم.

ج - ونحو ذلك التأكيد بـ (إن) وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْقَلِبُوا ظَهِينَ ۚ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۚ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَعْرِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿ فَإِذَا أَحْصَيْنَ فَإِنَّ آتِيكَ بِمَحْشَرَةٍ فَعَلَيْنَ نِصْفَ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ نَّصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النساء].

وقوله :

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ عَفْوَراً رَجِماً ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة].

فأنت ترى أنه في الآيات الثلاث لم يؤكد المغفرة بل قال : ﴿وَاللَّهُ عَفْوَراً رَجِماً﴾ في حين قال :

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفْوَراً رَجِماً ﴿١١٩﴾﴾ [البقرة].

وقال :

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفْوَراً رَجِماً ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

بتوكيد المغفرة فيهما فقال : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوَراً رَجِماً﴾.

وذلك أن المقام يقتضي أن يكون كل تعبير في موطنه، وإيضاح أن المقام في آيات آل عمران هو في إذلال الكافرين وكتبهم وقطع طرف منهم حتى قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران] فلا يناسب ذلك توكيد المغفرة.

ومثل ذلك ما جاء في سورة المائدة فإنها في سياق التهديد للذين يقولون : إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ، وقد توعدهم بأنهم إن لم ينتهوا عن القول بذلك فسيمسهم عذاب أليم، ثم دعاهم إلى التوبة عن القول بذاك. فالمقام - كما ترى - مقام التهديد والتوعد وليس مقام توكيد المغفرة.

ونحوه جاء في سورة النساء فهو في سياق إقامة الحد على من يأتي الفاحشة. وأظن أنه من نافلة القول أن نذكر أن هذا ليس مقام توكيد المغفرة

أيضاً، بخلاف آية البقرة الواردة في سياق الحج وفي مناسكه وشعائره فقد قال: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ قَدْ ذُكِّرُوا اللَّهَ﴾.

وأحسب أن الفرق بين هذا المقام وما قبله من المقامات من الوضوح بمكان وأن هذا المقام أولى المقامات بتوكيد المغفرة. وكيف لا وقد أخبر الصادق المصدوق أن: « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، و: «أن الله يباهي الملائكة بأهل عرفة ويشهدهم على أنه قد غفر لهم».

إن أصحاب هذا المقام ذهبوا ليؤدوا فريضة الحج طلباً للمغفرة، وأولئك إما في مقام معصية أو مقام كفر فأَيُّ المقامين أحق بتوكيد المغفرة؟!

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة).

فالمقام هذا مقام الإصلاح وحفظ الموصي من أن يقع في جنف أو إثم. أفترى أن الذي يسعى في هذا لا يستحق توكيد المغفرة؟

وأخيراً وازن بين المقامين اللذين مرّا: مقام المعصية والكفر ومقام الإصلاح هذا وحفظ الحقوق، ثم احكم أيهما ينبغي أن يكون مقام توكيد المغفرة تجد الجواب بيناً شافياً. ثم بعد ذلك انظر أي الكلام هذا؟

د - ومن هذا الباب التوكيد بالحروف الزائدة. فإنه من المعلوم أن ما يسمونه بالحروف الزائدة يفيد التوكيد في الأغلب.

قال تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (فصلت).

وقال: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينَ﴾ (الزخرف).

وقال: ﴿... حَقَّ إِذَا جَاءَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ (الزمر).

فزاد (ما) بعد (إذا) في آية فصلت، وذلك لأن شهادة السمع والأبصار وسائر الجوارح « من المعاني القوية التي لا يقتضيها الشرط الذي هو المعجيء.

الأتري استنكارهم لها حتى قالوا لجلودهم: (لم شهدتم علينا؟) فأجابوا بأن قالوا: ﴿أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، وليس كذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَبْتَأُ أَبْوَابُهَا﴾ لأن المجيء يقتضي فتح الأبواب... وكذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا قَالَ يَلَيْتَ ابْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: قال الآدمي لقرينه من الجن اللذين اشتركا في الدنيا في معصية الله ثم اشتركا في العذاب في الآخرة: ليتني لم أتبعك وكان بعد ما بين المشركين بيني وبينك.

وهذا أيضاً مما يتوقع كونه منهما، ثم يتبرى بعض من بعض فليس في الجزاء ما يوجب قوة الشرط الذي لا يتوقع ولا يستفاد إلا به ومنه^(١).
ثم إن شهادة السمع والأبصار والجلود أمر مستغرب بخلاف فتح الأبواب ونحوه فأكد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْبُ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة ٢٨٢].

زيدت (ما) مؤكدة على الشهداء حضور الشهادة عند الدعوة إليها بخلاف قوله تعالى: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُتِبُوهَ﴾ [البقرة ٢٨٢].

وقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة ٢٨٢].

وذلك أن الشهيد قد يتباطأ أو يتكاسل أو ينكص عن الشهادة لأنه ليست له مصلحة خاصة به أو قد تلحق به ضرراً فاحتاج إلى التوكيد^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج ٦١].

وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف ٢٢].

فقال في آية الحج: (ما ليس به علم) وقال في الزخرف: (ما لهم بذلك من علم) فزاد (من) في آية الزخرف وذلك أن المقامين مختلفان.

(١) درة التنزيل ٤١٧-٤١٨.

(٢) انظر (معاني النحو) ٤/٤٧٨.

فالكلام في آية الحج على من يعبد غير الله، فقد ذكر أن هؤلاء عبدوا ما عبدوا من دون علم ولا معرفة. والتميز بين عبادة الله وغيره لا يحتاج إلى قدر كبير من العلم، فأقل قدر منه يكفي لمعرفة الطريق الصحيح، وأقل قدر من النظر يهدي إليه ويدل على ضرورة ترك عبادة غير الله.

وأما آية الزخرف فالكلام فيها يتعلق بالقدر قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ...﴾ [الزخرف]. والكلام في القدر قد يحتاج إلى قدر كبير من العلم ورسوخ قدم في المعرفة.

فحتى الذين اتفقوا على عبادة الله اختلفوا في القدر اختلافاً كبيراً حتى أنه أثر عن الرسول ﷺ أنه نهى عن الكلام في القدر، فاحتاج الموطن هنا إلى تأكيد العلم بخلاف الموطن السابق، ولذا قال: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ فنفي عنهم أقل العلم وهم يخوضون في هذه المسألة الشائكة، ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ بخلاف الآية الأولى التي ختمها بما ليس له علاقة بالعلم بل قال ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُخْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكُمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد].

فقال في آية الأنعام: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ﴾. وقال في آية البقرة: ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ بزيادة (من) المؤكدة، وكذا في آية الرعد.

وسبب ذلك أن آية الأنعام في الكلام على الذين يخافون أن يحشروا إلى الله ليس لهم من ولي. وهم على كل حال مؤمنون بهذا اليوم ترجى لهم التقوى بخلاف سياق الآيتين الآخرين. فقد ذكر في آية البقرة أن اليهود والنصارى لن ترضى عن الرسول حتى يترك دينه ويتبع ملتهم، وهذا كفر صريح وانسلاخ من الدين، ولذا عقب عليه بقوله: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: إن فعل ذلك ماله من الله من ولي ولا نصير.

فالفرق واضح بين المقامين فاحتاج الكلام في آية البقرة إلى تأكيد نفي الولي والنصير دون آية الأنعام.

وكذلك المقام في آية الرعد.

هـ - وقد يأتي بالفاظ التوكيد المعروفة في المواطن التي تقتضي ذلك، ويتركها في مواطن أخرى تبدو شبيهة بها. فإذا دقت النظر وجدت أنه استعمل كل لفظة في المكان اللائق بها. فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ...﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كُلُّهُ لِلَّهِ...﴾ [الأنفال].

فأكد الدين بلفظ (كل) في الأنفال بخلاف البقرة وذلك لأن القتال في البقرة مع أهل مكة فحسب، أما في الأنفال فمع جميع الكفار ولذا عمم^(١).

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفْتَنُوهُمْ وَآَخِرُهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْلِبُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة] فَإِنْ أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩١﴾ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ

(١) انظر ملاك التأويل ١١٧/١ وما بعدها.

أَنْتَهُوَ فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١١٢﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١١٣﴾ [البقرة].

ألا ترى إلى قوله: ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾، والمسجد الحرام في مكة. ولم يذكر القتال عند المسجد الحرام في سورة الأنفال بل جعله عاماً فقال:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨١﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنْ أُنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [الأنفال].

فلما كان القتال ههنا عاماً عمم الدين فقال: (كله).

ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ «أي من مكة وقد فعل رسول الله ﷺ بمن لم يسلم منهم يوم الفتح»^(١).

هذا ومن ناحية أخرى حصر القتال في سورة البقرة بصد العدوان فقال:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُوكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا بِكُمْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩١﴾﴾ [البقرة]. فلما كان القتال محدوداً باديء ذي بدء لم يأت باللفظة الدالة على العموم بل قال (ويكون الدين لله) بخلاف ما في الأنفال فإنه لم يخص القتال برد العدوان بل أطلقه فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨١﴾ وَقَتِّلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ... ﴿٢٨٢﴾﴾ [الأنفال] فلما أطلقه في الأنفال وعممه، جاء باللفظة الدالة على الشمول وهو لفظ (كل) أي: جميعه. فأنت ترى أن لفظة (كل) في آية الأنفال اقتضاها المقام من ناحيتين:

الأولى: أن القتال في البقرة كان خاصاً بأهل مكة، وفي الأنفال كان عاماً مع أهل الكفر.

(١) الكشف ٢٦٠/١.

الثانية: أن القتال في البقرة مخصوص بصد العدوان وفي الأنفال عام.
فناسب وضع (كل) في الأنفال دون البقرة.

ثم انظر إلى ختام كل من الآيتين فقد قال في ختام آية البقرة: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (١١٣).

وقال في ختام آية الأنفال: ﴿فَإِنْ أَنْتَهُوَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢١) وذلك أنه لما كان الكلام في البقرة على الاعتداء فقال: ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتَنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة) وقال بعدها: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ...﴾ (البقرة) ناسب أن يقول: ﴿فَلَا عُدُونَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

وأما في آية الأنفال فالمقصود أن تكون السيطرة للإسلام، وليس معناه دخول أهل الأديان كافة في الإسلام بحيث لا يبقى أحد منهم على دينه، بل ربما بقي من أهل الملل الأخرى من بقي على دينه في حكم الإسلام فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا كادوا فإن الله بصير بكيدهم.

و - ومن ذلك استعمال ضمير الفصل الذي يفيد التوكيد فتراه يستعمله استعمالاً حسبما يقتضيه السياق والفن.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت).

وقوله:

﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف).

فأكد في سورة (فصلت) بضمير الفصل، وعرف السميع العليم فقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، وترك ذلك في سورة الأعراف. هذا وإن سياق كل من الآيتين يقتضي التعبير بما عبر به فقد قال في سورة فصلت:

﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
 وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٢١) وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٣﴾ [فصلت].

وقال في سورة الأعراف:

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١١٩) وَإِنَّمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ
 فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ [الأعراف].

فأنت ترى أنه طلب في سورة فصلت أن يقابل السيئة بالحسنة، وهذا أمر
 شاق على النفس، فإن عادة الناس أن يقابلوا السيئة بمثلهما، فإذا أرادوا أن
 يحسنوا عفوا عن المسيء. أما أن يقابلوا السيئة بالحسنة فذلك أمر شاق على
 الإنسان عسير عليه، فإن الشيطان يحث على الانتصار للنفس والأخذ بالحق
 ويشطه عن الإحسان إلى المسيء ولذا قال: ﴿ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا
 إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

وأما في سورة الأعراف فقد أمر بالإعراض عن الجاهلين، وهو أيسر
 من الإحسان إلى من أساء إليك. ولذا أكد وعرف في سورة فصلت فقال:
 ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وترك ذاك في سورة الأعراف. فوضع كل تعبير في
 المكان الذي يقتضيه.

جاء في (درة التنزيل): « لسائل أن يسأل عن التوكيد في سورة حم السجدة
 في قوله: ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ وتعريفه الصفتين بالألف واللام وترك
 التوكيد بقوله هو وترك^(١) التعريف في: سميع عليم من الأعراف.

والجواب أن يقال: إن الذي في سورة السجدة لما كان بعد دعاء إلى ما
 يشق على الإنسان فعله وهو أن يدفع السيئة بالحسنة ويقابل غلظة عدوه بالملاينة
 استكفافاً لشره وأذاه، حتى يعود إلى اللطف في المقال والجميل من الفعل
 فيصير وإن كان عدواً كأنه صديق قريب القربى، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ
 صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

(١) في المطبوع (وهو ترك) وما ذكرناه أشبه بالصواب.

صَبْرُوا وَمَا يُقْلِنَهَا إِلَّا ذُو حَقِّ عَظِيمٍ ﴿٢٥﴾ ... فلما كان الأمر الذي بعث الله تعالى أوليائه شاقاً عظيماً حتى قال: ﴿وَمَا يُقْلِنَهَا إِلَّا ذُو حَقِّ عَظِيمٍ﴾ كانت وسوسة الشيطان في مثله أعظم والمؤمن لها أيقظ ...

وأما الآية التي في سورة الأعراف فإن قبلها: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف] ولم تعظم فيها الأفعال التي دعا إليها كما عظمت في سورة السجدة، بل كان ما هناك بعثاً على أحسن الأخلاق ولم يخص نوعاً من المشاق كما خص في سورة السجدة، فلم تقع المبالغة في اللفظ واقتصر في الخبر على الأصل وهو أنه: «سميع عليم»^(١). ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان].

فأنت تلاحظ تشابه الآيتين إلا في وجود ضمير الفصل في آية الحج (هو الباطل) وخلوها منه في آية لقمان (الباطل). وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك.

فآية الحج واقعة في سياق الصراع مع أهل الباطل ومجاهدتهم أشق أنواع الجهاد. ويبدأ الصراع بعد ذكر الأمم السالفة وتكذيبهم لرسولهم بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج].

إلى أن يقول: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [الحج].

وهذا من نتائج الصراع، الهجرة من الديار والأرض والقتل والموت. فهنا أنصار الباطل ساعون لإطفاء نور الله معاجزون معاندون.

ولا تجد مثل هذا في سورة (لقمان) وإنما هو عرض لأصحاب الباطل من وجه آخر ليس فيه هذا الصراع قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان].

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۖ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١٢] نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١١﴾ وَلَٰكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ أَلَيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي أَلَيْلٍ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [٢١] ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [لقمان].

فأنت ترى أن السياق مع أهل الباطل هنا يختلف. فهم في الصورة الأولى ساعون معاجزون معاندون مصارعون متمكنون في الأرض نتيجة هجرة المؤمنين أو قتلهم أو موتهم، فاحتاج الأمر إلى زيادة تثبيت المؤمنين وعدم افتتانهم بسلطة أصحاب الباطل وتمكنهم من رقاب الناس فإن للسلطان فتنة ورهبة. فافتضى السياق تأكيد أن ما هم عليه هو الباطل.

وأما الآية الثانية ففي سياق الجدل العقلي والمحاجة بين الفريقين، وليس فيها ذكر لصولة الباطل وبطشه.

فلم يقتض السياق ما اقتضاه في الآية الأولى من التوكيد. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى أنه لما تقدم في سورة الحج ذكر ما يدعون من دون الله من المعبودات الباطلة فقال: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [١٢] يَدْعُوا لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لِمَنِ الْمَوْلَىٰ وَلِمَنَ الْعَشِيرُ﴾ [١٣] [الحج].

ولم يتقدم مثل ذلك في (لقمان) أكد ذلك في الحج. جاء في (ملاك التأويل): « أن سورة الحج ورد فيها ما يستدعي هذا التأكيد بالضمير

المنفصل، ويناسبه وهو تكرر الإشارة إلى آلهتهم والإفصاح بذكرها تعريفاً بوهن مرتكبهم وشنيع حالهم. وأوضح هذا التكرار وأشدّه ملاءمة الإتيان بهذا الضمير المعتد فصلاً أو مبتداً قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج] وقوله في آخر السورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج] هذه الآية والتي ذكرنا قبلها أنسب شيء لقوله ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطِلُ﴾ [لقمان] (١).

فانظر رعاك الله سمو هذا التعبير ورفعته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ السَّابِقِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

وقوله:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة].

فقد جاء في الآية الثانية بضمير الفصل: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ دون الآية الأولى وذلك لجملة أسباب منها:

١- أنه ذكر في الآية الثانية زيادة على الجنات ما هو أكبر منها، ألا وهو رضوان الله تعالى قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر من الجنات وملذاتها ونعيمها. فلما زاد ذلك زاد في توكيد الفوز.

ثم انظر كيف عدل عن قوله: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فجاء بالجملة الإسمية الدالة على الثبوت

والتي هي أقوى من الفعلية وآكد، فناسب كل ذلك تأكيد الفوز وعظمه.

٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه زاد على الجنات ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن فقال: ﴿وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ فقد ذكر الجنة وذكر علاوة على ذلك المساكن الطيبة، فناسب ذلك أن يزيد في تأكيد الفوز.

٣- ومن ناحية أخرى أنه ذكر (من) في الآية الثانية دون الأولى فقد قال: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ وقال في الآية الأولى: ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ومعنى (من) هنا الابتداء أي: أن الأنهار تتفجر من تحتها وهذه الحالة أكمل من الحالة الأولى فإنه قال فيها: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فإنه ذكر أن الأنهار تجري تحتها، وليس بدء الجريان منها، فناسب كل ذلك زيادة ضمير الفصل لتأكيد الفوز وعظمته. فسبحان الله العظيم، ما أجل هذا الكلام وما أعظمه وما أفخمه!

ثم انظر إلى دققة أخرى في هذا التعبير، وهو أنه حيث ذكر الجنات في القرآن قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بذكر (من) إلا في هذا الموضع فقال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ قيل: وسبب ذلك أنه حيث ورد ذكر الجنات ووردت (من) معها كان الكلام عاماً لعموم المؤمنين الذين فيهم الأنبياء والرسل وغيرهم ففيهم من هو أعلى منزلة من المذكورين في آية (السابقين). أما آية (السابقين) فهي مخصوصة بهم، فناسب ذلك أن يزيد (من) لأن فيهم من هو أعلى منهم.

جاء في (درة التزيل): أن «الذي أخبر عنهم بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار الأنبياء وغيرهم صلوات الله عليهم. و (من) لإبتداء الغاية، والأنهار أشرف مبادئها، والجنات التي مبادئها الأنهار من تحت أشجارها أشرف من غيرها. فكل موضع ذكر فيه (من تحتها) إنما هو لقوم عام فيهم الأنبياء. والموضع الذي لم يذكر فيه (من) إنما هو لقوم مخصوصين ليس فيهم الأنبياء. ألا ترى إلى قوله في سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُتَجَرِّبِينَ وَالْأَنْصَارِ

وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ يَلْحَسَنَ رَضَى اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا... ﴿٥٥﴾ [التوبة].

إذ لا موضع في القرآن ذكرت فيه الجنات وجري الأنهار تحتها إلا وقد دخلتها
(من) سوى الموضع الذي لم ينطق ذكر الموعودين فيها على الأنبياء عليهم
السلام. فهذا الكلام في (من تحتها). اعتبروا بما ذكرت في جميع القرآن^(١).
ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران].

وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [الزخرف].

فزاد ضمير الفصل في آية الزخرف دون الآيتين الأخريين، وذلك أن آية
الزخرف قيلت في سياق عبادة عيسى وإتخاذه إلهاً بخلاف غيرها، فناسب ذلك
تأكيد ربوبية الله له. جاء في (ملاك التأويل): «وأما زيادة الضمير الفصلي في
سورة الزخرف فيحرز مفهومه معنى ضرورياً دعا إليه ما تقدم في الآية قبله.
وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ
يَصُدُّونَ﴾ [الزخرف] إلى ما يتلو هذه. ففي التفسير أنه لما نزل قوله تعالى:
﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا
وَرِدُّونَ﴾ [الأنبياء] تعلق بها الكفار وقالوا: قد عبدت الملائكة وعبد
المسيح وأنت يا محمد تزعم أن عيسى نبي مقرب وأن الملائكة عباد مقربون،
فإذا كان هؤلاء مع آلهتنا في النار فقد رضينا. وجادلوا بهذا فأنزل الله تعالى:
﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء]... فلما
كان تقدم في سورة الزخرف ذكر آلهتهم وقولهم: (آلهتنا خير أم هو)
يعنون المسيح ناسبه ما أعقب به من قوله حاكياً عن المسيح عليه السلام:

(١) درة التنزيل ١٠٢-١٠٣.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾... فأحرز هذا المعنى. ولم يرد في آية آل عمران وآية مريم من ذكر آلهتهم ماورد هنا، فلم يحتاج إلى الضمير المحرز كما ذكرنا^(١).

٢- وقد يستعمل طريقة أخرى للدلالة على التوكيد وهي أن يختص حرفاً بالدلالة على التوكيد دون نظيره، وذلك كاستعمال الهمزة وهل واستعمال حروف النفي فهو يستعمل (هل) للتوكيد دون الهمزة، ويستعمل (ما) للتوكيد دون (ليس)، ويستعمل (إن) أكد من (ما) بطريقة فنية عجيبة.

فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]

وقوله:

﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١٠]

وقوله:

﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢٢]

وقوله:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣]

فاستعمل الهمزة و (هل) مع الفعل (نبا)، وعند النظر في الاستعمالين نرى أنه استعمل (هل) لما هو أقوى وأكد في الاستفهام، ويبين ذلك السياق.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِيَ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ تَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٧٢]

فاستعمل الهمزة.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن

(١) ملاك التأويل ١/ ١٦٣-١٦٤.

فَبِكُفْرِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ ۖ إِنَّمَا أَنْتُمْ بِإِلَٰهِنَا أَنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ۖ وَإِنْ أَكْذَرُكُمْ فُلْسِفُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ ۚ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرَّةَ ۖ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ ۚ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ [المائدة].

فاستعمل (هل).

والفرق واضح بين السياقين، فأنت ترى أن في السياق الثاني قوة وتبكيًا لا تجده فيما قبله. فذكر أن الكفار اتخذوا الدين والنداء والصلاة هزواً ولعباً. وقد وصفهم بالفسق وعدم العقل، وأنهم لعنهم الله وغضب عليهم ومسح منهم قرده وخنازير وأنهم عبدوا الطواغيت. ثم قال (أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل). ويمضي في تبكيتهم ووصفهم بأقبح الوصف.

وليس الأمر كذلك في الآية التي قبلها، ولذا جاء في الأولى بالهمزة: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ﴾ وفي الثانية بهل: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ؟﴾.

ونحوه ما جاء في آية الشعراء ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١١٦﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ ﴿١١٨﴾ [الشعراء].

إلى أن يقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿١٢١﴾ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿١٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿١٢٣﴾ [الشعراء].

فأنت ترى في السياق قوة وشدة بالغة في الرد على الكفرة المفترين فاستعمل لذلك (هل).

ونحوه ما جاء في سورة (الكهف) فقد قال:

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ ﴿١٠١﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠٢﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعِزَّنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ تَرَا ۚ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ۖ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ [الكهف].

فإن قوة التبكيت وشدة التقريع واضحة في السياق، فاستعمل لذلك (هل) ولم يستعمل الهمزة.

وكذلك استعمال (إن) و (ما) النافيتين فيستعمل (إن) لما هو أكد، فمن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءَهُكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام].

وقوله :

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَلِيِّهِ أُفٍّ لَكُمَا أَنْتَ دَانِيٌّ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَفِغِيَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنَ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأحقاف].

فقال في الآية الأولى : ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وقال في الثانية : ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾. والأولى أكد يدل على ذلك السياق فقد قال فيها :

١- وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه.

٢- وفي آذانهم وقراً.

٣- وذكر أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها.

فأنت ترى أن درجة التكذيب أشد مما في الآية الأخرى، لأن الصفات التي تستدعي قوة التكذيب والإنكار كانت في المكذبين الأولين أشد وأكثر، ولذلك أكد النفي فيها بـ (إن) بخلاف الثانية.

وقال تعالى :

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢١﴾﴾ [البجائية].

وقال :

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لِيَئْسَ إِذَا

لَخَسِرُونَ ﴿٢٦﴾ أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٧﴾ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ [المؤمنون].

فقال في الآية الأولى: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وقال في الثانية: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾.

وواضح أن التكرار في الآية الثانية أشد وأقوى من وجوه:

١- فقد أسند التكذيب والإنكار في الآية الأولى إلى ضمير الكفرة: (وقالوا).
وأما في الثانية فقد أسنده إلى الكفرة صراحة مضيفاً عليهم صفات تزيد في تكذيبهم وإنكارهم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاتِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَنَّهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾.
فهذه صفات تزيد في قوة التكذيب بخلاف الآية الأولى التي قال فيها: (وقالوا).

٢- المجادلة في صدق الرسل: فقد ذكر هؤلاء الكفرة أن الرسل إنما هم بشر مثلهم يأكلون كما يأكل الناس ويشربون كما يشربون فلا ينبغي أن يطاعوا البتة.

٣- السخرية من الوعد بالحياة الأخرى: ﴿أَعِدُّوا أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنَّكُمْ تُخْرَجُونَ﴾.

٤- الاستبعاد المؤكد في قولهم: ﴿هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾.

٥- ثم ختموا تكذيبهم وإنكارهم بقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

فكان طبعياً أن يكون إنكارهم أشد وأكد مما في الآية الأولى، ولذا جاء بيان وإلا وهو المناسب للسياق بخلاف الآية الأخرى، فإنه جاء بما وإلا لأنه أقل تأكيداً وقال تعالى:

﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾﴾ [الاحقاف].

وقال:

﴿ قَالُوا اتَّوَمْنَا لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْضْلُونَ ﴿١١٦﴾ قَالَ وَمَا عَلِيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٩﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَهِ يَنْتُحِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١٢١﴾ قَالَ رَبِّ إِنْ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١٢٢﴾ فَأَفْنِ يَدَيَّ وَيَنْتَهِمْ فَتَحًا وَيَجْئِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٣﴾ فَأَفْجِنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَائِكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٢٤﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٥﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الشعراء].

فقال في الآية الأولى: ﴿ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾.

وقال في الثانية: ﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴾.

ومن الواضح أن الآية الثانية في مقام المحاربة والمجادلة والجهاد في القول والتنقيص من المؤمنين، بخلاف الآية الأولى فإنها في مقام الدعوة الهادئة المبينة بالحجة. يدل على ذلك في الآية الثانية:

١- وصفهم المؤمنين بالارذلين.

٢- طلبوا طردهم فردّ عليهم بقوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

٣- تحذيرهم نوحاً والطلب إليه الكفّ عن الدعوة وإلاّ رجموه (لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين).

وأنت ترى أن المقام في الآية الأولى يختلف عنه في الثانية فجاء في الثانية بيان وإلاّ وجاء في الأولى بما وإلاّ^(١).

٣- وقد يستعمل طريقة أخرى للتوكيد وهي تكرار اللفظ الذي يريد توكيده، وذلك حسبما يقتضيه موطن الكلام وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران].

(١) انظر معاني النحو - باب الاستفهام وباب النفي.

وقوله:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران].

فلم يكرر لفظ الطاعة . في حين قال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ...﴾ [النساء].

وقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة].

وقال:

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [النور].

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد].

وقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن].

فكرر لفظ الطاعة فقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

والملاحظ أن ما لم يتكرر فيه لفظ الطاعة مع الرسول فالسياق فيه الله وحده، ولم يذكر فيه لفظ الرسول ولا أية إشارة إليه، فمن ذلك ما جاء في (آل عمران - ٣٢) فقد ذكر أن الأمر كله لله ويده قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١١] **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرِزُّ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران].**

وقال: ﴿وَيَحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران].

وكرر هذا المعنى فقال:

﴿وَيَحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران].

إلى أن ذكر الآية الكريمة. فأنت ترى أن المقام مختص بالله وحده فذكر طاعة الله وجعل طاعة الرسول تبعاً لها.

وكذلك آية آل عمران ١٣٢ فلم يكرر فيها لفظ الطاعة فقد قال قبلها:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران].

في حين كرر لفظ الطاعة في الآيات الأخرى لأن السياق يقتضيها - ففي آية النساء ٥٩. جعل طاعة الله وطاعة الرسول أصلية ليفصل بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر، فهما ليستا بنفس المنزل ثم قال: (فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول) فالرسول مرجع للفصل بخلاف أولي الأمر. ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ [النساء].

فقد جعل الرسول مرجعاً كالقرآن، ثم قرر حكماً ثابتاً فيما بعد فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ...﴾ [النساء].

فأنت ترى أن المقام ههنا مقام تبيان طاعة الرسول فكررها لما كان السياق يقتضيها. وكذلك ما جاء في سورة النور الآية ٥٤، فقد تكرر ذكر الرسول وذلك قوله:

﴿أَمْ يَحْفَظُونَ أَنْ يَحِفَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ أَوْ لِيُطَاعَ هُمْ الْظَالِمُونَ﴾ [النور].
﴿إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور].
﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَحْفَظْ أَمْرًا لِيُطَاعَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور].

ثم انظر كيف قال فيما بعد: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور].

فجعل طاعة الرسول مقترنة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة. فأنت ترى أن السياق يؤكد لفظ طاعة الرسول.

وكذلك ما جاء في سورة محمد - الآية ٣٣ فقد ورد لفظ الرسول وطاعته وعدم مشاقته فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾. وكذلك ما جاء في التغابن فقد ختمها بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن]. هذا وإن كل آية ختمت بمثل هذا التعقيب كرر فيه لفظ الطاعة للرسول. فانظر دقة هذا التعبير وسُمُوهُ.

ونحوه قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ [هود].

فقد قال في آية الأعراف: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾، وقال في هود: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ فزاد: (هم) للتوكيد، وذلك لما زاد على الأولين افتراء الكذب على الله. فقد قال في الأعراف:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١٤] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ [١٥] وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ... [١٦] [الأعراف ٤٤ وما بعدها].

وقال في هود: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [١٧] الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ [١٨] أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ [هود].

فقد ذكر في الأعراف من صفات الظالمين أنهم يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً. وذكرها في هود وزاد عليها افتراء الكذب على الله فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾. ثم ذكر أن الأشهاد يقولون أمام الخلق: ﴿هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

فلما زاد في صفات الضلال أكد فيهم صفة الكفر بزيادة (هم)، وزاد لهم في العذاب فقال (يضاعف لهم العذاب)، وزاد في صفة الخسران فقال (هم الأخسرون).

فانظر إلى جلال هذا التعبير وسموه.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر].

فذكر الباء مع الزبر والكتاب المنير في آية فاطر، ولم يذكرها في آية آل عمران، ذلك أن هذا التكرار يفيد التوكيد، والمقام في (فاطر) يقتضي هذا التأكيد إذ هو في مقام الإنذار والدعوة والتبليغ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [١٨] وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ [فاطر].

فلما كان المقام مقام إنذارٍ وتبليغٍ كرر الباء فقال: ﴿يَالْبَيِّنَاتِ وَيَا زُبَيْرُ
وَيَا لِكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾. لأن هذه هي كتب الإنذار والدعوة و التبليغ.

وليس المقام في آل عمران مقام تبليغ وإنذار بل هو كلام عام وذكر حوادث
تاريخية معينة. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آلَا تَوٰمِنَ لِرَسُولٍ
حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَالْبَيِّنَاتِ وَيَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ
قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا يَالْبَيِّنَاتِ
وَالزُّبَيْرِ وَٱلْكِتٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾﴾ [آل عمران].

فلما لم يكن المقام كذلك لم يكرر الباء في وسائل الدعوة وكتبها إذ ليس
المقام يقتضي ذلك.

ومما يقتضي التوكيد أيضاً في (فاطر) قوله تعالى: (وإن يكذبوك) بصيغة
المضارع فإن هذا مما يفيد استمرار التكذيب بخلاف ما في آل عمران، فقد
قال: (وإن كذبوك). فإن في آية فاطر من الاستمرار على التكذيب ما ليس في
آية آل عمران، فاقضى التوكيد، ولذا عقب بعد ذلك بقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ
كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

وقد تقول : ولم ورد الفعل بصيغة المضارع في (فاطر) وبصيغة الماضي
في آل عمران؟

والجواب: أن التكذيب في سورة آل عمران منصب على ذكر حادثة
تاريخية معينة، هي الآية التي ذكرناها أعني قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ
عٰهَدَ إِلَيْنَا... الآية﴾.

وأما في (فاطر) فالكلام في سياق الهداية والاستجابة فالمقام مقام تبليغ
الرسالة ومقام الدعوة. فلما كان المقام في آل عمران تعقيباً على أمر تاريخي
انقضى وحادثة معينة ذهبت، جاء بالفعل على صيغة الماضي فقال: (وإن كذبوك).

ولما كان المقام في الثانية مقام إنذار وتبليغ ودعوة قال: (وإن يكذبوك)
بصيغة الفعل المضارع الدال على التكرار والاستمرار لأن الدعوة مستمرة
والتبليغ والإنذار مستمران متكرران. فجاء لكل مقام بما يناسبه.

ومما يقتضي التأكيد في (فاطر) أيضاً ذكر تاء التأنيث دون آية (آل عمران) فقد قال في (فاطر): (جاءتهم رسلهم) بذكر التاء مع الفعل (جاءتهم) وقال في آل عمران: (فقد كذب رسل من قبلك) بدون تاء فلم يقل: (فقد كذبت). وذكر التاء في مثل هذا الموطن كما هو معلوم يفيد الكثرة، فاقضى ذلك التوكيد في فاطر لكثرة المكذبين دون آل عمران.

وقد جاء في (البرهان) للكرماني وغيره أن سبب الاكتفاء بباء واحدة في آل عمران وذكر ثلاث باءات في فاطر أن الكلام في آل عمران وقع في كلام مبني على الاختصار والاكتفاء فيه بالقليل عن الكثير، ومن ذلك أن الفعل الذي جاء في جواب الشرط مبني للمجهول ولم يسم فاعله^(١).

وهذا سبب آخر يضاف إلى الأسباب التي ذكرناها، فإن التفصيل واضح في آية فاطر بخلاف آية آل عمران. ومما يدل على ذلك:

١- بناء الفعل للمجهول في آية آل عمران (كُذِّبَ) في حين ذكر الفاعل في آية فاطر فقال: (فقد كذب الذين من قبلهم).

٢- قوله في فاطر: (جاءتهم رسلهم) بذكر الفاعل ظاهراً في حين قال في آل عمران: (جاؤوا) بالضمير، فالتفصيل في فاطر أكثر وأوضح.

٣- ذكر الباء مع كل معطوف في (فاطر) (بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) وحذفها في آل عمران، مما يدل على مقام التفصيل في (فاطر) ومقام الاختصار في آل عمران.

٤- صيغة الفعل في (فاطر) أطول مما هي في آل عمران فقد قال في (فاطر): (وإن يكذبوك) وقال في آل عمران: (وإن كذبوك).

كل ذلك مما يدل على مقام الإطالة والتفصيل في فاطر دون آل عمران، فدل على أن تكرار الباء في (فاطر) أليق.

(١) انظر البرهان ١٢٤-١٢٥، درة التنزيل ٧٥.

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته، فإن كلاً من مقامي التفصيل والتوكيد يقتضي تكرار الباء، فكيف بهما إذا اجتماعا فانظر أي كلام هذا؟
ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ... ﴾ [البقرة].

فكرر (على) مع السمع. جاء في (الكشاف): « فإن قلت: أي فائدة في تكرير الجار في (وعلى سمعهم)؟

قلت: لو لم يكرر لكان انتظاماً للقلوب والأسماع في تعدية واحدة. وحين استجد للأسماع تعدية على حدة كان أدل على شدة الختم في الموضعين »^(١).

٤- وكما يؤكد القرآن التعبير قد يخففه إذا اقتضى المقام ذلك، وذلك كأن يأتي بـ (إن) المخففة ونون التوكيد الخفيفة للدلالة على تخفيف التوكيد حسبما يقتضيه السياق ومقتضى الحال فمن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

﴿ قَالُوا تَأَلَّوْا لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴾ [يوسف].

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف].

وهذا الكلام قاله أخوه يوسف والكلام موجه في الآية الأولى إلى أخيهم يوسف وفي الثانية إلى أبيهم.

وأنت ترى أن إخوة يوسف قالوا لأخيهم: (وإن كنا لخطئين) بـ (إن) المخففة، وقالوا لأبيهم: ﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ بالمشددة. وقد يتبادر إلى الذهن أنه كان ينبغي أن يكون التعبير بالعكس، فإنهم مع من أسأوا إليه إساءة مباشرة - أعني يوسف - كان عليهم أن يأتوا بـ (إن) المشددة للدلالة على زيادة التوكيد بخلاف التعبير مع أبيهم. غير أنك إذا أنعمت النظر وجدت الطريقة

التي استعملها القرآن هي المثلى. فإن إخوة يوسف لما رأوا أباهم وما حل به من جراء فعلتهم من الوهن واللوعة وحرقة الفؤاد وذهاب عينيه من الحزن، دعاهم ذلك إلى تأكيد الاعتذار والاعتراف بالخطيئة، بخلاف حالة أخيهم فإن الله أكرمه بعدهم وبوأه مكانة عالية ومكن له في الأرض، وكأن فعلتهم تلك عادت عليه بالخير والرفعة، بعكس ما جرت على أبيهم، فهناك فرق بين الحالتين، فكان الشعور بالخطيئة مع والدهم أكبر وأعظم فقالوا ما قالوا.

والذي يدل على ذلك السياق القرآني، فإن يوسف دعا لهم بالمغفرة من دون أن يسألوها منه ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. وأما أبوه فلم يستغفر لهم مع طلبهم الاستغفار منه، وإنما وعدهم بالاستغفار: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (١٧) ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١٨) [يوسف] فوعدهم بالاستغفار في المستقبل. ثم انظر كيف جاء بـ (سوف) لا بالسين، و(سوف) أبعد في الاستقبال من السين مما يدل على عمق الأثر في نفسه.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٦) ﴿قَالَ يَنْفُورُ لَيْسَ بِسَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٧) ﴿أَتِلْغَمُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (١٨) [الأعراف].

وقوله:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٨٩) ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِن نُّظَنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (١٩٠) ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (١٩١) ﴿قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٩٢) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٩٣) [الشعراء].

فأنت ترى أنه قال في سياق آيات الأعراف: (وإننا لنظنك من الكاذبين) وفي سياق آيات الشعراء: (وإن نظنك لمن الكاذبين). ويظهر سياق الآيات أن

التكذيب في آيات الأعراف أشد منه في آيات الشعراء، والذي يوضح ذلك أنه في آيات الأعراف قال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ بخلاف آيات الشعراء فإنه قال: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾.

وأنت ترى الفرق بين القائلين ففي الآيات الأولى قول الملأ الذين كفروا. والقائلون في الآيات الثانية مختلطون، فإن فيهم الشديد التكذيب والقليل والإمعة والخائف، فهو تكذيب مختلط لا يصل إلى تكذيب الذين كفروا خصوصاً. والذي يدل على ذلك قوله تعالى بعد آيات الشعراء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن فيهم قلة مؤمنة، فهو نسب الكلام في آيات الشعراء إلى أصحاب الأيكة عموماً، بخلاف آيات الأعراف فإنه نسب الكلام إلى الذين كفروا خاصة.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى وكيف تعقب الرسول كلام قومه بعد كل من الآيتين يتبين لك ما ذكرته واضحاً، فإن هوداً عليه السلام رد على قومه بآيات عدة: ﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف] بخلاف آية الشعراء فإنه لم يزد على قوله: ﴿قَالَ رَبِّيَ عَلَّمَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. ومن هنا يتبين الفرق واضحاً بين التعبيرين^(١).

ومن ذلك قوله تعالى على لسان امرأة عزيز مصر في يوسف:

﴿وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِي لَيْسَ جَنًّا وَلَكِنْ كُنَّا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف].

فقال: (ليسجنن) بنون التوكيد الثقيلة ثم قال: ﴿وَلَكِنْ كُنَّا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ بتخفيف النون: قالوا وذلك «أن امرأة العزيز كانت أشد حرصاً على سجنه من أن يكون صاعراً»^(٢) فزاد نوناً حيث اقتضى المقام زيادة التوكيد، وخفف حيث اقتضى تخفيفه.

٥- وكما يخفف التوكيد قد يزيد فيه إذا اقتضى الكلام ذاك. جاء في (الإتقان): «ويتفاوت التأكيد بحسب قوة الإنكار وضعفه كقوله تعالى حكاية عن رسل

(١) انظر معاني النحو ١/ ٣٧٥ وما بعدها.

(٢) حاشية الصبان ٣/ ٢١٢ وانظر التصريح ٢/ ٣٠٢.

عيسى إذ كُذِّبُوا في المرة الأولى: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ فأكدوا بياناً وإسمية الجملة. وفي المرة الثانية: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين في الإنكار حيث قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾^(١).

يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾^(١٢) إذ أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمْ اثْنَتَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِالشَّيْءِ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ^(١٣) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ^(١٤) قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ^(١٥) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ^(١٦) [يس].

فأنت ترى أن التكذيب والإنكار في المرة الثانية كان أشد من المرة الأولى إذ قالوا: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾^(١٥) وهددوهم بالرجم إن لم ينتهوا عن دعوتهم: ولذا كان الرد في المرة الثانية أقوى، ففي المرة الأولى قالوا: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ﴾ وفي المرة الثانية قالوا: ﴿رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فأكد بالقسم وإن واللام.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَقْفِرْ لِي وَتَرَحَّمْ عَلَيَّ أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٧) [هود]. بدون توكيد.

وقوله:

﴿وَلِنْ لَمْ تَقْفِرْ لَنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٨) [الأعراف] بتوكيد الجواب.

وقوله:

﴿لَيْنَ لَمْ تَرَحَّمْنَا رَبَّنَا وَيَقْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١٩) [الأعراف]

بتوكيد الجواب وباللام الموطئة قبل الشرط.

فالثالثة أكد من الثانية، والثانية، أكد من الأولى وذلك حسبما يقتضيه السياق.

(١) الإتيان ٦٤-٦٥ وانظر الإيضاح ١٨/١.

قال تعالى في سياق الآية الثالثة: ﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف].

وهذا في بني إسرائيل بعدما عبدوا عجل الذهب واتخذوه إلهاً لهم، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولذلك عند توبتهم أكدوا قولهم باللام الموطئة زيادة على تأكيد الجواب: ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وأما الآية الثانية التي هي: ﴿وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف] فهي على لسان آدم وزوجه بعدما أكلا من الشجرة التي نهاهما ربهما عنها.

وهذه المعصية أقل من معصية بني إسرائيل، فإن معصية قوم موسى كفر لأنه عبادة لغير الله، ولم يفعل ذلك آدم بل هو مقر بربوبية الله ومقر بعبوديته لربه، وإنما هي لحظة ضعف أدركته كما تدرك الكثير من الناس من غير أن تخرجهم عن دينهم ثم يتوبون عنها. ألم تر كيف وصف بني إسرائيل بالضللال فقال: ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ ولم يصف آدم بذلك. فلما كانت المعصية أقل حذف اللام الموطئة التي تفيد التوكيد.

فالأول أكد لأن المعصية أكبر. فالتوبة وطلب المغفرة يكونان على قدر المعصية.

وأما الآية الثالثة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود]. فهي على لسان نوح عليه السلام، وذلك أنه سأل ربه أن ينجي ابنه من الغرق، لأن الله وعده أن ينجي معه أهله فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَبْتِي مِنْ أَهْلِي وَإِنْ وَعَدَكَ الْحَقُّ...﴾ [هود] فقال الله له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَلِمْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود].

فطلب نوح من ربه المغفرة والعفو لسؤاله هذا فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود] فهذا ليس بمعصية كمعصية آدم، وإنما فهم نوح أن ابنه يدخل مع أهله الناجين، فبين الله أنه ليس من أهله لأنه كافر، فطلب من ربه المغفرة لما سأل، ولذلك لم

يأت الكلام مؤكداً. فأنت ترى أن التوكيد يتناسب وقدر المعصية. فلما لم يكن سؤال نوح معصية لم يؤكد كلامه. ولما كان فعل آدم معصية لربه أكدّه بالنون. ولما كان فعل بني إسرائيل كفراً وضلالاً أكدّه بالنون وباللام الموطئة، فالخسران إنما يكون على قدر المعصية ولا شك.

ثم ألا ترى كيف قدم الرحمة على المغفرة مع بني إسرائيل: ﴿لَئِنْ لَّمْ يَرَحْمَنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بخلاف الآيتين الأخريين، فإنه قدم المغفرة على الرحمة، وذلك لأن الرحمة أعمُّ وأوسع من المغفرة فإن الرحمة لعموم الخلق حتى البهائم. ويدخل في رحمة الله المؤمن والكافر فكلهم يعيشون في رحمة الله. فالبهائم تعيش برحمة الله، والبهائم تتراحم فيما بينها، ولا يصح وصفها بالمغفرة فإذا طرد أحد من رحمة الله فلا مطعم له في شيء بعد. فالمغفرة تأتي بعد الرحمة وهي رحمة خاصة بالمؤمن فالرحمة تأتي أولاً ثم المغفرة، فمن لم يرحمه ربه لا يغفر له. ومن غفر له كان مرحوماً، وليس كل مرحوم مغفوراً له، فالخلق كلهم في رحمته. ولذا قدم هؤلاء الذين كفروا وضلوا الرحمة على المغفرة، فهم كانوا أحقاء بأن يتردوا من رحمة الله إذا ما بقوا على ذلك، ولذا طلب هؤلاء الرحمة أولاً ليكونوا كعموم الخلق الداخلين في رحمته ثم المغفرة فيما بعد. وهذا يتناسب مع كبر معصيتهم، فإنهم حذروا أن يؤيسهم ربهم من رحمته، فأرادوا أن يشملهم ربهم برحمته ليكون ذلك مرقاة إلى المغفرة، بخلاف الآيتين السابقتين فليس الأمر فيهما كذلك^(١).

فانظر إلى فخامة هذا الكلام وعظمته.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(١٦) لَمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَكِيمُ^(١٧) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

(١) انظر (معاني النحو) ٤/ ٥٦٠ وما بعدها.

سَحَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجَرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ [الحج].

وقوله:

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان].

وقوله:

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت].

فقد قال في آية الحج: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج] وقال في لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان]. فأكد الغنى في الحج أكثر مما في لقمان، إذ زاد اللام فيها فأدخلها على (هو). وذلك أنه ذكر في سورة الحج من نعمه على خلقه وألطافه بهم ما لم يذكره في لقمان، وفصل في الغنى في سورة الحج ما لم يفصله في لقمان فقد قال: ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...﴾ [الحج] بتكرار الاسم الموصول، وأجمل ذلك في لقمان فقال: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [لقمان]. فلم يكرر (ما). فلما فصل في الحج وزاد على ما ذكره في لقمان، زاد اللام في الحج فقال: ﴿لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحج].

وأما السياق في العنكبوت فيختلف عما في الحج ولقمان وذلك أنها في سياق الفتن والابتلاء قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت].

ثم قال: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت] فاختلف التوكيد والخاتمة، فقد جاء بضمير الفصل وتعريف الغني وزيادة اللام في الحج. وجاء بضمير الفصل وتعريف الغني من دون اللام في لقمان. ولم يأت بضمير الفصل ولم يعرف الغني في العنكبوت.

وذلك أنه في الحج ولقمان ذكر لملكه وسعته وقدرته ونعمته على الخلق.

وأما في العنكبوت فذكر غناه عن خلقه . وثمة فرق بين الغنيين فالأول: غنى ملك وإفاضة رحمة ونعمة، والثاني استغناء عن الآخرين . وأنت ترى فرقاً بين أن تقول: إِنَّ فلاناً يملك كذا وكذا ويعطي وينفق ويتفضل، وقولك: هو مستغن عن الناس: فإن معنى القول الثاني أنه مكتفٍ وإن لم يكن غنياً، ألا ترى إلى قول الخليل:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غِنَى غير أني لست ذا مال
فهناك فرق بين المستغني عن الناس والغني المالك المتفضل .
فلما فرق بين الحاليين فرق بين التعبيرين .

ثم أنظر إلى خاتمة الآية في كل منها فإنه لما كانت سورة الحج في تعداد نعمه وألطافه على خلقه قال: (الغني الحميد) أي: الذي يُحمد على نعمه، وكذلك السياق في لقمان . وأما في العنكبوت فلما كان السياق في ذكر الفتن التي نسأل الله العافية منها لم يقل: (الغني الحميد) بل قال: (غني عن العالمين) أي: غني عن جهادهم . فسبحان الله رب العالمين .
ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف].

فأكد سرعة العقاب بـ (إن) واللام في الأعراف فقال: (لسريع العقاب)، أما في الأنعام فأكد بـ (إن) فقط، وذلك أن الآية في سورة الأعراف ذكرت في سياق العقوبات العاجلة في الدنيا، وأن الآية في الأنعام ذكرت في سياق العقوبات الآجلة في الآخرة . فقد قال تعالى في (الأعراف): ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [١١٦] فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ [١١٧] وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكَ لِيُبَعِثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يُسْئِلُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تُزِرُّ وَازِرَةً وَذَرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ [الأنعام].

فلما عجل لهم العقوبة في الدنيا في سورة الأعراف أكد سرعة العقاب بيانً واللام، ولما أمهلهم إلى يوم القيامة في سورة الأنعام قلل تأكيد سرعة العقاب لأنه لم يسرع في عقوبتهم بل أمهلهم. جاء في (البرهان) في هاتين الآيتين أن «الفرق بين هذه الآية وآية الأنعام حيث أتى هنا باللام فقال: (لسريع العقاب) دون هناك، أن اللام تفيد التوكيد فأفادت هنا توكيد سرعة العقاب لأن العقاب المذكور هنا عقاب عاجل وهو عقاب بني إسرائيل بالذل والنقمة وأداء الجزية بعد المسخ في سياق قوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ...﴾ ﴿١٦٧﴾ [الأعراف]. فتأكيد السرعة أفاد بيان التعجيل وهو مناسب، بخلاف العقاب المذكور في سورة الأنعام فإنه أجل بدليل قوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ [الأنعام] فاكتمى فيه بتأكيد (إن).

ولما اختصت آية الأعراف بزيادة العذاب عاجلاً اختصت بزيادة التأكيد لفظاً بيانً واللام^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ [غافر].

وقوله:

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ [طه].

فأكد إتيان الساعة بيانً واللام في غافر وبيانً وحدها في سورة طه وذلك لأسباب عدة منها:

إن الكلام في سورة غافر على الكفار الذين ينكرون الساعة فقد قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ لَئِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ

(١) البرهان ٤/ ٦٥-٦٦ وانظر ملاك التأويل ١/ ٣٦٠-٣٦١.

يَسْلُغِيهِ فَاسْتَوِدَّ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ [غافر] ثم قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّةٌ لَّارْتَبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر].

أي: لا يؤمنون بالساعة.

أما في سورة طه فالخطاب لموسى عليه السلام وموسى غير منكر لها. ولذا أكدها مع الكافرين الذين ينكرونها أكثر مما أكدها مع موسى عليه السلام.

ثم انظر إلى السياق مرة أخرى فقد قال تعقيباً على إتيان الساعة في سورة غافر: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فحسن أن يؤكد إتيانها إذا كان أكثر الناس لا يؤمنون بها، بخلاف سورة طه فقد قال: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ ﴿١٥﴾ [طه].

فسياق كل من الآيتين يقتضي أن يضع ما وضع وأن يحذف ما حذف.

ومن ناحية أخرى إن الكلام في سورة غافر على الساعة والقيامة بل إن جوَّ السورة هو في الكلام على الساعة. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الصُّبْعَفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّعْتَدُونَ عَنَّا نَضِيبُ مِنَ النَّارِ﴾ ﴿٧﴾ [غافر].

وانظر الآيات من ٧٠-٧٦ فاقضى المقام زيادة التوكيد في هذه السورة.

جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «إن العرب تحرص على التوكيد في موضعه وتركه في غير موضعه... والخطاب لقوم كفار ينكرونها. والتي في سورة طه خطاب لموسى عليه السلام وهي ضمن كلام الله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ ﴿١٧﴾ [طه].»

وقال: ﴿... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ ﴿١٥﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا... ﴿١٥﴾ [طه] ولم يكن موسى عليه السلام ممن ينكر ذلك فيؤكد الكلام عليه توكيده على منكبيه والجاحدين له. على أنه تحميل له ليعلم قومه وهو: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ﴿١٦﴾ [طه] - فإذا كان الأمر على ما بينا وضح الفرق بين الموضعين بالذي ذكرناه^(١).

(١) درة التنزيل ٤١١-٤١٢، وانظر ملاك التأويل ٦٧٥/٢ وما بعدها.

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى].

وقوله :

﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان].

فأكد ما في الشورى بـ (إِنَّ) واللام وأكد ما في لقمان بـ (إِنْ) فقط .
والسياق يوضح سبب ذلك .

قال تعالى في الشورى : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى].

وقال في لقمان : ﴿ يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان].

فقد أوصانا ربنا في الشورى بشيئين : الصبر والمغفرة لمن أساء إلينا فقال :
﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ . وأوصى لقمان ابنه بالصبر فقال : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾ ،
والأول أشق على النفس من مجرد الصبر ، فاحتاج إلى زيادة التوكيد فقال : ﴿ إِنَّ
ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

جاء في (البرهان) للكرمانى : إن سبب ذلك «لأن الصبر على وجهين : صبر
على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قتل بعض أعزته . وصبر على مكروه ينال
الإنسان ليس بظلم كمن مات بعض أعزته . فالصبر على الأول أشد والعزم عليه
أوكد . وكان ما في هذه السورة من الجنس الأول لقوله : ﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾
فأكد الخبر باللام .

وفي لقمان من الجنس الثاني فلم يؤكد باللام»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [البقرة].

(١) البرهان ٤٢٧ وانظر درة التنزيل ٤٢٧-٤٢٨ .

وقوله:

﴿وَتَمَآوُؤًا عَلَى الْبَرِّ وَالْتِفَؤُؤًا وَلَا تَعَاوُؤًا عَلَى الْإِنْمِرِ وَالْمُدُونِ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَاكْبَرَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال].

فكلها قال فيها: (إن الله شديد العقاب) مؤكداً بـ (إن) وحدها، في حين قال: ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد]. فأكد بـ (إن) واللام.

وقد زاد اللام في الرعد لما مرَّ قبلها من ذكر العقوبات وهو قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ﴾ ولما ذكر من عقوبات الكافرين: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد].

وليس السياق كذلك في الآيات الأخرى ولا شيء فيه. فلما كان السياق في الرعد سياق العقوبات اقتضى زيادة توكيدها.

وشبيه بذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ، لِيُغَيِّرَ اللَّهُ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَآخٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

وقوله:

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام].

فكلها أكدها بـ (إن) وحدها وهو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أو (ربك) في حين قال:

﴿وَلِإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل].

فأكدها بـ (إن) واللام.

وسبب ذلك أن سياق آيات النحل هو في تعداد نعم الله على الإنسان ورحمته به ولطفه بخلقه، فقد ذكر خلق الأنعام وما فيها من منافع للإنسان من دفع وركوب وحمل للأثقال وغيرها. وذكر منافع الزروع، وذكر نعمته عليه في البر والبحر وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى من النعم، فناسب ذلك تأكيد المغفرة. وليس السياق في الآيات الأخرى كذلك ولا شيء منه فيه.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في آية الرعد في ذكر العقوبات أكد العقوبة، ولما كان السياق هنا في ذكر النعم والألطف الإلهية أكد المغفرة فوضع كلاً في موطنه الذي هو أليق به. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد].

وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج].

فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام في الحج دون آية الحديد وذلك أن سياق كل من الآيتين يوضح سبب ذاك.

قال تعالى في سورة الحج: ﴿أَذِّنْ لِلَّذِينَ يَمُنُّونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ

بَعْضُهُمْ يَبْغِضُ هَؤُلَاءَ صَوْمِعُ وَيَبِغُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا
وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١١٠﴾ [الحج].

فأنت ترى أن الكلام هو في سياق الإذن للمؤمنين بالجهاد وقاتل الأعداء بعدما أخرجوا من ديارهم وقوتلوا ظلماً، وقد ذكر أن الله قادرٌ على نصرهم وقد وعدهم بالنصر فقال مؤكداً ذاك: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ ولا شك أن النصر يحتاج إلى قوة فأكد قوته وعزته بـ (إن) واللام، وقد ناسب تأكيد النصر تأكيد القوة.

وليس السياق كذلك في الحديد. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١٠٩﴾﴾ [الحديد].

فأنت ترى أنها ليست في سياق الجهاد والقتال ولا في سياق نصر الله للمؤمنين، بل في سياق نصر المؤمنين لدعوة الله ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾. فالأولى في نصره هو لجنوده المستضعفين فأكد قوته، والثانية في نصر المؤمنين لدعوته.

فزاد في المقام الذي يقتضي زيادة التأكيد.

فسبحان الله رب العالمين. ما أجل هذا الكلام وأعظمه وأفخمه ! لقد جل هذا الكلام عن أن يكون له نظير، كما جل قائله عن النظير، فإنه ليس كمثله كلامه كلام، كما أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

التشابه والاختلاف

في القرآن الكريم آيات وتعبيرات تتشابه مع تعبيرات أخرى ولا تختلف عنها إلا في مواطن ضئيلة كأن يكون الاختلاف في حرف أو كلمة. أو في نحو ذلك. وإذا تأملت هذا التشابه والاختلاف وجدته أمراً مقصوداً في كل جزئية من جزئياته قائماً على أعلى درجات الفن والبلاغة والإعجاز. وكلما تأملت في ذلك ازدادت عجباً وانكشف لك سر مستور أو كنز مخبوء من كنوز هذا التعبير العظيم.

فمن ذلك استعمال لفظ (مكة) و (بكة) لأم القرى.

جاء في قوله تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [آل عمران].

فاستعمل اللفظ (بكة) بالباء في حين قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح].

فاستعمل لفظ (مكة) بالميم وهو الاسم المشهور لأم القرى.

وسبب إيرادها بالباء في آل عمران أن الآية في سياق الحج: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ فجاء بالاسم (بكة) من لفظ (البك) الدال على الزحام لأنه في الحج يبك الناس بعضهم بعضاً، أي: يزحم بعضهم بعضاً، وسميت (بكة) لأنهم يزدهمون فيها^(١).

وليس السياق كذلك في آية الفتح، فجاء بالاسم المشهور لها أعني: (مكة) بالميم، فوضع كل لفظ في السياق الذي يقتضيه والله أعلم.

(١) انظر مفردات الراغب ٥٧.

ولا مانع أن يكون ذلك لكلا السبيين .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إِن يُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ [النساء].

وقوله :

﴿ إِن يُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب].

فقد قال في آية النساء : ﴿ إِن يُبْدُوا خَيْرًا ﴾ وفي الأحزاب : ﴿ إِن يُبْدُوا شَيْئًا ﴾ ، وذلك أن آية النساء وردت بعد قوله تعالى : ﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ... ﴾ فذكر أن الله لا يحب الجهر بالسوء ، ولذا قال بعدها : ﴿ إِن يُبْدُوا خَيْرًا ﴾ أي : إن تظهروا خيراً ، وهو عكس الجهر بالسوء . فالله سبحانه لا يحب السوء ولا الجهر به بخلاف الجهر بالخير .

وأما في آية الأحزاب فالسياق يتعلق بعلم الله بالأشياء الخافية والظاهرة فقد قال قبلها : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ... ﴾ [الأحزاب]. وقال ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب] وختم الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب] ومعنى الآية إنه يستوي عنده السر والجهر ، فناسب أن يقول : ﴿ إِن يُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ ﴾ لا أن يقول : ﴿ إِن يُبْدُوا خَيْرًا ﴾ هذه علاوة على مناسبة كلمة (شيء) الواقعة قبلها وبعدها ، فوضع كل لفظة في مكانها المناسب لها .
هذا من ناحية .

(١) انظر (معجزة القرآن الكريم) ٦٧ ، ١٧٧ .

ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري لكل سورة في هاتين السورتين يقتضي وضع كل لفظة من هاتين اللفظتين في موضعها. ذلك أن كلمة (خير) ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة^(١) ولم ترد في سورة الأحزاب إلا مرتين^(٢).

وأن كلمة (شيء) ترددت في سورة النساء اثنتي عشرة مرة^(٣) وترددت في سورة الأحزاب ست مرات^(٤)، فإذا كان الكلام يقتضي اختيار إحدى هاتين اللفظتين لكل آية فمن الواضح أن تختار كلمة (خير) لآية النساء وكلمة (شيء) لآية الأحزاب.

فاقتضى التعبير اختيار كل لفظة من جهتين: جهة المعنى والسياق. وجهة اللفظ.

فانظر أي تعبير هذا؟

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَّنْتُمُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة].
فقد قال في الآية الأولى: (أشد) وفي الآية الثانية: (أكبر) وذلك لأن الكلام في الآية الثانية على كبريات الأمور فقد مر فيها قوله: ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ وقوله: ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ﴾ فناسب ذكر (أكبر) فيها.

وليس السياق كذلك في الآية الأولى، وإنما هي في سياق الشدة على الكافرين فقد قال فيها: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفَّنْتُمُوهُمْ وَآخِرُجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمُوهُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ

(١) انظر الآيات: ١٩، ٢٥، ٤٦، ٥٩، ٦٦، ٧٧، ١١٤، ١٢٧، ١٢٨، ١٤٩، ١٧٠، ١٧١.

(٢) انظر الآيتين: ١٩، ٢٥.

(٣) انظر الآيات: ٤، ١٩، ٢٠، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٥٩، ٨٥، ٨٦، ١١٣، ١٢٦، ١٧٦.

(٤) انظر الآيات: ٢٧، ٤٠، ٥٢، ٥٤ (مرتين)، ٥٥.

الْقَتْلِ ﴿١٩١﴾ [البقرة]. وهذه شدة ظاهرة فناسب ذكر (أشد) فيها بخلاف الآية الثانية .

ومن ذلك قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام في سورة هود:

﴿وَيَقُومُوا لَكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ ﴿١٩١﴾ [هود].

ووردت في غير هذا الموضع كلمة (أجر) يدل كلمة (مال). فقد جاء في سورة يونس على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ...﴾ ﴿١٢١﴾ [يونس].

وجاء على لسانه أيضاً في سورة الشعراء:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٧٤﴾ [الشعراء].

وكذا وردت كلمة (أجر) بدل كلمة (مال) على لسان غيره من الأنبياء - انظر: (سورة هود ٥١ وسورة الشعراء ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠ وسورة سبأ ٤٧).

وسبب ذلك أنه في الموضع الذي وردت فيه كلمة (مال) وقعت بعدها كلمة (خزائن) «ولفظ المال بالخزائن أليق»^(١). فقد جاء على لسان نوح عليه السلام في هذا الموضع قوله: ﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ...﴾ ﴿٢١﴾ [هود] فناسب ذكر المال ههنا بخلاف المواضع الأخرى.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ قَرْنٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [النحل].

وقوله:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿١١﴾ [المؤمنون].

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٣٤-٢٣٥.

فقد قال في آية النحل: ﴿شَقِيقَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقال في آية المؤمنون: ﴿شَقِيقَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾.

وسبب ذلك أن الكلام في آية النحل على إسقاء اللبن من بطون الأنعام. واللبن لا يخرج من جميع الأنعام بل يخرج من قسم من الإناث. وأما في آية (المؤمنون) فالكلام على منافع الأنعام من لبن وغيره، فقد قال بعد قوله: ﴿شَقِيقَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢١) [المؤمنون].

وهذه المنافع تعم جميع الأنعام ذكورها وإناثها صغارها وكبارها. فجاء بضمير القلة وهو ضمير الذكور للأنعام التي يستخلص منها اللبن، وهي أقل من عموم الأنعام، وجاء بضمير الكثرة وهو ضمير الإناث لعموم الأنعام. فلما كانت الأنعام في الآية الثانية أكثر جاء بالضمير الدال على الكثرة. وهذا جارٍ على وفق قاعدة التعبير في العربية التي تفيد أن المؤنث يؤتى به للدلالة على الكثرة بخلاف المذكر، وذلك في مواطن عدة كالضمير وأسماء الإشارة وغيرها، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ﴾ بتذكير الفعل (قال)، وقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ بتأنيث الفعل، فإن التذكير يدل على أن النسوة قلة بخلاف التأنيث، وهذه قاعدة معروفة لا نريد أن نطيل في شرحها وبيانها. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «أن الأنعام في سورة النحل وإن أطلق لفظ جمعها فإن المراد به بعضها، ألا ترى أن الدَّرَّ لا يكون لجمعها وأن اللبن لبعض إناثها فكأنه قال: ﴿وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً شَقِيقَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. ولهذا ذهب من ذهب إلى أنه رد إلى النعم لأنه يؤدي ما تؤديه الأنعام من المعنى. والمراد والله أعلم ما ذكرنا بالدلالة التي بينا.

وليس كذلك ذكرها في سورة المؤمنين لأنه قال: ﴿شَقِيقَكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٢٢) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ فأخبر عن النعم التي في أصناف النعم إناثها وذكورها فلم يحتمل أن يراد بها البعض كما كان في الأول ذلك (١).

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١﴾ [الفتح].

وقوله :

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾ [الفتح].

فقد قال في الآية الأولى : ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وقال في الآية الثانية : ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ . قيل : وسبب ذلك أن الكلام الأول متصل بإنزال السكينة وازدياد المؤمنين إيماناً فقد قال قبلها : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرْدَادُوا إِلَىٰ مَعَايِمِنِهِمْ ۖ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ... ۝١﴾ [الفتح] فهذا موضع علم وحكمة فقال : ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

وأما الآية الثانية فهي في موضع عذاب وعقوبات فقد جاءت بعد قوله : ﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ ظَرْفُ السَّوَاءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَاءِ وَعَظَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝١﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ... ۝٧﴾ [الفتح] فهذا موضع عزة وغلبة وحكم فقال : ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ .

وشبيه بهذا قوله تعالى : ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٧﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩﴾ [الفتح].

فهذا في مقام النصر وأخذ الأموال والغنائم فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكم فقال : ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ^(١).

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٢٧﴾ [الروم].

وقوله :

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٦﴾ [الزمر].

(١) انظر البرهان للكرمانى ٤٣٩ .

فقد قال في آية الروم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وفي آية الزمر: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ وذلك أن ألفاظ الرؤية والنظر في سورة الروم أكثر مما في سورة الزمر، وألفاظ العلم في الزمر أكثر مما في الروم، فقد وردت ألفاظ الرؤية والنظر في الروم سبع مرات^(١) وفي الزمر ست مرات^(٢). ووردت ألفاظ العلم في الزمر إحدى عشرة مرة^(٣) وفي الروم عشر مرات^(٤). فاستحقت الروم لفظ الرؤية والزمر لفظ العلم.

ثم انظر إلى طريقة أخرى في التعبير فقد جاء بفاقدي البصر في سورة الروم فقال: ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ...﴾ [الروم] وجاء بفاقدي العلم في آية الزمر فقال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَأْمُرُونَ بِعِبَادَةِ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ [الزمر].

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل].

وقوله:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر].

فقد قال في النحل: ﴿فَفَزِعَ﴾ وفي الزمر: ﴿فَصَعِقَ﴾، وإنما قال ذلك في الزمر لمناسبة ما بعده وهو قوله: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ فإن ذلك في مقابل الصعقة، في حين ختم آية النمل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَتَوَهُ دَاخِرِينَ﴾، وهو المناسب للفرع إذ معنى داخرين: صاغرون، فناسب كل لفظ مكانه الذي وضع فيه.

ثم انظر كيف قال بعد آية النمل: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَ يُؤْمَرُونَ﴾ [النمل] فأمنهم من الفرع الذي يصيب الخلائق يوم القيامة.

(١) انظر الآيات: ٩، ٢٤، ٣٧، ٤٢، ٤٨، ٥٠، ٥١.

(٢) انظر الآيات: ٢١، ٣٨، ٥٨، ٦٠، ٦٨، ٧٥.

(٣) انظر الآيات: ٧، ٩ (مرتين)، ٢٦، ٢٩، ٣٩، ٤٦، ٤٩ (مرتين)، ٥٢، ٧٠.

(٤) انظر الآيات: ٦، ٧، ٢٢، ٢٩، ٣٠، ٣٤، ٥٤، ٥٦ (مرتين)، ٥٩.

ثم انظر مرة أخرى كيف ناسب ختام السورة أولها وما ورد فيها من فزع في قصة موسى وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدِرًّا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل].

وكيف ناسب ذكر الصعقة في الزمر قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر] وقوله: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ [الزمر].

جاء في (البرهان) للكرماني أن سورة النمل خصت بقوله: ﴿ فَفَزَعٌ ﴾ «موافقة لقوله: ﴿ وَهُمْ مِنْ فِرْعَ يَوْمٍ بِدِءِ امْنُونٍ ﴾. وخصت الزمر بقوله: ﴿ فَصَعِقَ ﴾، «موافقة لقوله: ﴿ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ لأن معناه: مات»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [٢٧] فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْكَ تَرَىٰ الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْتِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ [فصلت].

فقد قال في آية الحج: ﴿ هَامِدَةً ﴾ وفي آية فصلت: ﴿ خَاشِعَةً ﴾ «وعند التأمل السريع في هذين السياقين يتبين وجه التناسق في ﴿ هَامِدَةً ﴾ و ﴿ خَاشِعَةً ﴾.

(١) البرهان ٣٥٩.

أن الجو في السياق الأول جو بعث وإحياء وإخراج فمما يتسق معه تصوير الأرض بأنها (هامدة) ثم تهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج .

وأن الجو في السياق الثاني هو جو عبادة وخشوع يتسق معه تصوير الأرض بأنها خاشعة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت . ثم لا يزيد على الاهتزاز والإرباء هنا الإنبات والإخراج كما زاد هناك ، لأنه لا محل لهما في جو العبادة والسجود^(١) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ﴾ ... ﴿٨١﴾ [آل عمران].

وقوله :

﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ ... ﴿٧٦﴾ [التوبة].

فقد عبر في آية آل عمران بالإيمان وفي آية التوبة بالإسلام ، وذلك لاختلاف حال من عني بهما «وقد ذكر المفسرون أن آية آل عمران نزلت في الحارث بن سويد الأنصاري ، وكان قد أسلم ثم ارتد ولحق بالكفار ثم ندم ، فأرسل إلى قومه ليسألوا رسول الله ﷺ هل له من توبة؟ فسألوا فنزلت الآية فكتبوا بها إليه فأسلم وحسن إسلامه . فكانت حاله حال إيمان ولم يكن في إسلامه أولاً ممن عرف بنفاق ، ولا أنه أبطن خلاف ما ظهر منه من إسلامه ، فكانت حاله حال إيمان وتصديق ولم يظهر خلافه وذلك هو الإيمان . فناسب وصفه بالإيمان وهو التصديق بالقلب .

أما آية التوبة فنزلت في الجلاس حين قال في غزوة تبوك : لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمر . فُنمي ذلك إلى رسول الله ﷺ فاستدعاه فحلف ما قال . وكان منافقاً معروفاً يتظاهر بالإسلام ويبطن خلافه . فأنزل الله في قضيته : ﴿ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ [التوبة] فقليل هنا : (بعد إسلامهم) مناسبة للحال^(٢) .

(١) التصوير الفني ٩٩ .

(٢) ملاك التأويل ١٦٦/١ - ١٦٧ .

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الحجر].

وقوله:

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف].

فقال في آية الحجر: (من رسول) وقال في آية الزخرف: (من نبي) وذلك أنه: « لما تقدم في آية الزخرف لفظ (كم) الخبرية وهي للتكثير ناسب ذلك من يوحى إليه من نبي مرسل أو نبي غير مرسل. فورد هنا ما يعم الصنفين عليهم السلام.

أما آية الحجر فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب التكثير مع ما تضمنت من قصد تأنيسه عليه السلام وتسليته، فخصت بالتعيين باسم الرسالة تسلية له عن قولهم: (إنك لمجنون) وبما جرى للرسول قبله عليه السلام من مثل ذلك. ومن البين أن موقع (رسول) هنا أمكن في تسليته عليه السلام. فجاء كل على ما يجب من المناسبة «^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ... ﴿٨﴾﴾ [غافر].

وقوله:

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى].

فقال في (غافر) ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وقال في الشورى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾. وذلك لأسباب عدة منها:

(١) ملاك التأويل ٥٨٤/٢.

١- أن آية غافر ذكرت جماعة مخصوصة من الملائكة وهم حملة العرش ومن حوله، وآية الشورى ذكرت عموم الملائكة. فناسب أن تستغفر خاصة الملائكة للخاصة من الناس وهم المؤمنون، وأن تستغفر عامة الملائكة لعموم أهل الأرض.

٢- ثم لما ذكر في غافر صفة الإيمان في هؤلاء الملائكة فقال (ويؤمنون به) ناسب أن يذكر من اتصف بهذه الصفة من أهل الأرض.

٣- ثم إن قوله: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ يفيد التخصيص ولا يفيد العموم، فناسب ذلك أن يخصوا المؤمنين بالذكر لا أن يذكروا عموم أهل الأرض، وأغلبهم لا تنطبق عليه هذه الأوصاف.

٤- ثم إنهم لما سألوا ربهم أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم جنات عدن، ومعلوم أن ذلك لا يكون إلا للمؤمنين، ناسب ذلك ذكر المؤمنين وإلا فليس من المناسب أن تسأل الجنة لكافر.

وأما آية الشورى فلم يرد فيها مثل ذلك، بل ذكر فيها عموم الملائكة فناسب أن يذكر عموم أهل الأرض، ولم يذكر صفة أخرى تُقَيِّدُ هذا العموم.

ثم إنه لما ختم الآية بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ناسب ذكر هاتين الصفتين وقصرهما وتعريفهما وتأكيدهما ذكر العموم.

فانظر فخامة هذا التعبير وجلاله.

ومنه قوله تعالى :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ...﴾ [آل عمران].

وقوله :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾ [الجمعة].

فقل في الأولى: (من أنفسهم) وفي الثانية: (منهم) وذلك «أن قولك: (فلان من أنفس القوم) أوقع في القرب والخصوص من قولك (فلان منهم). فإن هذا قد يراد للنوعية فلا يختص لتقريب المنزلة والشرف إلا بقريئة. أما (من)

أنفسهم) فأخص فلا يفتقر إلى قرينه. ولذلك حيث ورد قصد التعريف بعظم النعمة به ﷺ وجليل إشفاقه وحرصه على نجاتهم ورأفته ورحمته بهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ...﴾ [التوبة] وقال تعالى فيمن كان على الندّ من حال المؤمنين المستجيبين: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [النحل]. فتأمل موقع قوله هنا: (منهم) لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا للاستجابة المثمرة للنجاة فليل هنا: (منهم)...

ولما كان لفظ الأمين يتناول قريشاً وغيرهم من العرب ممن ليس من أهل الكتاب قيل: (منهم) فناسبت هذه الآية بما فيها من الشيع الذي مهدناه عموم الأمين من العرب ممن أسلم وممن لم يسلم. ولما قال في آية آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فخص من أسلم ناسب ذلك قوله: (من أنفسهم) بخصوصه كما تقدم. ولم يكن العكس ليناسب «^(١)».

ومن هذا الباب قوله تعالى:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة].

وقوله:

﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة].

فقد قال في الآية الأولى: (عن مواضعه) وفي الثانية: (من بعد مواضعه) وذلك أن الكلام في الآية على أوائل اليهود الذين حرفوا التوراة، وفي الثانية على اليهود الذين كانوا في زمن الرسول ﷺ والذين حرفوها بعد أن وضعها الله مواضعها وعرفوها وعملوا بها زماناً^(٢). فقد قال في الآية الأولى: ﴿...﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا... ﴿...﴾ فِيمَا نَقَضُوا مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة].

(١) ملاك التأويل ١٧٨/١-١٧٩.

(٢) انظر البرهان للكرمانى ١٣٨، ملاك التأويل ٢٤٢/١ وما بعدها.

وقال في الآية الثانية: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ...﴾ [المائدة] فجاء في الثانية بكلمة (بعد) لأنها «قد تكون لما تأخر عن زمانه بأزمة كثيرة وبزمن واحد و (عن) لما جاوز الشيء إلى غيره ملاصقاً زمنه لزمنه»^(١).

وجاء في الأولى بـ (عن) لأن الزمن ملاصق، فوضع كل لفظ في المكان الذي هو أليق به. ومن بدیع ذلك وطريفه قوله تعالى:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الشعراء].

فقد ذكر (سوف) في آية الأنعام فقال: (فسوف يأتيهم أنباء...) وذكر السين في آية الشعراء فقال: (فسياأتيهم).

وذكر (الحق) في آية الأنعام فقال: (فقد كذبوا بالحق)، ولم يذكره في آية الشعراء. ولكل من ذلك سبب يدعو إليه.

أما ذكر (الحق) في آية الأنعام فإنه تردّد في هذه السورة اثنتي عشرة مرة^(٢) ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء فناسب ذكرها في آية الأنعام دون آية الشعراء إذ هو المناسب للجو التعبيري في هذه السورة.

وأما ذكر (سوف) في الأنعام فيفيد تأخير العقوبات إلى زمن أبعد مما في الشعراء وذلك أن (سوف) أبعد في الاستقبال من السين. ولوضع كل من سوف والسين موضعها عدة أسباب منها:

١ - أن المعنيين في سورة الشعراء هم قوم الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة يدلّك على ذلك قوله تعالى: ﴿لَمَّا كَبُحِ بِقَاسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٢] إِنَّ شَأْنُنَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ [٤] [الشعراء].

(١) درة التنزيل ٩١.

(٢) انظر الآيات: ٥، ٣٠، ٥٧، ٦٢، ٦٦، ٧٣ (مرتين)، ٩١، ٩٣، ١١٤، ١٤١، ١٥١.

وأما ما ورد في سورة الأنعام فلعموم الكافرين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿١﴾ فناسب ذلك تعجيل الوعيد لمن هم أقرب إليه من الكفار الذين حاربوا الرسول وكذبوه قبل الأبعد الذين لم تبلغهم الدعوة بعد.

علاوة على ما في السورة من تسلية للرسول فقد قال له: لعلك تقتل نفسك لعدم إيمانهم فَهَوِّنْ عَلَيْكَ الْأَمْرَ، فناسب كل ذلك تعجيل التهديد والوعيد وليس الأمر كذلك في سورة الأنعام.

٢ - ذكر في سورة الشعراء الأقوام الذين كذبوا أنبياءهم وعقوباتهم في الدنيا فناسب ذلك مجيء السين إشعاراً بتعجيل العقوبة لهؤلاء القوم كما عجل للأقوام البائدة بخلاف ما في الأنعام إذ ليس فيها شيء من ذلك.

٣ - ثم إن سورة الأنعام مبنية على تأخير الوعيد والعقوبات بخلاف سورة الشعراء:

أ - فقد أمر الرسول في الأنعام أن يقول أنه ليس عنده ما يستعجلون به من العذاب ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ﴾ ﴿٥٧﴾.

﴿قُلْ لَّوْ أَنِّي عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ ﴿٥٨﴾. فناسب عدم الاستعجال ذكر (سوف) هنا.

ب - ورد في الأنعام قوله: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَلَىٰ مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عِقَابُ الدَّارِ الْأُولَىٰ﴾ ﴿١٢٥﴾ فذكر (سوف) ولم يذكر السين وهو الملازم للجو العام للسورة.

ج - ثم انظر كيف قال في موطن آخر من سورة الأنعام: ﴿كُتِبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ كُتُبُكُم إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ﴿١٢٦﴾ فقد ذكر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا ينافي بتعجيل العقوبة، ثم قال: (ليجمعنكم إلى يوم القيامة). وهذا يفيد تأخير العقوبة إلى يوم القيامة.

فناسب ذلك كله وضع (سوف) دون السين في الأنعام.

د - قال في ختام سورة الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فلم يؤكد سرعة العقاب كما أكد المغفرة والرحمة، فقد أكدهما بإِنَّ واللام، وأكد سرعة العقاب بإِنَّ وحدها، كما أنه لم يؤكد كما أكدها في سورة الأعراف مثلاً فقد قال هناك: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف] فأكد سرعة العقاب بإِنَّ واللام، وذلك لما كان الموطن في الأعراف تعجيل العقوبات في الدنيا أكد سرعة العقاب ولما لم يكن الأمر كذلك في الأنعام لم يؤكد سرعته وهذا ينافي تعجيل العقوبة.

هـ - ثم انظر كيف قال تعالى في مكان آخر من سورة الأنعام: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [الأنعام] فقد جاء بـ (ثم) الدالة على التراخي والبعد بخلاف قوله تعالى في سورة أخرى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل] فقد جاء فيها بالفاء الدالة على التعقيب.

ووضع (ثم) في آية الأنعام هذه علاوة على أنه من المناسب للجو العام للسورة يقتضيها السياق أيضاً من عدة نواح، بخلاف سياق آيات النمل الذي يقتضي الفاء. فقد ختمت آية الأنعام بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ وختمت آية النمل بقوله: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾، والمكذب قد تعطى له مهلة أطول من مهلة المجرم فإن المجرم، ينبغي أن يؤخذ بجرمه على وجه التعقيب، ولذا جاء مع (المكذبين) بـثم ومع المجرمين بالفاء. فاقترضى ختام كل آية الحرف الذي اختير لها.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن التكذيب والسخرية في النمل أكبر مما في الأنعام فقد جاءت آية النمل بعد قوله تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءُ الْمُخْرَجُونَ﴾ [النمل].

ثم جاء بالآية: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا...﴾.

ثم صبر الرسول بعدها بقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل] فاقترضى كل ذلك التعجيل بالفاء لا الإمهال.

ثم انظر من جهة أخرى إلى قوله تعالى بعد آية النمل: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٦] بخلاف قوله تعالى في الأنعام: (ماعندي ماتستعجلون به). فناسب كل ذلك ذكر (ثم) في آية الأنعام وذكر الفاء في آية النمل. لقد تبين من كل ذلك أن سورة الأنعام مبنية على تأخير العقوبات والوعيد، فناسب ذلك ذكر (سوف) فيها بخلاف آية الشعراء. فانظر هداك الله أي تعبير هذا؟

ومن هذا الباب الاختلاف في التعريف والتنكير وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقوله:

﴿... وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ...﴾ [آل عمران: ١٧٧].

فعرف (الحق) في الأولى ونكره في الثانية، وذلك أن كلمة (الحق) المعرفة في آية البقرة تدل على أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير الحق الذي يدعو إلى القتل، والحق الذي يدعو إلى القتل معروف معلوم.

وأما النكرة فمعناها أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق أصلاً لا حق يدعو إلى قتل ولا غيره. أي: ليس هناك وجه من وجوه الحق الذي يدعو إلى إيذاء الأنبياء فضلاً عن قتلهم. فكلمة (حق) ههنا نكرة عامة، وكلمة (الحق) معرفة معلومة. والقصد من التنكير الزيادة في ذمهم وتبشيع فعلهم أكثر مما في التعريف، وذلك لأن التنكير معناه أنهم قتلوا الأنبياء بغير سبب أصلاً لاسبب يدعو إلى القتل ولا غيره^(١). فمقام التشنيع والذم ههنا أكبر منه ثم وكلاهما شنيع وذميم.

فجاء بالتنكير في مقام الزيادة في ذمهم وإليك سياق كل من الآيتين:

قال تعالى: ﴿... وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١١]. فعرّف (الحق) فيها.

(١) انظر ملاك التأويل ٧١/١-٧٣.

وقال: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَلٍّ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْآيَةَ بَعْدَ مَا هِيَ بَعْدَ ذَلِكَ يَمَّا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران] فنكر (الحق).

ومن الواضح أن موطن الذم والتشنيع عليهم والعيب على فعلهم في آية آل عمران أكبر منه في آية البقرة يدل على ذلك أمور منها:

أنه في سورة البقرة جمع (الذلة) و (المسكنة) وأما في آية آل عمران فقد أكد وكرر وعمم فقال: ﴿صُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَنْ مَا ثُقِفُوا﴾ فجعلها عامة بقوله: (أينما ثقفوا) ثم قال: ﴿وَصُرِّبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ فأعاد الفعل وحرف الجر للزيادة في التوكيد فإن قولك: (انهاك عن الكبر وأنهاك عن الرياء) أكد من قولك (أنهالك عن الكبر والرياء).

ثم إنه ذكر الجمع في آية البقرة بصورة القلة فقال: (ويقتلون النبيين) وذكره في آية آل عمران بصورة الكثرة فقال: (ويقتلون الأنبياء) أي: يقتلون العدد الكثير من الأنبياء بغير حق.

فالتشنيع عليهم والعيب على فعلهم وذمهم في سورة آل عمران أشد ومن هنا يتبين أن التعريف في آية البقرة أليق والتذكير في آية آل عمران أليق^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة] فعرف (المعروف).

وقال في آية أخرى:

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ...﴾ [البقرة]. فنكره.

(١) انظر معاني النحو - باب المعرفة والنكرة - المعروف بآل.

وذكر أن المقصود بـ (المعروف) ههنا الزواج خاصة، وأما غير المعروف فيراد به ما لم يستنكر فعله من خروج أو تزين ونحوه. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل فيقول: ما الفائدة التي أوجبت اختصاص المكان الأول بالتعريف والباء فقال: (بالمعروف) والمكان الثاني بالتنكير ولفظة (من).

والجواب عن ذلك أن يقال: إِنَّ الأول تعلق بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ [البقرة: ٢٣٤]. أي: لا جناح عليكم في أن يفعلن في أنفسهن بأمر الله، وهو ما أباحه لهن من التزوج بعد انقضاء العدة، فالمعروف ههنا أمر الله المشهور، وهو فعله وشرعه الذي بعث عليه عباده.

والثاني: المراد به فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن من جملة الأفعال التي لهن أن يفعلن من تزوج أو قعود. فالمعروف، ههنا فعل من أفعالهن يعرف في الدين جوازه وهو بعض ما لهن أن يفعلنه. ولهذا المعنى خص بلفظ (من) ونكر، فجاء (المعروف) في الأول معرف اللفظ لما أشرت إليه، وهو أن يفعلن في أنفسهن بالوجه المعروف المشهور الذي أباح الشرع من ذلك، وهو الوجه الذي دل الله عليه وأبانه، فعرف إذ كان معرفة مقصوداً نحوه وكذلك خصّ بالباء وهي للإلصاق.

والثاني كان وجهاً من الوجوه التي لهن أن يأتينه فأخرج مخرج النكرة لذلك»^(١).

ومما يدل على ذلك أيضاً أمور منها أن الآية الأولى ذكر فيها قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ فقوله: (يتربصن) معناه: يصبرن أنفسهن هذه المدة ليتسنى لهن الزواج، ثم ذكر العدة التي يحق لهن التزوج بعدها، ثم جاء بالباء الدالة على الإلصاق، والزواج إلصاق كما قال تعالى: ﴿هُنَّ لِيَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة].

وليس الأمر كذلك في الآية الأخرى، فإنه ليس هناك ذكر للتربص ولا للعدة التي يحق لهن التزوج بعدها.

ومن ناحية أخرى أنه عرف (المعروف) المقصود به الزواج لأن الزواج شيء واحد معروف، ونكر الثاني لأنه لم يقصد به فعل معين. بل كل ما كان مباحاً لهن في الشرع فنكره لذلك.

ومثل هذا استعماله للفظي (الكذب) و (كذب) بالتعريف والتنكير، فاستعمل (الكذب) بالتعريف لما هو خاص بأمر معين. و (كذباً) بالتنكير لما هو عام.

قال تعالى:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٣] ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [١٤] [آل عمران].

فجاء بالكذب ههنا معروفاً لأنه مخصص بهذه المسألة أي: مسألة الطعام. ومثله قوله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ الْغَنِيُّ ۖ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِن عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أْتَقُولُوكَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٣٨] ﴿قُلْ إِنَّا الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [٣٩] [يونس].

فعرف الكذب لأنه مخصص بمسألة معينة وهي زعمهم اتخاذ الله ولداً سبحانه. ونحوه قوله تعالى:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَافِرَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ ۚ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة].

فاستعمل الكذب معرفاً لأنه مخصص بمسألة الأنعام .

في حين قال : ﴿ وَهَذَا كَذِبٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ (١٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ (١٧) [الأنعام] .

فالكذب ههنا عام ولم يخصص بمسألة معينة .

ونحوه قوله تعالى :

﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (١٦) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِعَائِيَّتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (١٧) [يونس] .

وقوله :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ ... ﴾ (٢١) [الشورى] .

وقوله :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٨) [المؤمنون] .

فأنت ترى أنه استعمل المعرفة لأمر مخصص ، في حين استعمل المنكر لما هو عام .

ومن هذا الباب قوله تعالى :

﴿ ... فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤١) [المؤمنون] .

بتعريف (القوم) .

وقوله :

﴿ ... فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤١) [المؤمنون] .

بتنكير (قوم) .

وذلك لأن الأولى في قوم معينين وهم قوم صالح فعرفهم بدليل قوله تعالى: ﴿فَاخَذَتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ...﴾ (١١) [المؤمنون].

وأما الثانية فلم تكن في قوم معينين بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ (١٢) [المؤمنون] وقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٣) [المؤمنون].
فخصهم بالنكرة^(١).

ومنه قوله تعالى:

﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَمَا يَزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٢١) [فصلت].

فقد وردت الصفتان في الأعراف منكرتين (سميع عليم) ووردتا في (فصلت) معرفتين وزيد قبلهما ضمير الفصل.

وذلك أنه ورد قبل آية الأعراف وصف آلهتهم بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك ولا تقدر على شيء مما يدل على أنها ليس فيها شيء من الحياة قال تعالى: ﴿أَيْشِرُكُمْ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (٢٠) وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (٢١) إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٢) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظَرُونَ (٢٣)﴾ [الأعراف].

فوصف الله نفسه بالسمع والعلم في مقابل آلهتهم التي لا تسمع ولا تعي.
وأما آية فصلت فقد تقدم قبلها قوله: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢٢) [فصلت].

(١) انظر البرهان للكرمانى ٣٣٨، درة التنزيل ٣١٦-٣١٧.

فأثبتوا لله سبحانه قليل العلم ونفوا عنه كثيره، فاقتضى ذلك أن يبين لهم أنه هو المختص بالعلم الكامل والسمع الكامل، فجاء بالصفتين معرفتين للدلالة على الكمال في الوصف، وجاء بضمير الفصل للدلالة على قصر هاتين الصفتين عليه سبحانه وبيان أن ماعده لا يعلم ولا يسمع إذا ما قيس بعلمه وسمعه. ولو جاء بهما نكرتين لم يفيدا هذا المعنى، إذ كل مَنْ عنده سمع وعلم يصح أن يوصف بأنه سميع عليم. جاء في (ملاك التأويل): «إن سورة الأعراف تقدم فيها قبل الآية وصف آلهتهم المنحوتة من الحجارة والخشب التي ويخو بعبادتها في في قوله في موضع آخر: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات] فوصف هنا بأنها لا تخلق شيئاً ولا يستطيعون لهم نصراً ﴿وَأِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف] فنفى عنهم القدرة والسمع والبصر وآلة البطش بقوله: ﴿أَلَهُمْ أَزْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمَ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِيْطُشُونَ بِهَا﴾ [الأعراف].

ولم يتقدم هنا ما يوهم أدنى شيء يلحقها بشبه الأحياء فضلاً عما فوق ذلك، فوردت الصفتان بقوله: (سميع عليم) مورداً لم يتقدمه ما يوهم صلاحية شيء من ذلك لغيره تعالى مما عبده من دونه مما قصد هنا، ولا ذكر دعوى شيء من ذلك من مدّع، فيستدعي ذلك التوهم مفهوماً بنفيه فجاء على ما يجب.

أما آية السجدة^(١) فتقدم قبلها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت] وقوله: ﴿وَقِضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [فصلت] وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [فصلت] فحصل من هذا أن مُضِلَّهُمْ إنما كان من عالم الإنس والجن، وكلا الصنفين موصوف بالسمع والبصر ممن ينسب إليه علم، بخلاف المتقدم ذكره في الأعراف.

فلما تقدم في سورة السجدة ما يظهر منه الغناء ويمكن أن يسمع ويبصر ويعلم، ناسبه التعريف في الصفة ليعطي بالمفهوم نفي ذلك من غير الموصوف

(١) المقصود فصلت.

بهما تعالى. ثم أكد ذلك بضمير الفصل المقتضي التخصيص ليقوى المفهوم المسمى عند كثير من الأصوليين بـ (دليل الخطاب)، فصار الكلام في قوة أن لو قيل: الله السميع العليم لا غيره^(١).

ومنه الاختلاف في التعريف، فقد يعرف اللفظة مرة بآل ومرة بالإضافة وذلك نحو قوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ وَيُمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد عرف (الطغيان) بالإضافة وعرف (الغي) بآل، وذلك أنه أسند المد في آية البقرة إلى الله تعالى فقال: (ويمدهم في طغيانهم يعمهون) فالله إنما يمدهم في طغيانهم هم، ولا يمدهم في طغيان جديد لم يفعلوه.

في حين أسند المد في آية الأعراف إلى الشياطين فذكر أنهم يمدونهم في غي جديد لا في غيهم وحده، فهم يضيفون غياً إلى غيهم. جاء في (الكشاف): «فإن قلت: أي نكتة في إضافته إليهم؟

قلت: فيها أن الطغيان والتمادي في الضلالة مما اقترفته أنفسهم واجترحته أيديهم وأن الله بريء منه...

ومصداق ذلك أنه حين أسند المد إلى الشياطين أطلق الغي ولم يقيد بالإضافة في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾^(٢).

ومن ذلك الاختلاف في استعمال حروف العطف.

فهو يستعمل حروف العطف في غاية الدقة والجمال، فمن المعلوم أن الواو تأتي لمطلق الجمع، وأن الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، و (ثم) تفيد الترتيب والتراخي..

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٥٢-٤٥٣.

(٢) الكشاف ١/ ١٤٥-١٤٦.

ومعنى الترتيب أن المذكور أولاً، هو الذي حدث أولاً والمذكور بعده هو الذي حدث بعده. ومعنى التعقيب أنه حصل بعده بلا مهلة، فإذا قلت: (جاء محمد فخالد) كان معناه أن محمداً حضر قبل خالد وأن خالداً حضر بعده بلا مهلة.

ومعنى التراخي أن بينهما مهلة فقولك: (حضر محمد ثم خالد) يفيد أن حضور محمد قبل حضور خالد وأن بينهما مهلة وليس كالفاء. ومهلة كل شيء بحسبه فإذا قلت: (تزوج أحمد فولد له) كان معناه أنه لم يكن بين الزواج والولادة إلا مدة الحمل^(١) أما إذا قلت: (تزوج أحمد ثم ولد له) كان معنى ذلك أن الحمل تراخى عن الزواج.

وأما الواو فكما ذكرنا لمطلق الجمع، أي: ليست للترتيب وإنما هي لمجرد الاشتراك في الحدث، فإذا قلت: (حضر أحمد وخالد) كان من الممكن أن يكون حضر أحمد قبل خالد أو خالد قبل أحمد أو حضرا معاً. وقد يكون بينهما مهلة أو لا يكون بينهما مهلة. وليس معنى ذلك أنها لاتأتي للترتيب البتة، بل قد تأتي للترتيب وغيره، فهي ليست نصاً في الترتيب ولا في غيره. وقد استعمل القرآن ذلك ألطف استعمال وأدقه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا نَّهُمْ فَآقْبَرُوْهُ ۖ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُمْ﴾ [عبس] فجاء في (أقبره) بالفاء، لأن دفن الميت يكون بعد موته مباشرة وجاء بعده بـ (ثم) لأن النشور يتأخر عن الدفن^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّٰهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة].

فجاء بالإحياء الأول بالفاء، وما بعده بـ (ثم) لأن الإحياء الأول قد تعقب الموت بغير تراخ وأما الموت فقد تراخى عن الإحياء. والإحياء الثاني كذلك متراخ عن الموت^(٣).

(١) انظر التصريح على التوضيح ١٣٨/٢.

(٢) انظر التصريح على التوضيح ١٣٨/٢، ١٤٠.

(٣) الكشاف ٢٠٨/١.

وشبيه بذاك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَهُوَ يُحْيِي ۖ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُهُ ۖ وَسَيُحْيِي ۖ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ [الشعراء].

« فقد عطف في الآية الأولى بالفاء لتعقب بلا مهلة الهداية للخلق... وكان العطف في الآية الرابعة بـ (ثم) لتراخي الإحياء عن الإماتة »^(١).

وأما الفاء في قوله: (فهو يشفين) فهي الرابطة للجواب وليست عاطفة. ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم].

وقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم].

« قال ههنا: ﴿إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ وقال في خلق الإنسان أولاً: ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ فنقول: هناك يكون خلق وتقدير وتدرّج وتراخ حتى يصير التراب قابلاً للحياة فينفخ فيه روحه فإذا هو بشر، وأما في الإعادة لا يكون تدرّج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا: ثم »^(٢).

وبعد هذه المقدمة في معاني حروف العطف، نعود إلى التشابه والاختلاف فيها. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [طه].

وقوله:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة].

(١) التعبير الفني في القرآن ١٨٧ وانظر البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ١٤٢.

(٢) التفسير الكبير ١١٦/٢٥.

فقال في آية (طه): (أفلم) بالفاء، وقال في آية السجدة: (أولم) بالواو لأنه ذكر في سورة طه العقوبات في الدنيا علاوة على عقوبة الآخرة فقال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه].

وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه] فذكر المعيشة الضنك في الدنيا ثم قال: (ونحشره يوم القيامة أعمى). وقال: (وكذلك نجزي من أسرف...) والمقصود به في الدنيا، ثم قال بعده: (ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) بخلاف ما في سورة السجدة فإنه أخر الأمر إلى يوم القيامة، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة]. فجاء بالفاء في (طه) لأنها تفيد التعقيب وجاء بالواو في السجدة.

ومن الاختلاف في هاتين الآيتين في غير العطف قوله تعالى في السجدة: (من قبلهم من القرون) وفي طه: (قبلهم من القرون) بدون (من) وذلك أنه ذكر في سورة السجدة هلاك ووفاة من هم في زمانه فقال: ﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة]. قل بنوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم رجع إلي ربكم [السجدة].

فبدأ بهلاك من هو أقرب إليه فجاء بـ (من) الدالة على ابتداء الغاية، ولم يرد مثل ذلك في (طه) فإنه ذكر قوم موسى وأحوالهم، وهم قبل الرسول بمدة طويلة وليسوا من قبله.

ثم انظر كيف ختم آية السجدة بقوله: (أفلا يسمعون) وذلك لأنهم يسمعون بما حصل للأقرب إليهم، فإن خاتمة الأقرب مما يؤخذ عن طريق السماع بخلاف الأقدمين... وهذه إشارة تهديك إلى خاتمة آية (طه) لتنظر جلالة هذا الكلام وارتفاعه.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا...﴾ [هود].

فجاء في هاتين القصتين بالواو في حين قال:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنَيْنَا صَلَاحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا... ﴾ [هود].

وقال في قصة لوط:

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا... ﴾ [هود].

بالفاء وسبب ذلك أن « العذاب في قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد. فإن في قصة هود: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ءِإَيْكُمْ وَيَسْخَلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ... ﴾ [هود].

وفي قصة شعيب: ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [هود] والتخويف قارنه التسويف فجاء بالواو المهملة.

وفي قصة صالح ولوط وقع العذاب عقب الوعيد، فإن في قصة صالح: ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴾ [هود] وفي قصة لوط: ﴿ أَلَيْسَ الْأُصْبَحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [هود] فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب ^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف].

وقوله:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ ﴾ [السجدة].

قال في آية (الكهف): ﴿ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وقال في آية السجدة: ﴿ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ وذلك أن وقوع الإعراض في آية الكهف أسرع منه في آية السجدة، إذ هو واقع في عقب التذكير، يدل على ذلك قوله تعالى في آية الكهف: ﴿ وَنَسَىٰ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ وهذا الوصف

(١) البرهان للكرمانى ٢٣٦-٢٣٧، درة التنزيل ٢٣٤-٢٣٥.

مما يسرع في إعراضهم ثم قال فيما بعد: ﴿وَلِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ فذكر صممهم وبعدهم عن الهدى.

وليس الأمر كذلك في آية السجدة، فناسب ذلك ذكر الفاء في آية الكهف لدلالاتها على الترتيب والتعقيب و (ثم) في آية السجدة لدلالاتها على التراخي.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن الفاء قد تدل على السبب فجاء بالفاء للدلالة على أن التذكير كأنه كان سبباً لإعراضهم وزيادة رجسهم كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٩].

فأنت ترى أن آية الكهف تقتضي الفاء من أكثر من جهة بخلاف آية السجدة. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقوله:

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [النمل: ١٢٩].

وهاتان الآيتان في قوم لوط، فقد جاء في آية الأعراف بالواو فقال: (وما كان جواب قومه)، وجاء في آية النمل بالفاء فقال: (فما كان جواب قومه) مما يدل على أن الجواب كان أسرع منه في آية الأعراف.

وسياق كل من الآيتين يقتضي ما ذكر.

فقد قال في الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١٢٩] إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ [١٣٠] وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ [١٣١] [الأعراف: ١٣١].

وقال في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [٥١] أَيْنَكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ [٥٢] فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَنْظَهُرُونَ [٥٣] [النمل: ٥٣].

فأنت ترى أن مقام الإنكار والتقريع في سورة النمل أشد منه في سورة الأعراف، يدل على ذلك أمور منها:

١- قوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأْتُونَ آلَ رِجَالٍ﴾ وفي النمل: (أإنكم) بإدخال همزة الاستفهام الدالة على الإنكار والتوبيخ.

٢- قوله في الأعراف: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ وفي النمل: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ والوصف بالجهل فيه زيادة تقريع، لأن نسبة الإنسان إلى الإسراف أهون من نسبته إلى الجهل، فإنك إذا قلت لشخص: (أنت مسرف في هذا الأمر) كان أهون عليه من قولك: (أنت جاهل).

ولذلك بادروا بالرد عليه بسرعة ولم يترثوا لأنه أغاظهم في الكلام أكثر مما في الأعراف فجاء بالفاء.

ومما يدل على شدة غيظهم ذكر اسمه صراحة في النمل: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ﴾ بخلاف ما في الأعراف فقد جاؤا بالضمير: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾.

وقد تقول: وهل هناك تناقض بين القولين والقصة واحدة؟

والجواب: لا، وذلك لأن الواو لا تناقض الفاء، فإن الواو لمطلق الجمع كما ذكرنا، فقد يكون ما بعدها واقعاً في عقب ما قبلها وقد يكون متأخراً عنه وقد يكون متقدماً عليه. وأما الفاء فتفيد الترتيب فهي تفيد أحد معاني الواو. فذكر معنى الترتيب والتعقيب في النمل لأن الموطن يقتضيه، وأطلق ذلك في الأعراف لأن الموطن لا يقتضي التعقيب. وهذا من أعجب الكلام وأدقه.

ويمكن أن يقال أيضاً: إن النصيحة تكررت من لوط في أزمنة مختلفة وبأساليب مختلفة، فيمكن أنه قال بعضها بصيغة أشد من الأخرى، وذلك أنه كلما تكررت الدعوة وتكررت النصيحة كان ذلك مدعاة إلى المبالغة في القول والنصيحة. وكل ذلك جائز والله أعلم.

ومن ذلك التشابه والاختلاف في حروف النفي وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْنُنَ لَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة].

وقوله :

﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة] .

فنفي التمني في الآية الأولى بـ (لا) فقال : ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْهُ﴾ ونفاه في الثانية بـ (لن) فقال : ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ﴾ وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك .

قال تعالى : ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ الَّذِينَ هَٰذَاؤُا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٦] وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [٧] [الجمعة] .

وقال في البقرة : ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١١] وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [١٥] [البقرة] وأنت ترى الفرق واضحاً بين السياقين ، فإن الكلام في الآية الثانية على الآخرة ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ...﴾ والدار الآخرة استقبال فنفي بـ (لن) إذ هو حرف خاص بالاستقبال .

وأما الكلام في الآية الأولى فهو عام لا يختص بزمن دون زمن : ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾ فهذا أمر مطلق فنفي بـ (لا) وهو حرف يفيد الإطلاق والعموم .

ومن ناحية أخرى أنه لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً غير مقيد بزمن نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف ، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة ، وهو تناظر فني جميل .

وقد مر في باب التوكيد في التشابه والاختلاف في حروف النفي نحو قوله تعالى : ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [٢٤] [الباقية] وقوله : ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [٢٧] [المؤمنون] .

وقوله : ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [١] [الأحقاف] وقوله : ﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [١١٥] [الشعراء] وغيره ما يغني عن إعادة ذكره .

ومن ذلك استعمال حروف الجر فقد استعملها استعمالاً لطيفاً بديعاً. فقد يعدل من حرف إلى آخر، أو يستعمل حرفاً مرة ثم يستعمل حرفاً آخر في موضع يبدو شبيهاً بالأول، وغير ذلك من الفنون التعبيرية لسبب يدعو إلى وضع كل حرف الموضع الذي وضعه.

فمن ذلك قوله تعالى في وصف المؤمنين:

﴿مَنْ رَتَدَ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة] فعذى (أذلة) جمع ذليل بـ (على) والأصل ان يعدى باللام لأنه يقال: (هو ذليل له) ولا يقال: (ذليل عليه) وقد عدل عن التعدية باللام إلى التعدية بـ (على) لأن المعنى يقتضي ذاك، إذ لو عده باللام لكان ذماً لا مدحاً. فقولك: (وهو ذليل له) يفيد الذم، وهو ههنا في مقام المدح، فجاء بـ (على) للإشعار بالذلة المستعلية وللدلالة على خفض الجناح كما قال تعالى: ﴿وَخَفِضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر] أي: هم يوطئون أكتافهم ويتواضعون مع علو جانبهم وارتفاع مكانتهم، فجاء بـ (على) للإشعار بالعلو (بخلاف ما لو قال (أذلة للمؤمنين) جاء في (الكشاف): «فإن قلت: هلا قيل: أذلة للمؤمنين أعزة على الكافرين؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما: أن يضمن الذل معنى الحنو والعطف كأنه قيل: عاطفين عليهم على وجه التذلل والتواضع.

والثاني: أنهم مع شرفهم وعلو طبقتهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنتهم»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ] فاستعمل مع الهداية حرف الاستعلاء (على) ومع الضلال (في) وذلك لأن من كان على الهدى، كان

(١) الكشاف ١/٤٦٧.

مستعمل على الحق متمكن منه مثبت مما هو فيه، بخلاف من كان في الضلالة إذ هو كأنه ساقط فيها. والساقط في الشيء غير متمكن من نفسه، ألا ترى أن الواقف على الطريق ليس كالساقط في اللجة؟ فالأول متمكن من نفسه بخلاف الآخر، ولذا جاء مع الهدى بحرف الاستعلاء ومع الضلال بفي قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة] وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [٧٦] [النمل] فاستعمل للهدى (على) في حين قال: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون] وقال: ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرُدَّدُونَ﴾ [١٤٥] [التوبة] وقال: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١٨٣] [الأعراف] وقال: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [٧٥] [مريم] أي: ساقطاً فيها.

جاء في (الكشاف) في قوله تعالى: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَّيْ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: «فإن قلت: كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق والضلال؟ قلت: لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث يشاء، والضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه»^(١).

وجاء في التفسير القيم في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة]: «قيل: في أداة (على) سر لطيف وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدى. وهو حق. كما قال في حق المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل] والله عز وجل هو الحق، وصراطه حق ودينه حق. فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى. فكان في أداة (على) على هذا المعنى ما ليس في أداة (إلى) فتأمله فإنه سر بديع.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر (على) في ذلك أيضاً؟ وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق وعلى الهدى؟

(١) الكشاف ١/٥٦٢.

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان الإتيان بأداة (على) ما يدل على علوه وثبوته واستقامته. وهذا بخلاف الضلال والريب فإنه يؤتى فيه بأداة (في) الدال على انغماس صاحبه وانقماعه وتدسسه فيه كقوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُّونَ﴾ [٤٥] ﴿التوبة﴾ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا صُورُكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [٣٩] ﴿الأنعام﴾ وقوله: ﴿فَذَرَهُمْ فِي عَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [٥٤] ﴿المؤمنون﴾ وقوله: ﴿وَلَهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٌ﴾ [١١١] ﴿هود﴾.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَلِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَّٰهُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [٢٤] ﴿سبا﴾ فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير، وطريق الضلال تأخذ سفلاً هاوية بسالكها في أسفل سافلين^(١).

ومن طريف استعمال حرف الجر قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [١] ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ [٢] ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [٣] ﴿المطففين﴾.

قيل: إنَّ (على) هنا بمعنى (من). وقيل: بل هو متضمن معنى التسلط على الناس والتحكم، أي: تسلطوا عليهم بالاكتيال^(٢).

والظاهر أنه هو الصواب لأن هناك فرقاً بين قولك: (اكتال منه) و (اكتال عليه). ف (اكتال منه) لا يفيد أنه ظلمه حقه وهضمه ماله بخلاف (اكتال عليه)، فإن فيه معنى التسلط والاستعلاء وهذا في المطففين. والمطففون كما بينهم القرآن إذا أخذوا من الناس أخذوا أكثر من حقهم، وإذا أعطوهم أعطوهم أقل من حقهم، ففيه إذن معنى التحكم والجور والظلم، وهو أبلغ من (من) وليست بمعنى (من) ولا تفيد (من) هذا المعنى.

ثم انظر إلى التعبير اللطيف الآخر بعده وهو قوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [٣] ﴿المطففين﴾ ولم يقل: (كالوا لهم) أو (وزنوا لهم) وكلاهما جائز، ولكن في حذف اللام معنى لا يؤديه ذكره، قالوا: وذلك أن اللام تفيد

(١) التفسير القيم ١٥-١٦.

(٢) شرح الدماميني على المغني ٢٨٩/١.

الاستحقاق ولم يعطوهم حقهم، فحذف اللام الدالة على الاستحقاق إشارة إلى أنهم منعوهم حقوقهم^(١).

ومن لطيف حذف حرف الجر قوله تعالى:

﴿وَرَغَبُونَ أَنْ تَكْحُوهُنَّ﴾ [النساء].

فمن المعلوم أنه لا يجوز حذف حرف الجر إلا إذا أمن اللبس وتعين المقصود، فلا يقال: (رغبت زيدا) لأنه لا يدري المقصود أهو (رغبت في زيد) أم (رغبت عنه) أم (رغبت إليه) ولكنه هنا حذف حرف الجر مع أنه لم يتعين أهو (في) أم (عن) وذلك لأنه يراد معنى الحرفين معاً. فالحكم واحد في الرغبة فيهن أو عنهن. وهذا في يتامى النساء إذ يحتمل أن يرغب فيهن لجمالهن أو يرغب عنهن لدمايتهن، والحكم واحد في الحاليتين فلو قال: (في) لظن أنه يراد في حالة الرغبة هذه فقط دون الأخرى. ولو قيل: (عن) لظن أنه يراد في حالة العزوف فقط، فلما حذف عرف أن المقصود جميع أنواع الرغبة عنهن أو فيهن فأطلق لإطلاق الرغبة، وهذا تعبير عظيم جليل جاء في (الكشاف) في هذه الآية: «يحتمل في ﴿أَنْ تَكْحُوهُنَّ﴾ لجمالهن و عن ﴿أَنْ تَكْحُوهُنَّ﴾ لدمايتهن»^(٢).

ومما جاء في التشابه والاختلاف في حروف الجر قوله تعالى:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ وَلِاسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

(١) انظر (معاني النحو) - حروف الجر.

(٢) الكشاف ٤٢٧/١.

فقال في آية البقرة: (وما أنزل إلينا) وقال في آل عمران: (وما أنزل علينا) جاء في (درة التنزيل): « للسائل أن يسأل عن موضعين من هاتين الآيتين: أحدهما قوله: (أنزل إلينا) في الأولى و (علينا) في الثانية .

والموضع الثاني: تكرار (أوتي) في الأولى وتركها في الثانية... .

وشرح ذلك أن (على) موضوعة لكون الشيء فوق الشيء ومجيئه من علو .

و (إلى) المنتهى... . فقله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ﴾ اختيرت فيها (إلى) لأنها مصدرة بخطاب المسلمين فوجب أن يختار له (إلى)... . فالمؤمنون لم ينزل الوحي في الحقيقة عليهم من السماء، وإنما أنزل على الأنبياء ثم انتهى من عندهم إليهم . فلما كان (قولوا) خطاباً لغير الأنبياء وكان لأمرهم كان اختيار (إلى) أولى من اختيار (على) .

ولما كانت سورة آل عمران قد صدرت الآية بما هو خطاب للنبي ﷺ وهو قوله: ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ﴾ كانت (على) أحق بهذا المكان لأن الوحي أنزل عليه... .

وأما الموضع الثاني الذي أعيد فيه لفظه (أوتي) من سورة البقرة ولم يعد فيها بإزائها من سورة آل عمران، فالجواب عنه أن يقال: إنما اختص هناك لأن العشر التي فيها مصدرة بقوله: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ آلِ نِصْحٍ لِّمَا ءَاتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ﴾ [آل عمران] فقدم ذكر إيتاء الكتاب، واكتفى به عن التكرير في الموضع الذي كرر فيه من سورة البقرة على سبيل التوكيد «^(١)» .

ونقول تعليقاً على تعليله تكرار لفظ (أوتي) في البقرة دون آل عمران:

إن تكرار لفظ (أوتي) في البقرة يقتضيه التعبير لأكثر من سبب .

من ذلك: أن الآية في سورة البقرة جاءت في سياق ذكر عدد من الأنبياء وأخبارهم مثل إبراهيم وإسماعيل ويعقوب وبنيه وغيرهم من الأنبياء، فلما جرى

ذكر الأنبياء السابقين ناسب ذلك تكرار الإيتاء لهم. بخلاف آل عمران فإنها ليست في مثل هذا السياق.

ومنها: إن هذه الآية وردت في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة] فلما جرى ذكر هاتين الملتين ناسب ذلك تخصيص نبيهما بالإيتاء، فأفرد ذكر إيتاء موسى وعيسى عن إيتاء الأنبياء الآخرين، ثم جاء بعدهما ذكر الإيتاء للأنبياء الآخرين.

ومن ناحية أخرى إن الآية في آل عمران وردت بعد ذكر أخذ الميثاق من النبيين على الإيمان بسيدنا محمد ونصره إن هم أدركوه قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِيّينَ لَمَّا آتَيْنَهُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران].

كما وردت في سياق التأكيد على الإسلام والإيمان به فقد قال قبلها: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران].

وقال بعدها: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران] فناسب ذلك عدم تكرار الإيتاء للأنبياء فيها، وذلك لأن السياق فيما أوتي سيدنا محمد لا فيما أوتي الأنبياء الآخرون.

فأنت ترى أنه لما كان السياق في البقرة في ذكر الأنبياء ذكر الإيتاء لهم، ولما كان السياق في آل عمران في الإيمان بمحمد ودينه وأخذ الميثاق من الأنبياء على الإيمان به ناسب عدم تكرار الإيتاء للأنبياء.

هذا ومن ناحية أخرى إن الجو التعبيري للبقرة يقتضي تكرار الإيتاء فيها دون آل عمران، وذلك أن مشتقات الإيتاء من نحو آتي وآتينا وأوتي وغيرها وردت في سورة البقرة أكثر مما في آل عمران، فقد وردت في البقرة في أربعة وثلاثين موضعاً، ووردت في آل عمران في تسعة عشر موضعاً، فاقتضى الجو التعبيري في البقرة تكرار لفظ الإيتاء فيها علاوة على ما ذكرنا بخلاف آل عمران. وقد

رأينا في مواضع عدة كيف يراعي القرآن الكريم الجو التعبيري لذكر لفظة في موضع دون آخر.

وأظنك في غنى عن بيان جلالة هذا التعبير وقدره.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد، الزمر ٥].

وقوله:

﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [لقمان].

فقد جاء في آية الرعد باللام (لأجل) وجاء في آية لقمان بـ (إلى) (إلى أجل مسمى)، والفرق بينهما أن ما ورد باللام يفيد التعليل بمعنى: كل يجري لبلوغ الأجل أي كل يجري لهذه الغاية كما تقول: كلهم يجري لوصول الهدف وبلوغه. وأما ما جاء بـ (إلى) فهو يفيد الانتهاء. جاء في (درة التنزيل): «للسائل أن يسأل عن اختصاص ما في سورة لقمان بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وما سواه إنما هو ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

والجواب أن يقال: إنَّ معنى قوله: ﴿يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يجري لبلوغ أجل مسمى. وقوله: ﴿يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ معناه: لا يزال جارياً حتى ينتهي إلى آخر وقت جريه المسمى له.

وإنما خص ما في سورة لقمان بـ (إلى) التي للانتهاء واللام تؤدي نحو معناها لأنها تدل على أن جريها لبلوغ الأجل المسمى، لأن الآيات التي تكتنفها آيات منبهة على النهاية والحشر والإعادة. فقبلها: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَثْكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان] وبعدها: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَتَقُورُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانِبٌ عَنْ وَالِدِهِ﴾ [لقمان] فكان المعنى: كل يجري إلى ذلك الوقت، وهو الوقت الذي تكور فيه الشمس وتنكدر فيه النجوم كما أخبر الله تعالى.

وسائر المواضع التي ذكرت فيها اللام إنما هي في الإخبار عن ابتداء الخلق

وهو قوله:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ أَلْيَدَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْفَعْلُ ﴿٦﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦﴾﴾ [الزمر].

فالأيات التي تكتنفها في ذكر ابتداء خلق السموات والأرض وابتداء جري الكواكب وهي إذ ذاك تجري لبلوغ الغاية، وكذلك قوله في سورة الملائكة إنما هو في ذكر النعم التي بدأ بها في البر والبحر إذ يقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿١٦﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٧﴾﴾ [فاطر] فاختص ما عند ذكر النهاية بحرفها - واختص ما عند الابتداء بالحرف الدال على العلة التي يقع الفعل من أجلها «^(١)».

ومن لطيف ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان].

فقال أولاً: ﴿يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ﴾ ب (من) وقال بعدها: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا﴾ بالباء. وقد ذهب قسم من النحاة إلى أن الباء ههنا تفيد التبعية بمعنى (من)^(٢) أي: يشرب منها. وقيل: بل ضمن شرب معنى (روي)^(٣) أي: يرتوي بها وهو أولى.

وفيها معنى آخر: وذلك أن قوله: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ يدل على أنهم نازلون بالعين يشربون منها من قولك: (نزلت بالمكان) فهو يدل على القرب والشرب، فالتمتع حاصل بلذتي النظر والشراب بخلاف الأول. جاء في (البرهان) أن «العين ههنا إشارة إلى المكان الذي ينبع منه الماء لا إلى الماء نفسه، نحو: (نزلت بعين) فصار كقوله: مكاناً يشرب به»^(٤).

(١) درة التنزيل ٣٧٤-٣٧٥.

(٢) المغني ١/١٠٥، الهمع ٢/٢١.

(٣) المغني ١/١٠٥.

(٤) البرهان ٣/٣٣٨-٣٣٩.

قالوا: وذلك أنه ذكر صنفين من السعداء:

الصنف الأول وهم الأبرار.

والصنف الآخر هم الذين سماهم ﴿عباد الله﴾ وهم أعلى مرتبة ممن قبلهم وذلك أن القرآن يستعمل كلمة (عبد) على معنيين:

المعنى الأول: العبودية القسرية وهي التي يشترك فيها كل الخلق كافرهم ومؤمنهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۖ﴾ [مريم] وهذه العبودية ليس فيها فضل لأحد على أحد.

والمعنى الثاني: العبودية الاختيارية وهي أن يجعل الشخص نفسه عبداً خالصاً لله موطناً نفسه على عبادته متحياً مرضاته ساعياً في طاعته واضعاً نفسه ووقته في خدمة مولاه شأن المولى مع سيده في أقل تقدير. ويتفاضل الناس بمقدار هذه العبودية، فكلما كان الشخص أكمل في عبوديته هذه وأتم كان أقرب إلى سيده. وتطلق هذه الصفة أعني صفة العبودية على أعلى الخلق وهم الأنبياء في مقام التشريف قال تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ لَنَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۖ﴾ [الجن] وقال: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا ۚ﴾ [الإسراء] وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُمْ كَانَتْ عَبْدًا شُكُورًا ۖ﴾ [الإسراء].

من هذا يتبين أن مرتبة الذين سماهم ﴿عباد الله﴾ أعلى من الأبرار. وقد فرق بين النعيمين كما فرق بين الصنفين. فقد قال في الأبرار: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ﴾ وقال: في الآخرين: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۖ﴾. وأنت ترى الفرق واضحاً بين النعيمين. فقد قال في الأبرار:

١- إنهم يشربون من كأس.

٢- وذكر أن هذه الكأس ليست خالصة بل ممتزجة ﴿كَانَتْ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۖ﴾.

وأما الصنف الآخر فهم لا يشربون من كأس يؤتى بها بل يشربون خالصة من العين وهي مرتبة أعلى. ثم قال ﴿يَشْرَبُ بِهَا ۖ﴾ ولم يقل (يشرب)

منها) أي: يرتون بها، هذا علاوة على التمتع بلذة النظر وهم نازلون بالعين.

وهذا التعبير نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيَّاتٍ ﴿١٨﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا عَلَيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْفُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتْمُهُ مِسْكٌ ﴿٢٦﴾ فِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٧﴾ وَمَرَاجُئُ مِنْ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ وَمَرَاجُئُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٨﴾ عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [المطففين].

فذكر الصنفين من السعداء: صنف الأبرار وصنف السابقين المقربين وهم أعلى الخلق. فانظر كيف قال في نعيم الأبرار: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ وَمَرَاجُئُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: إنهم يسقون من رحيق ممزوج بالتسليم، والتسليم أعلى شراب في الجنة وهو يمزج لهم بحسب اعمالهم. في حين قال: ﴿عَيْنًا يُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: إن المقربين يشربون من عين التسليم خالصة، فإنهم كما أخلصوا أنفسهم وأعمالهم لله أخلص لهم الشراب، والجزاء من جنس العمل. وهم لا يشربون منها بل يشربون بها. فهذا - كما ترى نظير ما مر في سورة الإنسان.

ويجربنا هذا التعبير إلى التشابه والاختلاف في التعبير عن الجزاء، إذ هو مرتبط بما نحن فيه ارتباطاً وثيقاً. فهو يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً عجيباً في التعبير عن كل صنف، فمن ذلك ما جاء في سورة الرحمن في وصف نوعين من الجنان. قال:

﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿١٦﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿١٨﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٢٢﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَحَى الْجَنَّتَيْنِ دَانِ ﴿٢٤﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسَ قُبُلُهُنَّ وَلَا جَانٌ ﴿٢٦﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٨﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٩﴾ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٣٠﴾ فَيَأْتِيءَ آلَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣١﴾﴾ [الرحمن].

ثم قال:

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مُدْهَمَّتَانِ ﴿١٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٠﴾ فِيهِمَا عَيْنَتَانِ فَضَاخَتَانِ ﴿٢١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٢﴾ فِيهِمَا خَيْرٌ حَسَنٌ ﴿٢٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٢٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٦﴾ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِلَهُهُنَّ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا جِدْنَ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ عَلَى رَفَرٍ خَضِرٍ وَغَبَرٍ حَسَنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرحمن].

فأنت ترى أنه ذكر نوعين من الجنان بعضهما أعلى من بعض، فذكر الجنان العليا أولاً ثم قال: (ومن دونهما جنتان) أي: أقل منزلة منهما. وإليك طرفاً من التفريق بين الصنفين:

١- قال في وصف الجنتين العليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ في حين قال في الآخرين: ﴿مُدْهَمَّتَانِ﴾ أي: مائلتان للسواد من شدة الخضرة. والوصف الأول أعلى فإن الأفنان تطلق على ضروب عدة من النعم لا يفيدها قوله ﴿مُدْهَمَّتَانِ﴾.

٢- وقال في العليين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَتَانِ تَجْرِيانِ﴾ وقال في الآخرين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَتَانِ فَضَاخَتَانِ﴾. وماء الجري أكثر من ماء النضخ. وقيل في الجري معان أخرى من صفات النعم لا يفيدها قوله نضاختان^(١).

٣- وقال في العليين: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ وقال في الآخرين: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرِيَّانٌ﴾. فانظر أين فاكهة الثنيتين من الأوليين؟ فقد ذكر أن في العليين. من كل فاكهة زوجين على سبيل الاستغراق والعموم، ولم يجعل الوصف كذلك في الآخرين.

٤- وقال في العليين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَاطِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾. وقال في الآخرين: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفَرٍ خَضِرٍ وَغَبَرٍ حَسَنٍ﴾.

(١) انظر الكشف ٣/ ١٩١.

فقد ذكر بطائن الأولى فقال: إنها من إستبرق ولم يذكر ظواهرها لعلوها وللإشارة إلى ان الوصف لا يرقى إليها. قال في (الكشاف): «وإذا كانت البطائن من إستبرق فما ظنك بالظواهر؟»^(١).

في حين ذكر الأخرى فقال: هي رفرف خضر وعبقري حسان. وانظر أين هذا من ذاك؟

٥- وقال في العليين: (فيهن قاصرات الطرف) في حين قال في الآخرين: (حور مقصورات في الخيام).

فانظر هداك الله وصف (القاصرات) بصيغة اسم الفاعل ووصف (المقصورات) بصيغة اسم المفعول ووازن بين الوصفين يتبين الفضل بين الصنفين.

٦- وقال في وصف قاصرات الطرف: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ولم يقل مثل ذلك في المقصورات، وهذا الوصف مدعاة إلى التشويق لإحسان العمل و ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾؟

وانظر إلى دقيقة أخرى عجيبة في وصف هاتين الجنتين ذكرها السلف الصالح رضوان الله عليهم، وهي أن قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُمَا رَيْكًا تَكْذِبَانِ﴾ تكرر في كل جنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة. وتكرر في جهنم بعد قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ سبع مرات بعدد أبواب النار فإن أبواب الجنة ثمانية كما أخبر به الصادق المصدوق، وإن أبواب النار سبعة كما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر].

فانظر هداك الله مقام هذا الكلام ورفعته وعزته. ونظير هذا التفريق في الجزء ما جاء في سورة الواقعة في التفريق بين نعيم السابقين المقربين وهم أعلى الخلق ونعيم أصحاب اليمين.

قال تعالى في السابقين:

(١) الكشاف ١٩١/٣.

﴿وَالسَّيِّقُونَ السَّيِّقُونَ﴾ ١٠ ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ١١ ﴿فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ ١٢ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ١٣ ﴿وَقَبِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ١٤ ﴿عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ﴾ ١٥ ﴿مَتَكِّينَ عَلَيْهَا مُتَقَبِّلِينَ﴾ ١٦ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ ١٧ ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ ١٨ ﴿لَا يَصْدَعُونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ﴾ ١٩ ﴿وَفَكَهْفُهُمْ مِمَّا يَنْخَرِطُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَعَلَّ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ ٢١ ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ٢٢ ﴿كَأَمْثَلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ٢٣ ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ٢٤ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ ٢٥ ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ ٢٦ ﴿[الواقعة].﴾

وقال في أصحاب اليمين:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ ٢٧ ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ ٢٨ ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ ٢٩ ﴿وَضَلَّيْ مَمْدُودٍ﴾ ٣٠ ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ ٣١ ﴿وَفَكَهْفُهُمْ كَثِيرٌ﴾ ٣٢ ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ٣٣ ﴿وَفُورٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ ٣٤ ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾ ٣٥ ﴿فَجَعَلْنَهُمْ أَجْبَارًا﴾ ٣٦ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ٣٧ ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ٣٨ ﴿[الواقعة].﴾

فانظر كيف فرق بين النعيمين:

١- ذكر أن السابقين على سُرُرٍ موضونة وهي المشبكة بالذهب، متكئين عليها متقابلين، ولم يذكر مثل ذلك في أصحاب اليمين بل قال: ﴿وَفُورٍ مَرْفُوعَةٍ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين الحالتين. وقيل: إِنَّ المراد بالفرش ههنا النساء.

٢- وذكر أن السابقين يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين. ولم يذكر نحو ذلك في أصحاب اليمين. بل قال: ﴿وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ﴾ والفرق ظاهر.

٣- وذكر نعيم السابقين فقال: ﴿وَفَكَهْفُهُمْ مِمَّا يَنْخَرِطُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَعَلَّ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ ٢١ في حين قال في أصحاب اليمين: ﴿فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ﴾ ٢٨ ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾ ٢٩ إلى أن قال: ﴿وَفَكَهْفُهُمْ كَثِيرٌ﴾ ٣٢ ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ٣٣. فأين السدر المخضود والطلح المنضود من قوله: ﴿وَفَكَهْفُهُمْ مِمَّا يَنْخَرِطُونَ﴾ ٢٠ ﴿وَلَعَلَّ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ ٢١؟

٤- وذكر أزواج السابقين من الحور العين فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ ٢٢ ﴿كَأَمْثَلِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ ٢٣ ولم يصرح بمثل ذلك لأصحاب اليمين بل قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً﴾ ٣٥ ﴿فَجَعَلْنَهُمْ أَجْبَارًا﴾ ٣٦ ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ٣٧ ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ٣٨. وهذا نظير وصفهن في آيات الرحمن: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

ويقال ههنا ما قيل ثم .

ونكتفي بهذا القدر لبيان التشابه والاختلاف وإن كان يحتمل المزيد من الكلام والأمثلة .

لقد تبين مما مر أن القرآن يختار الألفاظ اختياراً دقيقاً، ويضعها وضعاً فنياً عجبياً. وأن التشابه والاختلاف في قسم من التعبيرات إنما يقتضيه المعنى والمقام. وأنه لم يترك وجهاً من وجوه الاقتضاء إلا راعاه، ليس في سياق الآية وحدها ولا في جو السورة وحدها، بل في عموم القرآن. ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (١٣٤) .

فواصل الآي

من المعلوم أن الآيات القرآنية الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقياً بعضها مع بعض مثل: (تعلمون، تؤمنون، تتقون) ومثل (خبيراً، كبيراً، عليمأ، حكيمأ).

ومن الملاحظ أن القرآن يعنى بهذا الانسجام عناية واضحة لما لذلك من تأثير كبير على السمع ووقع مؤثر في النفس. فقد ترى أنه مرة يقدم كلمة ومرة يؤخرها انسجاماً مع فواصل الآيات، فمثلاً يقول مرة: ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّيَ الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) رَبِّيَ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ [الشعراء] بتقديم موسى على هرون، فيجعل كلمة (هرون) نهاية الفاصلة انسجاماً مع الفواصل السابقة واللاحقة. ومرة يقول: ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّيَ هَارُونَ وَمُوسَىٰ﴾ (٧١) ﴿طه﴾ بتقديم هارون وجعل (موسى) نهاية الفاصلة لأن الألف فيها هي التي تناسب فواصل الآي في سورة طه.

وقد ترى أنه يحذف شيئاً من الكلم لتنسجم مع فواصل الآي، إذ لو أبقى المحذوف لم ينسجم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ (٧٦) أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٧٧) [الشعراء] إذ الأصل: (أو يضررونكم) مقابل: (ينفعونكم) ولكنه حذف المفعول به من (يضررونكم)، إذ لو ابقاه لم تنسجم فاصلة الآية مع بقية الآيات.

وقد يزيد شيئاً في الكلمة للغرض نفسه وذلك نحو قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ (٦٧) [الأحزاب] فقد مد فتحة (السبيل) لتنسجم الفاصلة مع فواصل الآي المتقدمة والمتأخرة.

وقد نرى أنه يبدل كلمة بكلمة أخرى مع أن الآيتين متشابهتان، ذلك لأن فواصل الآي في كل من الموطنين مختلفة، فيجعل في نهاية كل آية ما ينسجم موسيقياً مع أخواتها وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّكُمُ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ (٢٤) [إبراهيم] وقوله: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّكُمُ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٦٨) [النحل] فأتت ترى أن الآيتين متشابهتان إلا في خواتم الآي، فإن فاصلة آية إبراهيم وهو قوله: (كفار، الأصنام). قبلها وبعدها (الأنهار، النهار، كفار، الأصنام).

وفاصلة آية النحل: (رحيم) منسجمة مع فواصل الآيات قبلها وبعدها: (تشكرون، تهتدون، تذكرون).

وقد ترى أنه يضع كلمة في مكان ويضع غيرها في مكان آخر يبدو شبيهاً بالموضع الأول تجنباً للتكرار، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ

أَفْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء] وقوله في مكان آخر من السورة نفسها: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء]. فأنت قد ترى أنه غاير بين الفاصلتين تجنباً للتكرار. ونحو ذلك مما يبدو فيه مراعاة الانسجام الموسيقي واضحاً.

غير أن الذي نريد أن نوكدّه هنا أن القرآن الكريم راعى في كل ذلك أيضاً ما يقتضيه التعبير والمعنى، ولم يفعل ذلك للانسجام الموسيقي وحده، فإنه لو لم يكن الجانب الموسيقي مراعى في ذلك لاقترضه الكلام من جهة أخرى. فهو لم يختم آية الشعراء بكلمة (هرون) وآية طه بكلمة (موسى) مراعاة للانسجام الموسيقي وحده، بل اقترضه الكلام من جهة أخرى. فهو قد راعى الانسجام الموسيقي وما يقتضيه الكلام، فلم يجز موطن على آخر وهذا غاية الإعجاز ونهاية الحسن في الكلام.

وقد تظن أن في كلامنا هذا غلوّاً ومبالغة دفعنا إليهما إحساس ديني وتقديس نكته للقرآن الكريم وليس نابعاً من روح علمية ولا من نفس بريئة من العصبية والهوى. ولا نريد أن ندفع عن أنفسنا هذه التهمة أو نقرها وإنما ندع ذلك للبحث يدفعه أو يقره. غير أننا نود أن نذكر هنا أن كثيراً من علماء السلف ذكروا ذلك، فقد قال الآلوسي رحمه الله راداً على القاضي البيضاوي قوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَءَزِيزٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة]: «ولعله قدم (الرؤوف) وهو أبلغ محافظة على الفواصل»^(١). «وقول القاضي بيض الله تعالى غرة أحواله: لعل تقديم (الرؤوف) مع أنه أبلغ محافظة على الفواصل ليس بشيء، لأن فواصل القرآن لا يلاحظ فيها الحرف الأخير كالسجع، فالمراعاة حاصلة على كل حال، ولأن [الرأفة]^(٢) حيث وردت في القرآن قدمت ولو في غير

(١) أنوار التنزيل ٣٠.

(٢) في الأصل: (ولأن الرحمة) والصواب ما أثبتناه كما هو ظاهر.

الفواصل، كما في قوله تعالى: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد] في وسط الآية ^(١).

صحيح أن قسماً من الذين بحثوا في أسرار التعبير القرآني لم يوفقوا في اكتشاف أسرار التأليف، بحيث تدرك أن تعليلاتهم متكلفة وتأويلاتهم بعيدة، وربما أدركت أيضاً أنه لو كان الكلام على غير هذه الصورة لأولوه وعللوه تعليلاً آخر. ولكن هناك قسم آخر تمكن من أن يضع يده على أنفس الجواهر في التأليف وأن يستكنه أدق أسرار التعبير من غير تكلف ولاغموض.

وأحسب أنه من الأولى أن نضرب أمثلة نوضح بها هذا الادعاء وأن لا نطيل في الكلام وتقرير الأحكام.

فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً وهو قوله تعالى:

﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٦﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء].

فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر. وقد تظن أنه إنما فعل ذلك لفواصل الآي، ولا شك أنه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي، ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضاً فقد ذكر مفعول النفع فقال: (ينفعونكم) لأنهم يريدون النفع لأنفسهم. وأطلق الضر لسبيين:

الأول: أن الإنسان لا يريد الضر لنفسه وإنما يريده لعدوه.

والآخر: أن الإنسان يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر.

فأنت ترى أن النفع موطن تخصيص والضرّ موضع إطلاق، فخص النفع وأطلق الضر. والمعنى أن هذه الآلهة لا تتمكن من الإضرار بعدوكم، كما أنها لا تستطيع أن تضركم فلماذا تعبدونها؟ ولو ذكر المفعول به فقال: (أو يضرونكم) لما أفاد هذين المعنيين. فانظر كيف أن الإطلاق في الضر اقتضاه المعنى علاوة على الفاصلة؟

(١) روح المعاني ٧/٢.

ومثل ذلك قوله تعالى :

﴿ وَأَصْلَ فِرْعَوْنَ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (٧١) [طه].

ولم يقل: (وما هداهم) وذلك أنه أخرج الفعلَ مخرجَ العموم، أي: إن فرعون لم يتصف بصفة الهداية البتة. ولو قال: (وما هداهم) لكان عدم الهداية مقيداً بقومه إذ يحتمل أنه هدى غيرهم لكنه قال: (وما هدى) أي: ما هدى أحداً^(١).

فهو قد أضل قومه ولم يهد أحداً لا من قومه ولا غيرهم.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢١) [إبراهيم].

وقوله:

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١٨) [النحل].

فقد تظن أنه ختم آية إبراهيم بقوله: (كفار) مراعاة لفواصل الآي في هذه السورة، وختم آية النحل بـ (رحيم) مراعاة لفواصل الآي فيها.

ولاشك أن خاتمة كل من الآيتين تنسجم موسيقياً مع الآيات فيهما، ولكن السياق أيضاً يقتضي الفاصلة التي فصلت فيها كل آية من الآيتين، ذلك أن الآية في سورة إبراهيم في سياق وصف الإنسان وذكر صفاته فختم الآية بصفة الإنسان، وأن الآية في سورة النحل في سياق صفات الله تعالى فذكر صفاته. فقد قال في سورة إبراهيم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ۖ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ۖ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۚ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَتَّبِعُ فِيهِ وَلَا خُلُلٌ ﴾ (٢١) [إبراهيم].

فاقتضى ذلك ختم الآية بصفة الإنسان.

(١) انظر كتابنا (معاني النحو)، حذف المفعول به.

وقال في سورة النحل :

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ مِنْهَا تَاْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
 حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
 الْأَنْفُسِ ... هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ
 تُسِيمُونَ ﴿٧﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ... ﴿٩﴾
 وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٠﴾ وَهُوَ
 الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرْكَبُ
 الْفُلُوكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ
 رَوْسًا أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النحل].

فأنت ترى أن الكلام على صفات الله ونعمه على الإنسان فخته بصفته .
 جاء في (معترك الأقران) أنه « إنما خص سورة إبراهيم بوصف المنعم عليه
 وسورة النحل بوصف المنعم ، لأنه في سورة إبراهيم في مساق وصف الإنسان
 وفي سورة النحل في مساق صفات الله وإثبات ألوهيته »^(١).

وقال في (البرهان): « ما الحكمة في تخصيص آية النحل بوصف المنعم
 وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه؟

والجواب: أن سياق الآية في سورة إبراهيم في وصف الإنسان وما جُبِلَ
 عليه، فناسب ذكر ذلك عقيب أوصافه .

وأما آية النحل فسيقّت في وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وتحقيق
 صفاته، فناسب ذكر وصفه سبحانه »^(٢) .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿فَأَتَى السَّحْرَةَ سَاجِدًا قَالُوا أَمَّا رَبُّ هَٰؤُلَاءِ هُمْ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه].

(١) معترك الاقران ٤٤/١ وانظر ملاك التأويل ٥٨٠-٥٨١ .

(٢) البرهان ٨٦-٨٧ .

وقوله:

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الشعراء].

قدم في (طه) ذكر هرون وفي (الشعراء) ذكر موسى. وقد تظن أن ذلك ما يقتضيه أواخر الآي. ونقول: صحيح أن أواخر الآي في سورة (طه) تقتضي أن يكون (موسى) في آخر الآية، وفي (الشعراء) تقتضي أن تكون كلمة (هرون) هي الفاصلة، ولكن هناك ملحظ آخر يقتضي تقديم ما قدم وتأخير ما أخر، ولو لم تكن أواخر الآي كذلك. وانظر إلى الفرق بين القصتين في السورتين:

١- إن ذكر (هرون) تكرر في سورة (طه) كثيراً وقد جعله الله شريكاً لموسى في تبليغ رسالته، في حين لم يرد في سورة الشعراء إلا قليلاً. من ذلك قوله في سورة طه:

أ - ﴿ وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي ﴿٢٤﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٢٥﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٢٧﴾ ﴾ [طه].

ب - ﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَالْحُوكُ بِأَيَّتِي وَلَا نُنْيَا فِي ذِكْرِي ﴿١٢﴾ ﴾ [طه]. فقد أمر كلا من موسى وهرون بالذهاب بآياته ولم يخص موسى بذلك.

ج - وكرر ذلك فقال: ﴿ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْسَ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿١٨﴾ ﴾ [طه].

د - وكان الجواب صادراً منهما معاً: ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَا ﴿١٩﴾ ﴾ [طه].

هـ - وقد طمأنهما ربهما معاً فقال: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَصْمَعُ وَارْأَى ﴿٢١﴾ ﴾ [طه].

و - وأمرهما معاً فقال: ﴿ فَأَنبِأَهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِِبْهُمْ فَدَحِشْنَاكَ بِأَيَّتِهِ مِنْ رَبِّكَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [طه].

ز - وكان خطاب فرعون لهما معاً: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٢٩﴾ ﴾ [طه]. ولم يقل له: فمن ربك؟

ح - ونسبهما كليهما إلى السحر فقال: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَسَاحِرُونَ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٣٢﴾ ﴾ [طه].

ط - وقد ورد تخليف موسى لهرون في قومه فنصح لهم في غيبته . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ﴾ [طه] .

ي - ولقد عاتب موسى أخاه هرون بشدة : ﴿ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ ﴾ [طه] .

في حين لم يرد هرون سورة الشعراء إلا قليلاً وهو قوله :

أ - ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ [الشعراء] .

ب - ﴿ فَأَذْهَبَ أَشَاطِينَنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء] .

وفيما كان الخطاب في آيات طه موجهاً إلى موسى وهرون معاً، كان موجهاً إلى موسى وحده في الشعراء : ﴿ قَالَ لَيْنَ اتَّخَذَتِ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُوتِينَ ﴾ [الشعراء] .

وقد نسب موسى وحده إلى السحر ولم ينسب معه هرون كما جاء في طه فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٤] يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴾ [الشعراء] .

ولم يرد ذكر لهرون بعد هذا .

فأنت ترى أن القصة في طه مبنية على التثنية وأنها في الشعراء مبنية على الإفراد .

٢- هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إنه ذكر في آيات طه خوف موسى ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ [طه] ولم يذكر حالة الخوف هذه في الشعراء .

فأنت ترى أنه ذكرت جوانب الكمال والقوة في موسى في الشعراء، ولم تذكر حالة الضعف البشري الذي اعتراه . فاقضى كل ذلك المغايرة في التعبير بين القصتين، وأظنك في غنى عن أن أقول لك : لو قيل لك : قدم وآخر بين الإسمين حسبما يقتضيه السياق لقدّمت هرون على موسى في طه، وموسى على هرون في الشعراء .

وعلاوة على ذلك هناك طريقة أخرى، وهي أن سورة (طه) تبدأ بالحرفين: الطاء والهاء. وسورة الشعراء تبدأ بـ (طسم). فكلتا السورتين تبدأ بالطاء غير أن الحرف الأخير من (طه) هو الهاء، وهو أول حروف هرون وليس فيها حرف من حروف موسى. والحرف الأخير من (طسم) هو الميم وهو أول حرف من حروف (موسى) وليس فيها حرف من حروف هرون. أفلا يزيد حسناً على حسن تقديم هرون على موسى في طه وتقديم موسى على هرون في الشعراء؟

وقد ترى ذلك إغراقاً في التعليل، وربما كان ذاك، إلا أن العجيب أن كل سورة تبدأ بالطاء ترد فيه قصة موسى في أوائلها مفصلة قبل سائر القصص، مثل: (طه، وطس، وطسم في القصص، وطسم في الشعراء) وليس في المواطن الأخرى مما يبدأ بالحروف المقطعة مثل ذلك. فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحروف (ط) قصة موسى مفصلة في أوائل السورة. والملاحظة الأخرى أن ما يبدأ بـ (طسم) تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـ (طس) فكان زيادة الميم إشعار بزيادة القصة. فانظر يا رعاك الله أي سر من أسرار التعبير هذا؟

ومن بديع الفاصلة قوله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: (المبطلون) وختم الآية الثانية بقوله: (الكافرون) وذلك لأن كل كلمة مناسبة للسياق الذي وردت فيه. فالأولى وردت في سياق الحق، ونقيض الحق الباطل. والثانية في سياق الإيمان، ونقيض الإيمان الكفر. قال تعالى في الآية الأولى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر]. وقال في الآية الثانية: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [آل] فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ. وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر].

جاء في (البرهان) للكرماني في اختيار هاتين الفاصلتين أن: « الأول متصل بقوله: ﴿قُضِيَ بِالْحَقِّ﴾ نقيض الحق الباطل. والثاني متصل بإيمان غير مجد، ونقيض الإيمان الكفر »^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [السجدة].

« فانظر إلى قوله في صدر الآية التي الموعظة فيها سمعية: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ ولم يقل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾. وقال بعد ذكر الموعظة: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأنه تقدم ذكر الكتاب وهو مسموع أو إخبار القرون وهو مما يسمع.

وكيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ وقال بعدها: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأن سوق الماء إلى الأرض الجرز مرئي »^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُونُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص].

فانظر كيف ختم آية الليل بقوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لأن الليل يصلح فيه السمع وختم آية النهار بقوله: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ لأنه صالح للإبصار؟

في (البرهان) في هاتين الآيتين: افاقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع ولا يصلح للإبصار.

(١) البرهان ٤٢١.

(٢) البرهان ٨٠/١ وانظر الإتيان ١٠١/٢.

وكذلك قال في الآية التي تليها: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ يُآتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٦]... فاقترضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إذ الظرف مضى صالح للإبصار. وهذا من دقيق المناسبة المعنوية «^(١)».

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠].

وقوله أيضاً:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٢٦].

في حين قال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَخْتَرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

فانظر كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلمه ولا نراه بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وجاء فيمن يرى ويبصر من شياطين الإنس بقوله: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فانظر دقة هذا التعبير وجماله. جاء في (التفسير القيم): «وتأمل حكمة القرآن كيف جاء بالاستعاذة من الشيطان الذي نعلم وجوده ولا نراه بلفظ: ﴿السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ في الأعراف وحمل السجدة. وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويؤرون بالإبصار بلفظ: ﴿السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ في سورة حم المؤمن... لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها في القلب يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها. وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرَى بالبصر ويُذَرَكُ بالرؤية والله أعلم «^(٢)».

(١) البرهان ٨٢/١ وانظر ملاك التأويل ٧٦٢/٢.

(٢) التفسير القيم ٥٨٦.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف].

وقوله:

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْئِدَةِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].

فقدم العلم على الحكمة في سورة (يوسف)، وقدم الحكمة على العلم في (الأنعام)، وذلك لأنه في سورة يوسف تقدم قوله: ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ وهذا موطن علم فقدم العلم لذلك، وفي الأنعام موطن تشريع فقدم الحكم لذلك. جاء في (البرهان): «وأما تقديم الحكيم على العليم في سورة الأنعام فلأنه مقام تشريع الأحكام. وأما في أول سورة يوسف فقدم العليم على الحكيم لقوله في آخرها: وعلمتني من تأويل الأحاديث»^(١).

ومن الطريف أن نذكر هنا أنه حيث اجتمع الاسمان: (العليم والحكيم) في سورة الأنعام قدم الحكيم على العليم^(٢) وحيث اجتمعا في سورة يوسف قدم العليم على الحكيم^(٣) وذلك لأن مواطن يوسف كلها مواطن علم أولاً فقدم (العليم) ومواطن الأنعام مواطن حكمة أو حكم فقدم (الحكيم)، مما يدل على أن كل كلمة إنما وضعت مقصودة قصداً.

فانظر أي تنسيق وأي دقة في هذا الكلام العزيز؟

ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَسْهَرْنَا يَرْسُلَ مَنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [الرعد].

(١) البرهان ٣/ ٢٦٢.

(٢) انظر الآيات ٨٣، ١٢٨، ١٣٩.

(٣) انظر الآيات ٦، ٨٣، ١٠٠.

وقوله:

﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحج].

فقال في آية الرعد: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ وقال في آية الحج: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ وذلك أنه ذكر في آية الرعد المستهزئين وذكر في آية الحج المكذبين. والمستهزئون أعظم جرماً من المكذبين، لأنهم يجمعون السخرية إلى التكذيب فكان الوعيد لهم أشد. إذ رب نكير لا يصحبه عقاب، فجعل كل وعيد بإزاء جرمه الذي يناسبه.

جاء في (ملاك التأويل): « للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ والثانية بقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ مع تساوي الآيتين في مقصود الوعيد بمكذبي الرسل عليهم السلام.

والجواب والله أعلم، أن العقاب أشد موقعاً من النكير، لأن الإنكار قد يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل. أما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقوب جريمته. وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والاستهزاء أمرٌ مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة فناسبها الإفصاح بالعقاب.

أما آية الحج فإن الوعيد فيها للمذكورين بالتكذيب، ولم يذكر منهم استهزاء قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ... ﴾ فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب... فناسب النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من تقدم فيها، ولم يكن عكس الوارد ليناسب «^(١)».

(١) ملاك التأويل ٢/ ٥٦٨-٥٦٩.

ومنه قوله تعالى على لسان موسى للرجل الصالح عندما خرق السفينة:

﴿أَخْرَقَهَا لِنُغْرَقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ (٧) [الكهف].

وقوله له عندما قتل الغلام:

﴿أَفَلَتَ نَفْسًا رَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧) [الكهف].

فوصف خرق السفينة بأنه شيء إمر، ووصف قتل الغلام بأنه شيء نكر. وذلك أن خرق السفينة دون قتل الغلام شناعة فإنه إنما خرق السفينة لتبقى لما فيها. وهذا لا يبلغ مبلغ قتل الغلام بغير سبب ظاهر. والإمر دون النكر، فوضع التعبير في كل موضع بما يناسب كل فعل. وعن قتادة: النكر أشد من الإمر. فجاء كل على ما يلائم، ولم يكن ليحسن مجيء أحد الوصفين في موضع الآخر^(١).

ومنه قوله تعالى:

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥) [التوبة].

وقوله:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٧) [التوبة].

فقد قال في الأولى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وفي الثانية: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

« ووجه ذلك - والله أعلم - أن الآية الأولى أعقب بها ما تقدمها متصلاً بها من الآي في كفار مكة وفعلهم مع رسول الله ﷺ في التضيق والإخراج... فأمر تعالى بقتالهم ووعد بتعذيبهم وخزيهم والنصر عليهم وشفاء صدور من آمن... قال تعالى: ﴿فَنَلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١) [التوبة].

ثم قال: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾... أي: من أسلم منهم بعد ما صدر من اجتهاده في الأذية والصد عن سبيل الله ثم قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: بما في

(١) انظر ملاك التأويل ٦٥٢/٢.

القتال أو طي ما جرى من ذلك كله بتقديره السابق أولاً... وما في ذلك من الحكمة...

وأما الآية الثانية فسببها والله أعلم ما جرى يوم حنين من تولي الناس مدبرين حين ابتلوا بإعجابهم بكثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً ولم يثبت مع رسول الله ﷺ في ذلك اليوم أحد، إذ لم يبرح عليه السلام من مكانه فلم يثبت معه إلا القليل... فختمت هذه الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تأنيساً لمن فر من المسلمين في ذلك اليوم، وبشارة لهم بتوبة الله عليهم، وأن ما وقع منهم من الفرار مغفور لهم رحمة من الله، فجاء كل من هذا الباب على ما يناسب ويلائم ولا يلائم خلافاً^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ [هود].

وقوله:

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل].

وسر هذا الاختلاف أن آية هود فيمن صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم وضوعف لهم العذاب، وآية النحل فيمن صدّ هو ولم يصدّ غيره، فكان الأولون أخسر من الآخرين فجاء لهم باسم التفضيل. قال تعالى في (هود): ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [١١] أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانْ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَضْعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ [١٢] أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [١٣] لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ [١٤].

وقال في (النحل): ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [١٥] أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاطِرُونَ [١٦] لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ [١٧] جاء

(١) ملاك التأويل ١/ ٤٥٦-٤٥٧.

في (البرهان) للكرماني أن قوله في هود: ﴿هُمُ الْآخَسِرُونَ﴾ «لأن هؤلاء صدوا عن سبيل الله وصدوا غيرهم فَضَلُّوا وأضلوا فهم الآخسرون يُضَاعَفُ لهم العذاب، وفي النحل صدوا فهم الخاسرون»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة].

وقوله:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة].

فقد أعاد الضمير في الآية الأولى على الصلاة وختم الآية بالكلام عليها. وختم الكلام في الآية الثانية على الصبر، وذلك أن الكلام في الآية الأولى على الصلاة فقد تقدم ذكر الصلاة والمطالبة بها. قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَآزَكُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ [البقرة] بخلاف قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة] فقد ختم الآية بالكلام على الصبر وذلك لأن الكلام عليه والسياق يقتضيه، فقد قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة] وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة].

فلما كان السياق في الموطن الأول عن الصلاة، أعاد الضمير عليها وختم الآية بها. ولما كان السياق في الموطن الثاني عن الصبر، ختم الآية بالكلام على الصابرين^(٢).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

(١) البرهان ٢٣٢ وانظر درة التنزيل ٢١٩-٢٢٠.

(٢) معاني النحر ١/٦٨-٦٩.

وقوله مرة أخرى في السورة نفسها:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء].

فقد ختم الآية الأولى بقوله: ﴿ فَقَدْ أَفْرَقْنَا إِنَّمَا عَظِيمًا ﴾ وختم الآية الثانية بقوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾. وسبب هذا الاختلاف أن الآية الأولى في سياق الكلام على افتراءات اليهود وكذبهم، فقد قال قبل هذه الآية: ﴿ مَنِ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ [النساء] وقال بعدها: ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِمْ إِنَّمَا مِثْلُنَا ﴾ [النساء] فناسب ذلك قوله: ﴿ فَقَدْ أَفْرَقْنَا إِنَّمَا عَظِيمًا ﴾.

وأما الآية الأخرى فهي في المشركين من غير أهل الكتاب، وهم لم يفتروا على الله لأنهم ليسوا أصحاب كتاب أصلاً وإنما هم ضالون، فناسب ذلك قوله: ﴿ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ ثم انظر كيف قال بعدها على لسان الشيطان: ﴿ وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيتُهُمْ ﴾ [النساء].

فالكلام في سياق الضلال والإضلال فناسب ذلك هذه الخاتمة. جاء في كتاب (من بلاغة القرآن) في سر هذا الاختلاف بين الآيتين: « ونستطيع أن نلمس سر هذا الاختلاف في أن الآية الأولى وردت في حديث عن اليهود الذين افتروا على الله الكذب، مما ناسب أن تختتم الآية بالافتراء الذي اعتاده اليهود وهم أهل الكتاب.

أما الآية الثانية فقد وردت في حديث عن المشركين، وهم في إشراكهم لا يفترون ولكنهم ضالون ضلالاً بعيداً^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْأُولَادَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ [١٨] ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّمَا إِنَّمَا عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [١٩] ﴿ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة].

(١) من بلاغة القرآن ٨٥.

ختم الآية الأولى بالسمع والعلم لما قال قبل: ﴿فَمَنْ بَدَّلُوا بَعْدَ مَا سَمِعُوا﴾ وختم الآية الثانية بالمغفرة والرحمة لما قال قبلها: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ وهذا نظير قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لَعَنَ اللَّهُ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بِلَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة].

فقد ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما قال: قبلها ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾. جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله في آية الوصية: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، خصّ السمع والعلم بالذكر لما في الآية من قوله: ﴿بَعْدَ مَا سَمِعُوا﴾ ليكون مطابقاً. وقال في الآية الأخرى بعدها: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لقوله قبله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ فهو مطابق معنى»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقوله:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود].

فقد ختم آية الأنعام بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ وختم آية هود بقوله: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ ذلك لأن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ. قال تعالى:

﴿يَمْعَشَرِ الْيَمِينَ وَالْأَيْسَى أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ لَحَيَوُةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاثِرُونَ كَافِرِينَ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أن سياق الكلام في ذكر الرسل والإنذار والتبليغ وتبيان أن الله لم يهلك أقواماً غافلين لم يندروا ولم يكلفوا، فإن من لم يندر فهو غافل. قال تعالى:

(١) البرهان ١٠٤.

﴿لِنُنْذِرَ قَوْمًا مَّا أُنْذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس] وما كان الله ليهلك مثل هؤلاء الأقوام، ولذا ختمها بقوله ﴿وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾.

وأما آية هود فهي في الكلام على الإصلاح والنهي عن الفساد في الأرض ولذا ختمها بالإصلاح قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَنَوَتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ وما كان ربك ليهلك القُرى بظلم وأهلها مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ [هود].

فناسب ختام كل آية السياق الذي فيه. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: لم قال في الأولى: ﴿غَافِلُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿مُصْلِحُونَ﴾؟»

والجواب: إن ذلك إشارة إلى ما تقدم من العقاب في قوله: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَّكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ وبعده: ﴿يَنْمَعَشِرَ الْجَنُّ وَالْإِنسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم مَّا يَأْتِي وَيسْذُرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام] يعني: العقاب في يوم القيامة، لأنه لم يكن ربك ليفعله من قبل أن يحتج عليهم برسل يهدونهم وينذرونهم ما وراءهم من محذورهم، ولا يتركونهم في غفلة من أمورهم. فافتضى هذا المكان أن يقال لهم: لم يؤخذوا وهم غافلون بل كانوا منبهين بالأعذار والإنذار على السنة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وأما الموضع الثاني الذي ذكر فيه ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ فللبناء على ما تقدم وهو قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَتَنَوَتْ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ آمَنَّا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود] فدل على أن القوم كانوا مفسدين حتى نهاهم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض. وكان نقيض الفساد في الأرض الإصلاح فقال: لم يكن الله ليهلكهم وهم مصلحون. فافتضى ما تقدم في كل آية ما اتبعت من الغافلين والمصلحين^(١).

(١) درة التنزيل ١٣١-١٣٢.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود].

وقوله:

﴿وَلَا تَمْسُوْهَا بِسَوْءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء].

ففي آية الأعراف وصف العذاب بالإيلام، وفي هود بالقرب، وفي الشعراء وصف اليوم بالعظمة، وذلك أنه في الأعراف ذكر قوم صالح وكثرة تحديهم واستهزائهم وعتوهم ولم يذكر مثل ذلك في السور الأخرى. قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد ذكر عنهم أنهم:

١- أعلنوا كفرهم (إنا بالذي آمنتم به كافرون).

٢- وأنهم عتوا عن أمر ربهم.

٣- وأنهم تحدوه وقالوا: إئتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين.

وليس الأمر كذلك في المكانين الآخرين. فقد قال في هود: ﴿قَالُوا يَنْصَلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [هود].

فليس فيه مثل ذلك التحدي ولم يذكر أنهم عتوا عن أمر ربهم حتى أنهم لم يصرحوا بكفرهم، بل ذكروا أنهم في شك ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾. فأنت ترى أن السياق في كل من الوطنين يختلف عن الآخر.

وكذلك ما جاء في سورة الشعراء فإنه لم يذكر تحديهم ولا عتوهم واستكبارهم، فاستحقوا أن يذكر لهم العذاب الأليم في سورة الأعراف.

وأما في سورة هود فقد وصف العذاب بالقرب لما ذكر قبله: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود].

وأما في الشعراء فقد وصف اليوم لما ذكر قبلها: ﴿هَآ شَرِبْتُ وَلَكُمَّ شَرِبْتُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء] جاء في (البرهان) للكرماني في سر اختلاف هذه الآيات أنه في سورة الأعراف «بالغ في الوعظ فبالغ في الوعيد فقال: عذاب أليم.

وفي هود لما اتصل بقوله: (تمتعوا في داركم ثلاثة أيام) وصفه بالقرب فقال: ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾.

وزاد في الشعراء ذكر اليوم لأن قبله: ﴿هَآ شَرِبْتُ وَلَكُمَّ شَرِبْتُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ والتقدير: لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، فختم الآية بذكر اليوم فقال: عذاب يوم عظيم»^(١).

لقد تبين مما مر أن القرآن الكريم لا يعنى بالفاصلة على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال والسياق، بل هو يحسب لكل ذلك حسابه، فهو يختار الفاصلة مراعى فيها المعنى والسياق والجرس ومراعى فيها خواتم الآي وجو السورة ومراعى فيها كل الأمور التعبيرية والفنية الأخرى، بل مراعى فيها إلى جانب ذلك كله عموم التعبير القرآني وفواصله، بحيث تدرك أنه اختار هذه الفاصلة في هذه السورة لسبب ما، واختار غيرها أو شبيهاً بها في سورة أخرى لسبب دعا إليه. وجمع بين كل ذلك ونسقه بطريقة فنية في غاية الروعة والجمال حتى كأنك تحس أنها جاءت بصورة طبيعية غير مقصودة، مع أنها في أعلى درجات الفن والصياغة والجمال. فما أجله من كلام وما أعظمه من تعبير.

(١) البرهان ١٨٣ وانظر درة التنزيل ١٥٦.

السمة التعبيرية للسياق

قد تكون للسياق الذي ترد فيه الآية سمة تعبيرية خاصة، فتتردد فيه ألفاظ معينة بحسب تلك السمة.

وقد يكون للسورة كلها جو خاص وسمة خاصة فتطبع ألفاظها بتلك السمة. وهذا واضح وكثير في القرآن الكريم، إذ كثيراً ما نرى تعبيرين يتشابهان إلا في لفظ واحد. وإذا ما دققنا النظر وجدنا أن كل لفظة اختيرت بحسب السمة التعبيرية لهذا السياق أو ذاك. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ [النحل].

وقوله:

﴿ وَيَذَاهَبُ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ﴾ [الجاثية].

في حين قال:

﴿ وَيَذَاهَبُ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر].

وقال:

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ [الزمر].

فاختار لفظ (العمل) في النحل والجاثية ولفظ (الكسب) في الزمر. قيل: وسبب اختيار لفظ (العمل) في النحل والجاثية هو وقوع الآيتين بين ألفاظ العمل، وسبب اختيار لفظ (الكسب) في الزمر هو وقوع الآيتين بين ألفاظ الكسب.

فقد جاء في النحل قوله تعالى: ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿ وَتُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ [النحل].

وجاء في الجاثية قوله ﴿ الْيَوْمَ يُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾.

في حين وقع لفظ (الكسب) في الزمر بين ألفاظ الكسب، وذلك نحو قوله تعالى:

﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر] وقوله ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾^(١) فخصت كل سورة بما اقتضاه سياقها^(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن سورة الزمر هي أكثر سورة تردد فيها لفظ (الكسب) من بين هذه السور الثلاث، فقد ترددت فيها هذه اللفظة خمس مرات^(٢) في حين لم ترد هذه اللفظة في سورة النحل البتة، وأما في سورة العجائية فقد وردت ثلاث مرات^(٣). فوضع كل لفظة في الموطن الذي يقتضيها. ومن ذلك قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْسُكُ﴾ [طه].

وقوله:

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل].

فقال في (طه): (أتاها) وفي (النمل): (جاءها). قيل: وسبب ذلك أنه كثر «لفظ الإتيان في طه نحو: فأتياه [٤٧]، فلنأتينك [٥٨]، ثم أتى [٦٠]، ثم أتتوا [٦٤]، حيث أتى [٦٩].

ولفظ (جاء) في النمل أكثر نحو: فلما جاءتهم [١٣]، وجئتكم [٢٢]، فلما جاء سليمان [٣٦]»^(٤).

ولإيضاح ذلك نذكر أن ألفاظ (الإتيان) في طه أكثر منها في النمل، وأن ألفاظ المجيء في النمل أكثر منها في طه، فقد وردت ألفاظ الإتيان في طه

(١) انظر البرهان للكرمانى ٢٧٣-٢٧٤، ٤١٦، درة التنزيل ٤٠٨-٤٠٩، ملاك التأويل ٦٠١/٢-٦٠٢.

(٢) انظر الآيات ٢٤، ٤٨، ٥٠، ٥١ (مرتين).

(٣) انظر الآيات ١٠، ١٤، ٢٢.

(٤) البرهان للكرمانى ٣١٢-٣١٣.

خمس عشرة مرة وفي النمل ثلاث عشرة مرة. ووردت ألفاظ المجيء في طه أربع مرات وفي النمل ثماني مرات. فاختير لفظ المجيء في النمل والإتيان في طه، ووضع كل لفظ في الموضع الذي يقتضيه.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة).

وقوله:

﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام).

فاختار في سورة البقرة لفظ (الله) وفي الأنعام لفظ (الرب). ومن أسباب هذا الاختيار والله أعلم أن لفظ (الله) تردد في البقرة أكثر مما في الأنعام، وأن لفظ (الرب) تردد في الأنعام أكثر مما في البقرة. فقد ورد لفظ (الله) في البقرة (٢٨٢) مائتين واثنين وثمانين مرة، وفي الأنعام (٨٧) سبعا وثمانين مرة. ووردت كلمة (رب) في البقرة (٤٧) سبعا وأربعين مرة، وفي الأنعام (٥٣) ثلاثاً وخمسين مرة. فناسب أن يضع كلمة (الله) في البقرة وكلمة (رب) في الأنعام.

وعلاوة على هذا يقتضي السياق وضع كل لفظة في المكان الذي وضعت فيه، فإن آية البقرة في سياق العبادة، ولفظ (الله) أولى أن يوضع في هذا السياق لأنه من الألوهية، والألوهية هي العبادة قال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة) ويدل على ذلك أنه لما قال في سورة النحل: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل) قال بعدها: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النحل).

وأما سياق آية الأنعام ففي الأطعمة ولفظ (الرب) ألصق بهذا السياق، لأن الرب من التربية والتنشئة^(١).

(١) انظر البرهان للكرمانى ١٠٣، درة التنزيل ٤٢-٤٣.

ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر].

وقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس].

فأظهر الناس في آية المؤمن وأضرهم في آية يونس، وذلك أن السياق الذي وردت فيه آية المؤمن تكرر فيه لفظ الناس، بخلاف السياق في سورة يونس إذ بُني على الإضمار. جاء في (درة التنزيل) في هاتين الآيتين: «للسائل أن يسأل فيقول: كيف أظهر الناس في موضع الإضمار في سورة المؤمن، وقد أضرهم في موضع الإظهار في سورة يونس؟ وهل كان جائزاً وقوع هذا موقع ذاك؟...»

فأما قوله في سورة المؤمن: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾... فإنه محمول على الآيات التي قبله وهي قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر].

وقال بعده: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [غافر]. ثم جاء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر].

فأظهر ذكر الناس كما أظهر في الآيتين قبلها للمشاكلة والملاءمة وليس كذلك الأمر في سورة يونس عليه السلام، لأن الكلام هناك بني على الإضمار في الآية المتقدمة. ألا ترى أنه قال تعالى مخبراً عمن يدخل من الظالمين النار: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس]. فانقضى هذا الكلام واستأنف خبر عن القوم الذين بُعث رسول الله ﷺ إليهم وقال: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس]. فأضر ذكره في قوله: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ﴾.

ثم قال بعده: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس]. فأضر ما أضاف إليه (أكثر). ثم انتهى إلى

قوله بعده: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس] فاقترض ما بني عليه الكلام في هذه الآية أن يكون ما بعد الشرط بلفظ الإضمار كما كان ما تقدّمه «^(١)».

وقد تكون كثرة اللفظ وغلبته مطلقة في السورة كلها لا في السياق الذي تقع فيه الآية وحده. فمن ذلك قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه].

وقوله:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [الزخرف].

فقد ذكر (جعل) في الزخرف و (سلك) في طه، ولعل من بين أسباب هذا الاختيار أن فعل الجعل ورد في الزخرف أكثر مما في طه، فقد ورد في الزخرف اثنتي عشرة مرة وورد في طه ثلاث مرات^(٢). فاختار الجعل في الزخرف والسلوك في طه، والله أعلم.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿وَلَيْن رُدِّدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف].

وقوله:

﴿وَلَيْن رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت].

فقد قال في (الكهف): (رددت) وقال في (فصلت): (رجعت)، ولو رجعنا إلى استعمال هذين اللفظين ومشتقاتهما في كل من السورتين لوجدنا أن لفظ (الرد) ورد في الكهف ثلاث مرات^(٣) ولم يرد في فصلت إلا مرة واحدة^(٤)، وأما الرجع

(١) درة التنزيل ٤١٢-٤١٣.

(٢) انظر الآيات ٢٩، ٥٣، ٥٨.

(٣) انظر الآيات ٣٦، ٦٤، ٨٧.

(٤) انظر الآية ٤٧.

فلم يَرِدْ في الكهف وقد ورد في فصلت مرتين^(١). فوضع كل فعل في مكانه الذي هو أليق به.

ومن بديع ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنْ أَلَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج].

وقوله:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة].

فقد قال في آية الحج، (الله) وقال في آية السجدة، (ربك) ولو نظرنا في استعمال هاتين اللفظتين في كل من هاتين السورتين لرأينا أنه وضع كل لفظة بحسب كثرة ورودها في كل سورة. هذا علاوة على اختيار كل لفظة بحسب ما يقتضيه المقام من ناحية المعنى أيضاً. فقد وردت لفظة (الله) في سورة الحج خمساً وسبعين مرة في حين لم ترد هذه اللفظة في السجدة إلا مرة واحدة^(٢).

وقد وردت كلمة (رب) في السجدة عشر مرات، ووردت في سورة الحج ثمانين مرات، فوضع كل لفظة في السورة التي كثر استعمالها فيها.

هذا علاوة على ما في الآيتين من أمور فنية أخرى. فإنه لما ذكر الاختلاف في آية السجدة (فيما كانوا فيه يختلفون) أكد الفصل بـ (هو) لأن الأصل في الفصل أن يكون عند الاختلاف. ولما لم يذكر الاختلاف في سورة الحج لم يؤكد.

ونحو هذا قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [سبأ].

وقوله:

﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [سبأ].

(١) انظر الآيتين ٢١، ٥٠.

(٢) انظر الآية ٤.

في حين قال:

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ [العنكبوت].

فاختار كلمة (ربي) في سورة سبأ، وكلمة (الله) في العنكبوت، وذلك أن لفظ (الرب) ورد في سبأ أكثر مما في العنكبوت، ولفظ (الله) ورد في العنكبوت أكثر مما في سبأ. فقد ورد لفظ (الرب) في سبأ أربع عشرة مرة، وورد في العنكبوت خمس مرات. وورد لفظ (الله) في العنكبوت إثنين وأربعين مرة، في حين لم يرد في سبأ إلا ثماني مرات، فانظر هذا الاختيار العجيب في استعمال الكلمات.

ونحو ذلك قوله تعالى:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء].

وقوله:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف].

وقوله:

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الزمر].

في حين قال:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأنعام].

فأنت ترى أنه قال في الأنعام وحدها: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ولم يقل مثل ذلك في سائر سور القرآن، في حين قال: (خلقكم) في المواطن الأخرى، ذلك أن الفعل (أنشأ) ورد في الأنعام في أربعة مواطن^(١) ولم يرد في السور الثلاث الأخرى أصلاً، فاستعمله للتناسب اللفظي في هذه السورة دون غيرها.

ومن لطيف هذا النوع وبديعة قوله تعالى:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود].

(١) انظر الآيات ٦، ٩٨، ١٣٣، ١٤١.

وقوله:

﴿ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

فقد قدم الفاء وأخر (ثم) في آية هود، وقدم (ثم) وأخر الفاء في آية الأعراف. ومن الطريف أنه حيث اجتمعت ثم والفاء في سورة الأعراف، قدمت (ثم) على الفاء وفي هود بالعكس. وهذا أغرب شيء وأعجبه. قال تعالى في الأعراف:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾

وقال:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ... فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً...﴾ [الأعراف].

وقال:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف].

وقال:

﴿ثُمَّ كِيدُونَ فَلَا تُنْظِرُونَ﴾ [الأعراف].

وقد يكون مفتتح السورة دالاً على تردد قسم من الألفاظ في السورة، وذلك يبدو جلياً فيما يبدأ بالأحرف المقطعة نحو: ألم وحم وطس ونحوها، فكثيراً ما تتردد الألفاظ التي تلي هذه الأحرف على نمط معين في السورة أو يكثر استعمالها فيها. فمن ذلك تردد لفظ (الكتاب) و (القرآن) وغيرهما من الألفاظ. فنرى أن لفظي الكتاب والقرآن مثلاً يترددان في السورة على نحو معين، وذلك أن كل سورة يلي الأحرف المقطعة فيها ذكر (الكتاب) وحده ولم يذكر معه (القرآن) تتردد فيها هذه اللفظة أكثر من لفظ (القرآن) وربما لم ترد فيها لفظة (القرآن). وكل سورة يلي فيها الأحرف المقطعة ذكر (القرآن) وحده تتردد فيها لفظة (القرآن) أكثر من لفظ (الكتاب) وربما لم ترد فيها لفظة (الكتاب) ولا مشتقات الكتابة. وكل سورة اجتمع فيها ذكرهما تردد ذكرهما بصورة متقاربة، بحيث لا يزيد أحدهما على الآخر بأكثر من لفظ واحد.

وإليك إيضاح ذلك :

ففي سورة البقرة مثلاً قال تعالى :

﴿الْم ١ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ .

فقد ذكر الكتاب وحده بعد (الم) فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتاب ومشتقات الكتابة في هذه السورة سبعاً وأربعين مرة، في حين لم يرد لفظ القرآن أو أي مشتق من مشتقات القراءة إلا مرة واحدة، وهو قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (١٨٥) [البقرة] .

وفي سورة آل عمران قال تعالى :

﴿الْم ١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢﴾ زَلَّ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ٣﴾ .

فقد ذكر (الكتاب) وحده، فنلاحظ أنه تردد لفظ الكتابة ومشتقاتها في هذه السورة ثلاثاً وثلاثين مرة ولم يرد فيها لفظ القرآن .

وهذا النهج لم يختلف في أية سورة من السور التي تبدأ بالأحرف المقطعة . يظهر ذلك في الأعراف ويونس وهود والرعد وإبراهيم والشعراء والقصص ولقمان والسجدة وغيرها .

وقد يلي الأحرف المقطعة ذكر القرآن وحده، فيتردد هذا اللفظ أكثر من الكتاب، بل ربما لم يرد فيها لفظ الكتاب ولا أي لفظ من مشتقات الكتابة، ذلك نحو قوله تعالى :

﴿طه ١ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِنَشَقِّقَ ٢﴾ [طه] فقد ورد ذكر القرآن ولم يرد

لفظ الكتاب بعد هذين الحرفين، فنلاحظ أنه تردد لفظ القرآن في هذه السورة ثلاث مرات وورد لفظ الكتاب فيها مرة واحدة .

ونحوها قوله تعالى : ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ١﴾ [ق] فقد ورد فيها ذكر

القرآن مرتين وورد فيها لفظ الكتاب مرة واحدة . ولم يحصل مرة أن زاد لفظ

القرآن على لفظ لكتابة أو العكس في هذا النوع إلا سورة (ص) فإن ذكر القرآن والكتاب تساويا فيها فقد ورد كل منهما مرة واحدة.

وقد يجتمع لفظا الكتاب والقرآن معاً فيترددان بمقدار متقارب وذلك نحو قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿الرَّيُّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ فقد اجتمعا في الافتتاح، وقد ذكر الكتاب في السورة مرتين والقرآن ثلاث مرات.

وقوله في سورة النمل: ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ فقد ذكر القرآن في السورة أربع مرات والكتاب خمس مرات.

وهذا من عجائب التعبير ودقيقه.

ولا يقتصر الأمر في مفتتح السور هذه على ذكر الكتاب والقرآن وترددهما على نحو معين، بل هو أوسع من ذلك وأعجب، فقد تتردد الألفاظ التي ترد في الافتتاح كثيراً في أثناء السورة، وقد بُنى عليها السورة كلها أحياناً.

وإليك مثلاً يوضح ذلك:

خذ مثلاً مفتتح سورة البقرة وهو قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ لِّلْمُشْقِيقِينَ﴾.

ومفتتح سورة لقمان وهو قوله:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰ لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

١- فقد أشار في آية البقرة إلى الكتاب ثم نفى عنه الريب.

وأشار في لقمان إلى آيات الكتاب وليس إلى الكتاب.

وانظر بعد ذلك كيف قال في البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾.

فأراد أن يجتث الريب من الكتاب إن كان موجوداً.

وكيف قال في لقمان: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

فذكر آيات الكتاب وليس الكتاب وانظر إلى ارتباط كل آية بالمفتتح.

وقد تقول: ألم يذكر الكتاب في هذه السورة والآيات في سورة البقرة؟ فنقول: بلى ذكر الكتاب والآيات في كلتا السورتين، ولكن ذكرت الآيات في لقمان أكثر من الكتاب، وذكر الكتاب في البقرة أكثر من الآيات. فإن لفظ (الكتاب) لم يرد في لقمان إلا مرتين، وورد لفظ الآيات خمس مرات. وأن لفظ (الكتاب) ومشتقات الكتابة ورد في البقرة سبعا وأربعين مرة، وأن الآية ومشتقاتها وردت فيها إحدى وعشرين مرة.

٢- قال في لقمان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ فزاد الرحمة على الهدى بخلاف البقرة، وانظر بعد ذلك مظاهر الرحمة التي عددها ربنا في السورة من مثل قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ [لقمان] وقوله: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [لقمان] فانظر كيف جمع الهدى والرحمة في هذه الآية؟

إلى غير ذلك من الآيات في السورة.

٣- وصف الكتاب في لقمان بـ (الحكيم)، وهذا الوصف قد يكون بمعنى اسم الفاعل أي: المحكم بكسر الكاف، وقد يكون بمعنى اسم المفعول أي: المحكم بفتح الكاف. وهو ههنا بمعنى اسم المفعول أي: (المحكم) كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾. وتأتي هذه اللفظة وصفاً لله بمعنى المحكم، فلما كان الكتاب حكيماً بمعنى محكم كان الله حكيماً بمعنى محكم، فانظر أنه لما قال في وصف الكتاب: ﴿الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ قال في وصف الله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [لقمان، ٣١].

ثم انظر كيف ذكر الحكمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ [لقمان، ١٧].

٤- قال في البقرة: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. فانظر كيف قال فيما بعد: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ عَبْدَ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ [البقرة] وقال: ﴿وَأَتَى فَاَتَقُونَ﴾ [البقرة]. وقد تكرر لفظ التقوى ومشتقاتها ستاً وثلاثين مرة في هذه السورة.

وقال في سورة لقمان: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ فانظر كيف قال فيما بعد:
﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [لقمان] فذكر الإحسان .

٥- قال في مفتتح البقرة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة] وختمها بقوله: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِيهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [٢٨٩].

فانظر كيف ذكر الإيمان بما أنزل إليه وما أنزل من قبله في بدء السورة، وختمها بذلك فقال: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ وذكر الإيمان بالرسول قبله فقال: ﴿لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾.

وقال في أول السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وختمها بقوله: ﴿فَأَنصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [٢٨٩].

وقال في بدء لقمان: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فأكد الإيقان بالآخرة.

فأنت ترى أنه قال في البقرة: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة] وقال في لقمان: ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ فأكد الضمير الأول (هم) بالضمير الثاني. فلما أكد الإيمان باليوم الآخر في البدء قال في خاتمتها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُورِبُكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارِعٌ عَنِ الْوَالِدِ﴾ [لقمان] فحذرهم من اليوم الآخر.

ولا نريد أن نطيل فهذا فيه كلام كثير.

وقد تطبع السورة كلها بطابع الافتتاح وليس السياق الذي تقع فيه الآية فحسب، ومن هذا النوع من السور سورة مريم. فهي تبدأ بقوله تعالى:

﴿كَهَيِّصَ ۚ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ [مريم].

فأنت ترى أنها تبدأ بالرحمة، ولا تقتصر الرحمة على السياق الذي وقعت فيه الآية، بل إنَّ السورة كلها تفيض بالرحمة، وألفاظ الرحمة تشيع فيها من

أولها إلى آخرها. فقد قالت مريم لرسول ربها الذي تمثل لها بشراً سوياً: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيئًا﴾ [مريم] فقد استعادت بالرحمن ليرحمها وبقية السوء ولم تقل: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾ كما فعل موسى حين قال لقومه: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة] وذلك أن السياق في البقرة سياق عقوبة ومسح وتنكيل ولاتناسب الرحمة ذاك. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة] فجعلناها نكلاً لما بين يديها وما خلفها وموعظةً لِلْمُتَّقِينَ [البقرة].

هذا علاوة على أن لفظ (الرحمن) تكرر في مريم ست عشرة مرة، ولفظ (الله) تكرر في البقرة مائتين واثنين وثمانين مرة، ولم يرد لفظ (الرحمن) في البقرة إلا مرة واحدة وهو قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] فوضع كل كلمة في مكانها اللائق بها.

ونعود إلى جو الرحمة في سورة مريم.

فقد قال الله في عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ [مريم].

وقالت مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ [مريم].

وقال إبراهيم لأبيه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم].

ثم قال له في عبارة كلها رحمة: ﴿يَكَّابَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم]. ولم يقل: (عذاب من الله). ثم انظر كيف لما ذكر المس ناسب ذلك ذكر الرحمة، بخلاف قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَفْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام]. وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين والمقامين، فلا يحسن وضع (الرحمن) في آية الأنعام كما هو بين. وهذا نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ و ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾.

وذكر رحمته لإسحاق ويعقوب فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم].

ورحمته لموسى فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ ﴿٥٦﴾ [مريم].

وقال في وصف من أنعم عليهم من خلقه: ﴿إِذَا نُنَادِيهِمْ عَلَيْهِمْ أَتَيْتُ الرَّحْمَنَ خَرُّوا سُجَّدًا
وَبُكْيًا﴾ ﴿٥٧﴾ [مريم].

وذكر جنته التي وعدها عباده المتقين فقال: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ
بِالْغَيْبِ﴾ ﴿٥٨﴾ [مريم].

ثم ذكر أنه ليحضرن العتاة حول جهنم فقال: ﴿ثُمَّ لَنُنَزِّعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أُتَاهُمْ
أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِيقًا﴾ ﴿٥٩﴾ [مريم].

وهدد من كان في الضلالة وتوعده قائلًا: ﴿مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ
مَدًّا﴾ ﴿٦٠﴾ [مريم].

وذكر الذي كفر وزعم أنه سيؤتى مالا وولداً فقال فيه: ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ
عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٦١﴾ [مريم].

وذكر المتقين فقال: ﴿يَوْمَ نَخْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٦٢﴾ [مريم].

وذكر من يُظن فيهم أنهم يملكون الشفاعة فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ
أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٦٣﴾ [مريم].

ثم ذكر من زعم أن الله اتخذ ولداً فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ
وَلَدًا﴾ ﴿٦٤﴾ [مريم].

ورد عليهم بقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٦٥﴾ نَكَادُ السَّمَوَاتِ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ
الْأَرْضُ وَتُحَرِّثُ الْجِبَالُ هَذَا ﴿٦٦﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٦٧﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٦٨﴾ إِنْ كُلُّ
مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم].

ثم قال في خاتمة السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ﴿٧٠﴾ [مريم].

وهكذا ابتدأ السورة بالرحمة وتنتهي بالرحمة، ويشيع جوها كله بالرحمة،
وتستأثر باسم الرحمن، فلا تدانيها في ذلك سورة من السور.

فانظر كيف طبعت السورة بالطابع الذي ورد في الافتتاح.

ونكتفي بهذا القدر وإلاّ فالكلام طويل طويل.

وانظر بعد ذلك إلى سمو هذا الكلام ورفعته ودقته في اختيار ألفاظه، ثم احكم أيمن أن يكون هذا من كلام البشر؟.

الحشد الفني

لقد مر بنا تبين الناحية الفنية في موضع واحد من الآية غالباً، كأن يختار لفظة على لفظة أو يقدم لفظة على أخرى، أو يزيد في مكان ويحذف من مكان آخر ونحو ذلك. وربما اقتضانا الحديث أن نعرض لأكثر من موضع في الآية الواحدة أو السياق الواحد، مما يدل دلالة واضحة على أن كل كلمة بل كل حرف وضع وضعاً فنياً مقصوداً في غاية الدقة والجمال.

وليست هذه الآيات أو السياقات التي سنختارها وحدها موضع الحشد، بل إن القرآن كله حشد فني عظيم متكامل، غير أنه لا بد لبيان ذلك أن نختار أمثلة منه تعيننا على إيضاح ما ندّعيه.

ونود قبل أن نشرع في ضرب الأمثلة أن نبين أنه قد يراعى في اختيار التعبير أمور عديدة وجوانب كثيرة، فقد يراعى السياق الذي ورد فيه التعبير، والسورة التي ورد فيها السياق، والسياقات الأخرى التي يرد فيها تعبير مقارب لهذا التعبير، والصور الأخرى التي فيها مواطن تعبيرية متشابهة أو مختلفة. فهو قد يراعى في تعبير السورة الواحدة وبنائها تعبير جميع السور الأخرى من القرآن الكريم وبنائها.

ولنوضح ذلك بأمثلة من سورة واحدة ولتكن سورة الأنعام، ولا نريد أن نبين الجوانب البلاغية والفنية فيما نذكر، بل نقصر الكلام على بيان قسم من العلاقات الفنية التي يراعيها القرآن في السورة نفسها أو السور الأخرى.

لقد افتتحت السورة بقوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام].

وقال في خاتمة السورة: ﴿قُلْ أَغْنَى اللَّهُ أَمْرِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام] فناسب بين البدء والختام، فقد ذكر أن الذين كفروا بربهم يعدلون، أما هو فلا يعدل بربه شيئاً. فانظر هذه المناسبة والملاءمة في التعبير حتى كأن التعبيرين في البدء والختام آية واحدة.

ثم انظر إلى التناظر بين التعبيرين فإنه قدّم في التعبير الأول متعلق (يعدلون) وهو قوله: (بربهم)، وقدم في التعبير الآخر مفعول (أبني) وهو قوله: ﴿أَعْيَرَ اللَّهُ﴾.

ثم انظر كيف قال في الختام: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقال في البدء: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ أليس الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور رب كل شيء؟

فانظر علو هذا الكلام ورفعته.

ولاتحسبن أن هذه السورة هي السورة الوحيدة التي نوسب بين مفتحتها وخاتمتها. فإن التناسب بين مفتتح السور وخواتيمها أمر معلوم ومشهور. ومن ذلك على سبيل المثال سورة النساء.

فقد بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوا الصَّحِيفَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَثِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء].

وختمت بقوله تعالى:

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَهَا وَلَدٌ... ﴿٧٦﴾﴾ [النساء].

فقد بدأت بخلق الإنسان وبث ذريته في الأرض: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّوْهُ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء] وانتهت بهلاكه من دون عقب ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ وهي صورة فنية عظيمة لبدء الحياة ونهايتها.

كما ابتدأت بإيتاء الأموال للنشء الجديد من اليتامى من أنصبتهم من الموارث وهم يستقبلون الحياة، واختتمت بتقسيم تركات من ودّع الحياة.

وهذا من أعجب التناسب وأبدعه.

ومن ذلك سورة الأعراف فقد بدأت بقوله تعالى:

﴿كَتَبَ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴿٢﴾﴾ [الأعراف].

وختمت بقوله :

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف].

وهل الكتاب المنزل إليه غير القرآن؟

فانظر كيف بدأت السورة بذكر الكتاب وختمت به أيضاً.

ومن ذلك سورة (هود) فقد ابتدأت بقوله تعالى: ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا

اللَّهَ﴾ [هود] وختمت بقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود].

فانظر كيف ابتدأت السورة بالنهي عن عبادة غير الله وختمت بالأمر بعبادته.

ومن ذلك سورة (المؤمنون) فقد «جعل فاتحة السورة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

وأورد في خاتمتها: ﴿إِنَّهُمْ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فستان ما بين الفاتحة والخاتمة»^(١).

ومن ذلك سورة (يونس) فقد قال في أولها:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ

صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس].

وقال في خواتيمها:

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ

ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس].

فبدأ بالإنذار والتبشير وختم بهما أيضاً، فبينت الآية الأخيرة كيفية تنفيذ ما

طلب منه في الآية الأولى. فقد قال له في الآية الأولى: (أنذر وبشر) ثم علمه

في آيات الختام كيف يفعل ذاك فقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ...﴾ فكأنهما جزء من

آية واحدة.

ومن ذلك في سورة ﴿ص﴾ فقد بدأت بقوله:

﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص].

(١) الكشف ٣٧١/٢.

وقال في خواتيمها:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [ص].

فأقسم في بدء السورة بالقرآن ذي الذكر، وختمها بالكلام على القرآن أيضاً وقال: إنه ذكر للعالمين. فبين ما أجمله في الافتتاح.

ومن ذلك سورة (ق) فقد بدأت بقوله تعالى:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق].

وختمت بقوله:

﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق].

والتناسب ههنا أظهر من أن يشار إليه.

وغير ذلك كثير. ولانريد أن نطيل في ذلك، فإن فيما مر كفاية فيما أحسب. فاتضح أن التناسب بين مفتتح السور وخواتمها ليس شيئاً عارضاً ولا موافقة عابرة، وإنما هو سمة بارزة من سمات هذا الكتاب الكريم وأمر مقصود في هذا الكلام الرفيع.

ونعود إلى سورة الأنعام.

فقد قال في هذه السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام] وقال في البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فوضع كل لفظة منهما في سياقها الذي يقتضيها أولاً. ثم راعى في الأنعام ما ورد في البقرة - وفي البقرة ما ورد في الأنعام من تردد لفظي (الرب) و (الله) كما سبق بيانه.

وقال في الأنعام: ﴿أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وقال في النساء والأعراف والزمр: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وقد راعى في هذا الاختيار السياق الذي وردت فيه الآية كما راعى تردد لفظ (الإنشاء) في الأنعام والنساء والأعراف والزمр فراعى عدة سور في آن واحد.

وقال في الأنعام: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وقال في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فزاد اللام في (سريع)،

وذلك أن سياق الأعراف يقتضي هذه الزيادة، إذ هو في مقام تعجيل العقوبات بخلاف الأنعام.

وقال في الأنعام: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمَا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وقال في الشعراء: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَتُهُمَا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾. فقد زاد كلمة (الحق) في آية الأنعام وأخلاها منها في الشعراء، وقد راعى في ذلك الجانب اللفظي لبناء السورتين علاوة على الجانب المعنوي، فقد ترددت كلمة (الحق) في الأنعام اثنتي عشرة مرة، ولم ترد هذه اللفظة في سورة الشعراء، فوضع كل لفظة في المكان الذي هي أليق به.

ثم انظر كيف ذكر (سوف) في الأنعام والسين في الشعراء، فإنه علاوة على السياق الخاص الذي وردت فيه كل آية من الآيتين، والذي يقتضي كل منهما ذكر ما ورد في سورة الأنعام على تأخير العقوبات بخلاف سورة الشعراء. وهذا واضح في بناء كل من السورتين. وانظر علاقة ذاك بما ذكرناه في (سريع العقاب) و (لسريع العقاب)، وقد سبق أن بينا ذلك بصورة مفصلة.

وقال في الأنعام: ﴿تَحْنُ نَزْزُفُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ وقال في الإسراء: ﴿تَحْنُ نَزْزُفُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾. ففرق بين التعبيرين بحسب سياق كل من الآيتين وبنائها.

فانظر كيف راعى في سورة واحدة سوراً متعددة، راعى ألفاظها وسياقها وجوها وكل كلمة وردت فيها، فقد راعى البقرة والأعراف والشعراء والإسراء والنساء والزمر وغيرها، بل ربما راعى في الموطن الواحد جميع سور القرآن وجميع آياته من جميع العلائق والاحتمالات.

فانظر الآن أي تعبير هذا الذي بين الدفتين واحكم بنفسك: أيقدر على مثله البشر أو أي مخلوق من مخلوقات الله؟

وهذا غيض من فيض وقطرة من بحر.

ثم نشرع الآن في بيان أمثلة من الحشد الفني.

١- قال تعالى في سورة سبأ:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَٰكُمْ عَلَيْمُ الْغَيْبُ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وقال في سورة يونس:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ .

لننظر الآن إلى الفروق في التعبير بين الآيتين:

آية سبأ آية يونس

=====

لا يعزب وما يعزب

عنه

مثقال ذرة من مثقال ذرة

في السماوات ولا في الأرض في الأرض ولا في السماء

[بتقديم السماوات على الأرض وجمعها] [بتقديم الأرض على السماء وإفراد السماء]

ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ (بالرفع) ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ (بالنصب)

* * * * *

أما النفي بـ (لا) في سبأ فلأن الكلام على الساعة، والساعة استقبال فجاء بـ (لا) الدالة على الاستقبال في النفي. وأما النفي بـ (ما) في يونس فلأن الكلام على الحال، و (ما) مختصة بنفي الحال. فجاء بكل حرف في الموضع الذي يليق به. ألا ترى إلى بدء الآية كيف قال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تأتينا

الساعة) فنفى بـ (لا) لما كان الكلام على الساعة ولم يقل: (ما تأتينا) لأن الساعة استقبال؟

وقال في آية سبأ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾، وقال في آية يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ فجاء بالضمير في سبأ لأنه تقدم ذكر الرب عالم الغيب فيها فأعاد الضمير عليه، فقد قال: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَٰكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ﴾. ولم يتقدم ذكر له في يونس فلذلك ذكره صريحاً.

وأما زيادة (من) في آية يونس وعدم ذكرها في آية سبأ، فلأن سياق كل آية منهما يقتضي ذلك. وذلك أن الكلام في آية يونس على إحاطة علم الله بعلم الغيب وأنه يعلم كل شيء، وبدأ الآية بقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

وأما في آية (سبأ) فالكلام على الساعة ابتداء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَٰكُمْ عَلِيمٌ الْغَيْبِ...﴾ [سبأ] فجاء بعلم الغيب تبعاً للساعة، أما في آية يونس فالكلام ابتداء على علم الغيب ومقدار علم الله وإحاطته بكل شيء بحيث لا يندّ عنه شيء، فناسب ذلك زيادة (من) الاستغرافية المؤكدة التي تستغرق كل مذكور.

وأما تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ (مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) فلأن الكلام على الساعة وأمرها يأتي من السماء وهي تبدأ بأهل السماء كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر] وكما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل].

في حين قدم الأرض على السماء في آية يونس لأن الكلام على أهل الأرض وذلك أنه قال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس] فناسب ذلك تقديم الأرض في آية يونس،

وناسب تقديم السماوات على الأرض في آية سبأ^(١). جاء في (الكشاف) في هذه الآية: « فإن قلت: لم قدمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ ﴿عَلِيمِ الْغَيْبِ لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ]؟

قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: ﴿لَا يُعْزَبُ عَنْهُ﴾ لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء^(٢).

ومثله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ^(٤) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ^(٥) [آل عمران].

وقوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم].

وقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٦) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ^(٧) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ^(٨) [العنكبوت].

فإنه لما كان الكلام على أهل الأرض فيما مر من الآيات قدم الأرض على السماء^(٩). وأفرد السماء في آية يونس وجمعها في آية سبأ، وقد يبدو ذلك مخالفاً للسياق لأن السماوات أكثر من السماء، والمناسب لاستغراق علم الله بالغيب الجمع. وبأدنى تأمل يتضح أن كل لفظة في مكانها أنسب وأليق.

فقد بينا في موضع سابق أن (السماء) في القرآن تستعمل على معنيين، فهي إما أن تكون واحدة السماوات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَزَقْنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا

(١) انظر بدائع الفوائد ٧٤/١.

(٢) الكشاف ٧٩/٢.

(٣) انظر البرهان للكرمانى ٢٢٧.

بِمَصْبِيحٍ ﴿٥﴾ [المُلْك] وقوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ ﴿١٥﴾ [الحجر].

وإما أن تكون لكل ما علاك فتشمل السماوات وغيرها كالسحاب والمطر والجو وغيره. ولا شك أن السماء بهذا المعنى الثاني أعم وأشمل من (السماوات) لأنها تشمل السماوات وغيرها مما علا وارتفع.

وقد وردت في آية يونس بهذا المعنى الشامل العام: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهو المناسب للدلالة على سعة علم الله وإحاطته بالغيب واستغراق علمه لكل شيء. فهو أوسع من أن يكون في السماوات السبع وأعم. وناسب ذلك أيضاً ذكر (من) الاستغراقية معها في هذه الآية. وجاء بها مجموعة في آية سبأ لأنه ليس المقام مقام استغراق وإحاطة كما ذكرنا. ثم قال في آية سبأ، ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ﴾ بالرفع. وقال في آية يونس: ﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ بالنصب، فجاء في آية يونس بلا النافية للجنس الدالة على الاستغراق والتأكيد، ليناسب مقام إحاطة علم الله بالغيب واستغراقه لكل شيء، ويناسب الاستغراق الذي جاءت به (من) الاستغراقية والاستغراق الذي أفادته كلمة (السماء)، لأن (لا) النافية للجنس تفيد الاستغراق كما هو معلوم.

وجاء في آية سبأ بـ (لا) النافية التي لا تنص على الاستغراق، وهي أقل تأكيداً من (لا) النافية للجنس، لأن المقام لا يقتضيه والسياق ليس عليه، بل ذكر علم الغيب فيه تبعاً لذكر الساعة كما أوضحنا.

فترى أن كل كلمة بل كل حرف وضع في مكانه اللائق المناسب.

٢- وإليك مثلاً آخر:

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿٢٣﴾ [النحل].

وقال:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الأنعام].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين:

الأنعام

النحل

ما عبدنا	ما أشركنا
نحن ولا آباؤنا	ولا آباؤنا (بدون نحن)
حرمتنا من دونه من شيء	حرمتنا من شيء
فعل الذين من قبلهم	كذب الذين من قبلهم

إن سياق سورة النحل في الرد على الشرك والنعي على المعبودات الباطلة من دون الله، فالسورة تبدأ بتنزيه الله عن الشرك: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل] ﴿١﴾ ﴿تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل] ﴿٢﴾. وتبين أن الذين اتخذوهم شركاء ليسوا إلا مخلوقات، مثلهم بل هي أخط منهم فهي لا تعي ولا تشعر ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل] ﴿٢١﴾ ﴿أَمْ تَوَدُّونَ غَيْرَ الْحَيِّ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾ [النحل] ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّهُمْ إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ [النحل] ﴿٢٢﴾.

وتستمر السورة في الكلام على العبادات وبيان أن كل شيء إنما هو خاضع لله عابد له. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظُلُمًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل] ﴿٤٨﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل] ﴿٦٨﴾.

وقال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل] ﴿٧٢﴾.

بينما سياق سورة الأنعام في الكلام على ما زعموه من محرمات الأطعمة، وما يعتقدونه من أمور باطلة في أنصبة الحرث والأنعام، وما افتروه على الله من تحليل وتحريم بغير علم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ [الأنعام].

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمُ وَحَرِثُ حِجْرٍ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمٌ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام] وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُن مِّمَّةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام].

﴿ثُمَّ نَبَيَ الْأَزْوَاجِ مِنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام] وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ ءَالَّذِينَ حَرَّمَ أَرِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّلَكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام] قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثَّةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام] وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايِكُ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام] فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام] سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا...﴾ [الأنعام].

فلما كان السياق في آيات النحل على الشرك في العبادات وعبادة غير الله ونحو ذلك مما يتعلق بالعبادة قال: (ما عبدنا من دونه).

ومما حسن ذلك أيضاً قوله تعالى بعد الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلَاطُوتَ﴾ [النحل].

فناسب ذلك ذكر العبادة.

ولما كان السياق في الأنعام على الشرك في التحليل والتحريم، ولا سيما في الأظعمة وليس المقصود بالشرك هنا الشرك الخاص بعبادة غير الله لم يصرح بالعبادة. ألا ترى إلى قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيَوْحُونَ إِلَيْكَ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام].

فسماهم مشركين لإطاعتهم أولياء الشيطان.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن لفظ (الشرك) وما تفرع عنه تردد في الأنعام أكثر مما في النحل. ولفظ العبادة تردد في النحل أكثر مما في الأنعام. فقد تردد لفظ (الشرك) ومشتقاته ثمانياً وعشرين مرة في الأنعام، وتردد في النحل تسع مرات، وترددت العبادة في النحل أربع مرات، وفي الأنعام مرتين، فوضع لفظ العبادة في النحل والشرك في الأنعام جاعلاً كل لفظ في المكان الذي هو أليق به.

ولما كان السياق في النحل في العبادة والتوحيد وهي أهم من الأظعمة، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات] زاد (نحن) توكيداً.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن الكلام في النحل موجه إلى المخاطبين أكثر مما في الأنعام، لذا كان من المناسب زيادة (نحن) في النحل دون الأنعام لأنه جواب منهم.

وقد تردد ذكر من هم دون الله من المعبودات في النحل أكثر مما في الأنعام، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل] لذا زاد: (من دونه) فيها.

هذا علاوة على أن ذكر (من دونه) بعد قوله: (ما عبدنا) يقتضيه المعنى، بخلاف (ما أشركنا) وذلك أنه لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لم يكن المعنى

مستقيماً. وكذلك لو قال: (لو شاء الله ما عبدنا من شيء). فانه لم ينع عليهم أصل العبادات فان العبادات مطلوبة، ولكن نعى عليهم عبادة غير الله. فلو قال: (لو شاء الله ما عبدنا) لكانت العبادات مرفوضة أصلاً، ولو قال: (ما عبدنا من شيء) لكان الله سبحانه يدخل في جملة المعبودات المرفوضة، وسيكون المعنى أنه لا شيء يصلح للعبادة حتى الله سبحانه. ولذا كان لا بد من ذكر (من دونه من شيء) ليصح المعنى المراد.

وأما قوله: (لو شاء الله ما أشركنا) فإنه واضح القصد تام المعنى، فإن مفهوم الشرك واضح معلوم وهو مذموم بكل صورته وأشكاله. فقوله: (ما أشركنا) معناه: ما أشركنا مع الله أحداً. ولا يقتضي هذا التعبير زيادة شيء لتوضيحه.

جاء في (درة التنزيل) في ذكر (من دونه شيء) بعد قوله: (ما عبدنا) دون (ما أشركنا). «قوله: (ما أشركنا) مُستغنى عن ذكر المفعول به وإن كان في الأصل متعدياً لقوله: (أن تشركوا به شيئاً) وإنما لم يحتج إلى ذكر المفعول به كما احتاج إليه (عبدنا) لأن الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته. والعبادة لا تدل على إثبات معبود لا يجوز إثباته، لأنها تدل على معبود هو مثبت لا يصح نفيه.

فقوله: (ما عبدنا) غير مستنكر أن يعبدوا، وإنما المستنكر أن يعبدوا غير الله شيئاً فكان تمام المعنى بذكر قوله: (من دونه من شيء). وكذلك: (ولا حرماناً من دونه من شيء) لا بد من (حرماناً) من قوله: (من دونه من شيء). ولم يحتج إليه بعد قولنا: (ما أشركنا) لأن الإشراك دال على أن صاحبه يحرم شيئاً من دون الله، ولا يدل (عبدنا) على ذلك. فوفى اللفظان في سورة النحل حقهما من التمام»^(١).

وقال في (الأنعام): ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وفي النحل: ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وذلك لما تردد في الأنعام افتراءهم وكذبهم على الله فقد قال عنهم أنهم: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا

(١) درة التنزيل ١٣٣-١٣٤.

فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ﴿١٣٨﴾ وهذا كذب وافتراء على الله . وقال بعدها: ﴿ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿١٣٩﴾ وقال بعدها: ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْفَعُ وَحَرَّتْ حَبْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرَعْمِهِمْ وَأَنْفَعُ حَرِّمَتْ طُهُورُهَا وَأَنْفَعُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءٌ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ ﴿١٤٠﴾ .

وقد ذكر من كذبهم الشيء الكثير - انظر الآية ١٣٩ .

وقد قالوا: إن الله حرم ثمانية أزواج من الأنعام فقال لهم: ﴿ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَحْنُ بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٤٢﴾ .

أما السياق في النحل فيقتضي لفظ (فعل) دون (كذب) وذلك أن الآية وقعت في سياق الفعل والعمل دون سياق الافتراء والتكذيب، فقد قال قبلها: ﴿ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٤٣﴾ وقال: ﴿ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿١٤٤﴾ . فقد ذكر فعل الذين من قبلهم وذكر ظلمهم لأنفسهم . والظلم فعل .

وقال: ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ ﴿١٤٥﴾ فذكر عملهم واستهزاءهم وهذا كله فعل ثم جاء بالآية بعدها .

فأنت ترى أن (الفعل) هو المناسب لسياق النحل، وأن التكذيب هو المناسب لسياق الأنعام .

هذا علاوة على تردد (الكذب) في الأنعام أكثر مما في النحل . فقد تردد ذكر الكذب في الأنعام إحدى وعشرين مرة، في حين تردد في النحل عشر مرات فكان ذكر (كذب) أليق في الأنعام .

وتردد (الفعل) في النحل أكثر مما في الأنعام فقد تردد فيها أربع مرات، وفي الأنعام ثلاث مرات فكان لفظ (فعل) أليق في النحل . وهكذا وضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها .

ثم إن خاتمة كل آية أليق بها من صاحبيتها. فقد ختم آية الكذب والافتراء والقول على الله بغير علم بقوله: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام]. فإذا لم يكن عندهم علم لم يكونوا إلا ظانين متخرصين.

وختم آية التبليغ الواقعة في سياق التبليغ بقوله: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل] ويأتي بعدها تبليغ الرسل لأمرهم دعوة الله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

٣ - وإليك مثلاً آخر وهو قوله تعالى في سورة التوبة:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وقوله في هذه السورة أيضاً:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

والآن انظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين:

الآية ٨٥

الآية ٥٥

أموالهم وأولادهم (بدون لا)

أموالهم ولا أولادهم

أن يعذبهم

ليعذبهم

في الدنيا

في الحياة الدنيا

وسبب ذلك والله أعلم أن السياق في الآية الأولى ذات الرقم ٥٥ يختلف عن السياق في الآية الثانية.

إن الآية الأولى في سياق إنفاق الأموال والخطاب للمنافقين. قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَبَلَّ مِنْكُمْ لَكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وما منعهم أن

تُقْبَلُ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ. وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى
وَلَا يُؤْتُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِبُونَ ﴿٥١﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ... الآية ﴿٥٠﴾.

وبعدها: ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴾ ﴿٥٢﴾.

وبعدها: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي
الرِّقَابِ وَالْغَدِيرِ مِنَ ﴾ ﴿٥٣﴾.

فالسباق في إنفاق الأموال والكلام على المنافقين وأموالهم، ثم وجه
الخطاب إلى الرسول قائلاً: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾
فزاد (لا) النافية تأكيداً ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾ وزاد اللام في (ليعذبهم)
لزيادة الاختصاص وتوكيده

في حين أن السياق مختلف في الآية الأخرى. قال تعالى: ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ
إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَعِذْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ
بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ ﴿٥٤﴾ وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُوتٌ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ
بِهَا فِي الدُّنْيَا... ﴾.

فسباق الآيات الأولى في إنفاق الأموال، فأكد ذلك بزيادة (لا) واللام.
ولما اختلف السياق في الآيات الأخرى خالف في التعبير فلم يذكر (لا) ولا
اللام، لأن المقام لا يقتضي التوكيد هنا.

ولما طال الكلام على الإنفاق والأموال في الآيات الأولى، زاد الكلام في
هذه الآية دون الأخرى فقد زاد (لا) و (اللام) و (الحياة). ولما كان المال
عصب الحياة كما يقال ومظنة الوصول إلى الرفاهية والسعادة زاد كلمة (الحياة)
ههنا، بخلاف الآية الأخرى فإنها في سياق الجهاد والقتال. والقتال والجهاد
مظنة القتل وفقد الحياة، ولذا لم يأت بالحياة في سياق الجهاد، بخلاف سياق
المال، لأن الحرب سبيل فقد الحياة بخلاف المال والله أعلم.

﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا رَجُوعٌ ﴿١٣﴾ [الأنبياء].

وقوله :

﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (١٣) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿١٤﴾ [المؤمنون].

وانظر الآن إلى الفروق بين التعبيرين :

الأنبياء المؤمنون

فاعبدون فاتقون

وتقطعوا فتقطعوا

— زبراً

كل إلينا راجعون كل حزب بما لديهم فرحون

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء: (فاعبدون) وفي سورة المؤمنون: (فاتقون) فإن كل سياق يقتضي ذلك من أكثر من وجه.

فإن آية المؤمنين جاءت في عقب ذكر عقوبات طوائف كثيرة من الأمم ممن عصوا الرسل وإهلاكهم وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَّةً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١١) وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١١).

ويستمر التحذير والتهديد بعد هذه الآية وذلك نحو قوله تعالى: ﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَفَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ (٥١) وقوله: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ (٧٧) وغير ذلك وغيره. فأنت ترى أن التحذير والتهديد اكتنف هذه الآية اكتنافاً، بل إن جو السورة مشحون بالتحذير والتهديد.

وأما آية الأنبياء فإنها جاءت بعد ما يدل على الإحسان والتفضل واللفظ التام كما في قصة أيوب وزكريا ومريم.

فناسب أن يوضع لفظ: (فاتقون) في آية (المؤمنون) لما فيه من التحذير والتخويف المناسب للعقوبات والإهلاك، ولفظ: (فاعبدون) في آية (الأنبياء) بعد ذكر الإحسان واللفظ «فناسب الأمر بالعبادة لمن هذه صفته»^(١).

ثم انظر من ناحية أخرى إلى خاتمة السورتين، فقد ختم سورة الأنبياء فيمن سبقت لهم الحسنى وختم لهم بالسعادة، وختم سورة المؤمنين فيمن كان من أصحاب الشقاء وكان من أصحاب الجحيم.

فناسب من هذا الوجه أن تختتم آية المؤمنين بالأمر بالاتقاء ليتقوا عذاب النار ويحذروا هذا المصير الويل، كما ناسب أن تختتم آية الأنبياء بالأمر بالعبادة لينالوا هذه السعادة ويحفظوا بهذا الإحسان والفضل الكبير. وهذا كما ترى مناسب لما تقدم كلاً من الآيتين من عقوبات وتحذير في سورة (المؤمنون) ولطف وتفضل في سورة (الأنبياء).

ثم انظر من الناحية التعبيرية، فإن لفظ الاتقاء والتقوى ومشتقاتها لم ترد في سورة الأنبياء البتة لأن السياق لا يقتضيها، بخلاف سورة (المؤمنون) فإنه ورد فيها ذلك أربع مرات وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

وأما لفظ العبادة ومشتقاتها فقد وردت في سورة الأنبياء ثماني مرات^(٢)، ووردت في سورة (المؤمنون) مرتين فقط^(٣).

فيكون على هذا الأمر بالتقوى في آية (المؤمنون) في موطنه ومعدنه، والأمر بالعبادة في آية الأنبياء كذلك.

(١) انظر البحر المحيط ٤٠٩/٦، روح المعاني ٤١/١٨، ملاك التأويل ٧٠٨/٢.

(٢) انظر الآيات ١٩، ٢٥، ٥٣، ٧٣، ٨٤، ٩٢، ٩٨، ١٠٦.

(٣) انظر الآيتين ٣٢، ٤٧.

فناسب من كل وجه الأمر بالعبادة في آية الأنبياء والأمر بالالتقاء في آية (المؤمنون).

وأما قوله في الأنبياء: (وتقطعوا) بالواو، وفي سورة (المؤمنون): (فتقطعوا) بالفاء فيقتضي كل سياق ما ورد فيه. فقد جاء في آية (المؤمنون) بالفاء للدلالة على أن التقطع والافتراق وقع في عقب الأمر بالتقوى، وذلك مبالغة في عدم قبولهم وفي نفارهم عن توحيد الله وعبادته، مما يدل على شدة كفرهم وعنادهم، جاء في (روح المعاني): «والفاء لترتيب عصيانهم على الأمر لزيادة تقبيح حالهم»^(١).

وجاء في الأنبياء بالواو مما يحتمل تأخر تقطيعهم عن الأمر بالعبادة^(٢) لأن الواو لمطلق الجمع وليست كالفاء التي تفيد التعقيب والترتيب. فنص على الأولين بأنهم افترقوا وأنكروا في عقب أمرهم بالتقوى، ولم ينص على هؤلاء بذلك. فورود الفاء في سياق آية (المؤمنون) أنسب لما فيه من عقوبات وإهلاك وتحذير، وورود الواو في سياق آية الأنبياء أنسب.

وقال في آية (المؤمنون): (زُبُرًا) تأكيداً للتفرق الذي حصل، ومعنى زُبُر: فِرَق جمع فرقة^(٣). وهذا التوكيد هو المناسب لهؤلاء الأقوام المبالغين في العناد والكفر، بخلاف آية الأنبياء.

وقال في آية (المؤمنون): ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ وهو المناسب لقوله (زُبُرًا) والزبر: هي الجماعات والأحزاب والفرق كما ذكرنا، فلما أكد التفرق ناسب ذكر الأحزاب لذلك.

وقال في ختام آية الأنبياء: ﴿كُلُّ إِلَهٍ لِّنَارٍ رَّجُوتُ﴾ وذلك لقوله بعد هذه الآية: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وعلاوة على ذلك تردد

(١) روح المعاني ٤١/١٨.

(٢) انظر البحر المحيط ٤٠٩/٦، ملاك التأويل ٧١٠/٢-٧١٢.

(٣) انظر روح المعاني ٤١/١٨.

الرجوع ومشتقاته في هذه السورة ست مرات، في حين لم يرد في سورة (المؤمنون) إلا ثلاث مرات.

فناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه أحسن مناسبة ولاءمه أتم ملاءمة.

٥ - ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [الحج].

وقوله :

﴿ كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴾ [السجدة].

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين الآيتين.

السجدة

الحج

من غمٍّ

وقيل لهم

عذاب النار

الذي كنتم به تكذبون

عذاب الحريق

أما زيادة قوله (من غمٍّ) في آية الحج فهو المناسب، وذلك أنه ذكر الجزاء مفصلاً في سياق الحج بالنسبة للمؤمنين والكافرين. وقال تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَصُوا فِي رَيْبِهِمَا فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يَصُبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقْلِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ (٢١) كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّكَ اللَّهُ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَكِّلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهَذَا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَذَا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾.

أما في سورة السجدة فقد وقع ذكر الجزاء موجزاً بالنسبة إلى الطرفين: قال تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

فناسب قوله: (من غم) ذكر التفصيل الوارد في سورة الحج دون السجدة^(١)، ثم إنَّ العذاب المذكور في آيات الحج أشد مما ورد في السجدة، والعذاب الشديد مدعاة إلى الغم كما لا يخفى فناسب ذكر الغم لذلك.

وأما ذكر: (وقيل لهم) في آية السجدة دون آية الحج، فقد يظن ظان أنه كان ينبغي ذكر هذه العبارة في آية الحج دون آية السجدة، لما في آيات الحج من تفصيل، وفي آية السجدة من إيجاز، ولكن بأدنى تأمل يتضح أنها وقعت في المكان المناسب لها تماماً وأن المقام يقتضيها من أكثر من وجه. ذلك أن مشهد العذاب في آيات السجدة مشهد غائب مخبر عنه وأن التعبير فيها بني على الغيبة. والسياق في كل من المواطنين يوضح هذا الأمر أبين توضيح. قال تعالى في سورة الحج: ﴿هُذَانِ خَصِمَانِ اٰخَصَمُوْا فِي رِيْبِهِمَا ۖ فَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ...﴾.

فقد بدأ المشهد بقوله: ﴿هُذَانِ خَصِمَانِ اٰخَصَمُوْا فِي رِيْبِهِمَا﴾ فأشار إلى هذين الخصمين باسم الإشارة الدال على المشاهدة والحضور والقرب. فناسب ذلك عدم ذكر: (وقيل لهم) الدال على الغيبة.

وأما في السجدة فالمشهد غائب كما ذكرت، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوِيهِمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

فناسب ذلك أن يقال: (وقيل لهم) بخلاف آية الحج.

(١) انظر ملاك التأويل ٢/٧١٧-٧١٨.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى: إن القول ومشتقاته تردد في سورة السجدة أكثر مما تردد في سورة الحج، فقد ورد في سورة السجدة سبع مرات، وورد في سورة الحج ست مرات، مع أن سورة الحج أطول من سورة السجدة بكثير، فإن آيات سورة الحج تبلغ ثمانياً وسبعين آية، في حين تبلغ آيات سورة السجدة ثلاثين آية.

فناسب من هذا الوجه أيضاً أن يذكر القول في السجدة دون الحج.

وأما قوله في آية الحج: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. وقوله في آية السجدة: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ فإن كلا تعبير مناسب لموطنه الذي ورد فيه. فإن آية الحج قيلت في الكافرين. قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ...﴾.

وآية السجدة قيلت في الفاسقين، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾. والفسق قد يطلق على ما دون الكفر وقد يطلق على الكفر، فلما صرح بالكفر في سورة الحج كان ذكر العذاب أشد فقال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾. والحريق هو النار البالغة في الإحراق^(١). فذكر أن للفاسقين النار وللکافر النار البالغة في الإحراق. وهذا يناسب من ناحية أخرى ذكر الغم في آية الحج دون السجدة.

فناسب كل صنف عذابه الذي ذكر معه.

وأما ذكره في آية السجدة التأكيد بعذاب النار وهو قوله: ﴿عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ولم يقل مثل ذلك في آية الحج، فذلك لأن آية السجدة في الفاسقين، والفسق قد يقال لما دون الكفر، فبيّن أن هذا الصنف هم من الكفرة المكذبين بالوعيد لئلا يظن ظان أنهم من عصاة المؤمنين. وأما في سورة الحج فقد أفصح بكفرهم فلا حاجة لذلك. جاء في (ملاك التأويل): «أن آية السجدة لما قيل فيها: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ والفسق: الخروج، وقد يكون إلى معصية دون الكفر، ويكون إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع

(١) روح المعاني ١٧/١٢٢.

الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر وهو المراد هنا، فأعقبت الآية بما يرفع الاحتمال ويوضح أن فسقهم إلى الكفر حين كذبوا بالوعد والوعيد الأخروي ف قيل لهم: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾.

أما آية الحج فتقدم قبل ذكر الإفصاح بكفرهم في قوله: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فلم يحتج إلى التعريف الوارد في سورة السجدة، فجاء كل على ما يجب ويناسب^(١) فأنت ترى أن كل لفظ إنما وضع في مكانه الذي هو أليق به.

٦ - ونحو ذلك قوله تعالى في سورة الأنعام.

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ أَمَلْتُمْ أَنَّكُمْ تُرْزَقُونَ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ وَالْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ لَا يَقْصُطُ لَا تَكْفُفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١٥٢).

وقوله في سورة الإسراء:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ (١٦) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٍ وَلَا نَهْرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (١٧) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (١٨) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (١٩) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّبِيلَ وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا (٢٠) إِنْ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢١) وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٢) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٣) إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٢٤) وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قُلْتُمْ إِنَّ قُلُوبَهُمْ خَطَا كَبِيرًا (٢٥) وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ الَّتِي أَنْتُمْ كَانُوا فَاحِشَةً وَسَاءَ

(١) ملاك التأويل ٧١٨/٢.

سَيِّئًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰنًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٣٣﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾ [الإسراء].

هاتان الموعظتان متشابهتان تقريباً إلا في الإيجاز أو التفصيل . فقد بنيت آيات الأنعام على الاختصار والإيجاز، وبنيت آيات الإسراء على التوضيح والتفصيل .

إن الأمور المشتركة التي تشتمل عليها كلتا هاتين المجموعتين من الآيات هي :

- ١ - النهي عن الإشراك بالله .
- ٢ - الأمر بالإحسان إلى الوالدين .
- ٣ - النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر .
- ٤ - النهي عن الاقتراب من الفاحشة .
- ٥ - النهي عن قتل النفس .
- ٦ - النهي عن التصرف بمال اليتيم .
- ٧ - الأمر بإيفاء الكيل والميزان .
- ٨ - الأمر بالإيفاء بالعهد .

إن هذه الآيات وردت في السورتين على نسق واحد مع اختلاف يسير بينهما . وإليك طرفاً من هذا الاختلاف .

- ١ - قال في الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ وقال في الإسراء : ﴿ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ .

٢ - قدّم ضمير الآباء على الأبناء في الأنعام: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾، وقدّم ضمير الأبناء في الإسراء ﴿تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.

٣ - نهى عن الفواحش عموماً في الأنعام فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. ونهى عن الزنى خاصة في الإسراء فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

٤ - قدّم الإيفاء بالكيل والميزان على الوفاء بالعهد في الأنعام. وقدّم الوفاء بالعهد عليهما في الإسراء.

٥ - زاد الأمر بقول العدل في الأنعام فقال: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾. ولم يذكر ذلك في الإسراء. وزاد في الإسراء إيتاء ذوي القربى والنهي عن التقدير.

٦ - قدّم الجار والمجرور على فعل الإيفاء في الأنعام فقال: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾. وقدّم الفعل على الجار والمجرور في الإسراء فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾.

٧ - زاد عبارة ﴿إِذَا كَلِمْتُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ في الإسراء، ولم يذكر ذلك في الأنعام.

هذه أهم الاختلافات بين الآيتين في السورتين علاوة على الاختلاف في التفصيل أو الإجمال كما ذكرنا. وسنبين أسباب هذه الاختلافات بصورة موجزة.

١ - قال في الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فنهى عن الشرك.

وقال في الإسراء: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ فنهى عن الشرك، ثم قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فأمر بتخصيص الله بالعبادة. ففصل في الإسراء ما لم يفصل في الأنعام، وذلك متناسب مع سياق كل منهما من حيث التفصيل أو الإيجاز.

٢ - قال في الإسراء والأنعام بعد النهي عن الشرك بالله: ﴿وَاللَّوْلَيْنِ إِحْسَنًا﴾ وذلك لعظم منزلة الإحسان إلى الأبوين عند الله.

ولما قال في الأنعام: ﴿ قُلْ تَكَاَلَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ كان المظنون أن يقول: (ولا تسيئوا إلى الوالدين) لأنه بسبيل ذكر المحرمات، والإساءة إلى الوالدين من المحرمات، إلا أنه عدل عن ذلك إلى قوله: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ لأن عدم الإساءة لا يفي بحق الوالدين. فالمطلوب هو الإحسان إليهما وليس عدم الإساءة إليهما. ولو قال: (ولا تسيئوا إليهما) لفهم من ذلك أن عدم الإساءة كافٍ بحقهما والإحسان تفضل منك عليهما. جاء في تفسير البيضاوي في قوله: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ «أي: وأحسنوا بهما إحساناً وضعه موضع النهي عن الإساءة إليهما للمبالغة وللدلالة على أن ترك الإساءة في شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما»^(١).

وقد زاد على ذلك في سورة الإسراء فتبسط في ذكر إحسان معاملتهما وعدم الإساءة إليهما فقال: ﴿ إِمَّا يَلْتَمِعَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ١٢٦ ﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ١٢٧ ﴾.

وهو المناسب لسياق التفصيل فيها بخلاف سياق آيات الأنعام المبني على الإيجاز والاختصار.

٣ - قال في الأنعام: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ إِنَّكُمْ لَمَلِكٌ تَحَنُّنٌ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَحْكُمُ لَكُمْ تَحَنُّنٌ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾.

قدّم في الأنعام رزق الآباء على الأبناء فقال: ﴿ تَحَنُّنٌ تَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ وقدّم في الإسراء رزق الأبناء على الآباء فقال: ﴿ تَحَنُّنٌ تَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ وذلك لأنهم في الأنعام يقتلون أولادهم من الفقر الواقع بهم ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ فهم محتاجون إلى الرزق العاجل للقيام بتكلفة الأبناء. وأما في الإسراء فهم يقتلون أبناءهم خشية الفقر في المستقبل لا أنهم مفتقرون في الحال، ولذلك قدّم رزق الأبناء على الآباء لإخبارهم أن رزقهم معهم وأنهم لا يشاركونهم في رزقهم. فآية الأنعام في الفقراء، وآية الإسراء في الموسرين. جاء في (البحر المحيط) أن قوله:

(١) أنوار التنزيل ١٩٦.

﴿مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ ظاهره «حصول الإملاق للوالد لا تَوَقُّعه وخشيته، وإن كان واحداً للمال فبدأ أولاً بقوله: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق وإحالة الرزق على الخلاق الرازق ثم عطف عليهم الأولاد.

وأما في الإسراء فظاهر التركيب أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه، فبدىء فيه بقوله: ﴿تَحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ إخباراً بتكفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم، وعطف عليهم الآباء، وصارت الآيتان مفيدتين معنيين:

أحدهما: أن الآباء نهوا عن قتل الأولاد مع وجود إملاقهم.

والآخر: أنهم نهوا عن قتلهم وإن كانوا موسرين لتوقع الإملاق وخشيته^(١). وقد سبق أن ذكرنا ذلك في موطن سابق.

ثم إنه وضع كل آية في سياقها المناسب فقد وضع قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ في سياق الموسرين في آيات الإسراء فقد قال قبلها: ﴿وَأَتِذَا الْقُرُوفِ حَقُّهُوَالْمَسْكِينِوَابْنِ السَّبِيلِ﴾، والمأمور بإعطاء حقوق هؤلاء هم الأغنياء الموسرون لا الفقراء. ثم قال ﴿وَلَا تُبْذِرُوا مَالَكُمْ بِذِرَارٍ﴾ والمأمور بعدم التبذير هو الموسر في الأكثر، لأن الفقير ليس عنده شيء في الغالب فيبذره.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ وهذا يقال لمن كان عنده مال ولا يقال للفقير المعدم، فإن الفقير لا يتمكن من بسط يده كل البسط وإنفاق ما عنده. فناسب ذلك أن يقول مخاطباً الموسرين: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾.

فوضع كل آية في مكانها الذي هو أليق بها.

وقد تقدم آية الأنعام قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ذلك أن الداعي لقتل المفتقرين أبناءهم أقوى من داعي الموسرين فوضعها في سياقها المناسب. ثم بين أن هؤلاء خسروا ولم يربحوا كما كانوا يظنون.

(١) البحر المحيط ٢٥١/٤.

وقال في الإسراء: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأنعام، ذلك أن قتل الآباء الموسرين أولادهم خشية الافتقار أعظم جرماً من قتل الآباء المفتقرين الذين ليس عندهم ما يقوم بإعالة أولادهم. ولا شك أن كليهما مرتكب لكبير إلا أن هذا أكبر وأعظم جرماً.

٤ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وقد مر في السورة نحو هذا فقال: ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

فقد عمم في الأنعام فذكر الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وخص الزنى بالذكر من بين الفواحش في الإسراء. وسبب ذلك والله أعلم أن المفتقر الذي لا يجد شيئاً قد يرتكب سيئات كثيرة ليسد خلته، فهو قد يسرق وقد يزني وقد يقتل وقد يفعل وقد يفعل وقد نسب إلى الرسول ﷺ أنه قال: (كاد الفقر أن يكون كفراً). وجاء في الأثر: (عجبت لمن لا يجد قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه). وقد أسقط عمر بن الخطاب حد السرقة عام الرمادة لأن الناس جياع. حتى إن الاشتراكية الحديثة جعلت الفساد كله مسبباً عن الفقر.

فوضع في سياق المفتقرين النهي عن عموم الفواحش، لأن الفقر مدعاة إلى ارتكابها.

وقد خص الزنى بالذكر في الإسراء لأنه أكبر أو من أكبر ما يبغيه الموسرون، فهم يبدلون له المال الكثير ويلهثون وراءه.

فانظر كيف جمع الفواحش مع المفتقرين وذكر الزنى خصوصاً مع الموسرين، ولم يكتف بذلك بل علل النهي عنه بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ فنهى بذلك عن سائر الفواحش.

ثم انظر كيف نهى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾. والنهي بـ (لا تقربوا) أشد من النهي بـ (لا تنزوا) أو (لا تفعلوا فاحشة) ونحوها، ذلك أنه نهى عن الاقتراب منه فضلاً عن مباشرته وفعله. جاء في (روح المعاني): «ولا تقربوا الزنى بمباشرة مبادئه القريبة أو البعيدة فضلاً عن مباشرته، والنهي عن قربانه

على خلاف ما سبق ولحق للمبالغة في النهي عن نفسه ولأن قربانه داعٍ إلى مباشرته»^(١).

وقد وسط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرّمة، ذلك لأن الزنى مدعاة إلى قتل الأولاد غير الشرعيين أو جعلهم في حكم المقتولين برميهم للتخلص منهم. فيكون التعبير قد تدرج من قتل الأولاد بسبب الفقر إلى قتل الأولاد بسبب الفاحشة إلى قتل النفس عموماً.

جاء في (روح المعاني): «وتوسيط النهي عنه بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس المحرّمة مطلقاً... باعتبار أنه قتل للأولاد، لما أنه تضييع للأنسب فإن مَنْ لم يثبت نسبه ميت حكماً»^(٢).

٥ - قال في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيٍّ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُمْ كَانَ مَنصُورًا﴾.

فاكتفى بذكر النهي في الأنعام ولم يكتف بذلك في الإسراء، بل ذكر ذلك وذكر حق الولي في الاقتصاص ونهاه عن الإسراف في القتل.

والنهي عن الإسراف ههنا متناسق مع النهي عن التبذير في الأموال، ثم إن هذا التبسط والإفاضة ملائمان لسياق الإسراء، كما أن ذلك الإيجاز والاختصار ملائمان لسياق الأنعام.

٦ - قال في الأنعام والإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [٣٤ و ١٥٢] فقد نهاهم عن الاقتراب منه إلا بالتي هي أحسن فكيف بالتصرف فيه؟ وهذا النهي أبلغ من القول: (ولا تتصرفوا بمال اليتيم) أو نحو ذلك، فقد «نهى عن قربانه لما ذكر سابقاً من المبالغة في التعرض له»^(٣).

(١) روح المعاني ١٥/٦٧.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) روح المعاني ١٥/٧٠.

٧ - قَدَّم الإيفاء بالكيل والميزان على الإيفاء بالعهد في الأنعام، وقَدَّم الإيفاء بالعهد على الإيفاء بالكيل والميزان في الإسراء، ذلك لأنه مر ذكر المفتقرين في الأنعام: ﴿وَلَا تَقْنُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقُوا﴾، ومر ذكر الموسرين في الإسراء، والفقراء أدعى إلى التطفيف وعدم الإيفاء بالكيل لحاجة المفتقر إلى المال، فكان وضع كل تعبير في مكانه الذي هو أليق به.

٨ - قال في الأنعام: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾.

وقال في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ زُرُوعًا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. فزاد (إذا كَلَّمْتُمْ). وهذه الزيادة متناسبة مع سياق التفصيل في الإسراء. ومعنى: (إذا كَلَّمْتُمْ) وقت الكيل، فقد أمر بالإيفاء وقت الكيل وعدم تأخير بعض الحق. جاء في (البحر المحيط): «والتقييد بقوله: (إذا كَلَّمْتُمْ) أي: وقت كيلكم على سبيل التأكيد وأن لا يتأخر الإيفاء بأن يكيل بنقصان ما، ثم يوفيه بعد فلا يتأخر الإيفاء عن وقت الكيل»^(١).

وفي هذا التقييد فائدة أخرى فمعنى (إذا كَلَّمْتُمْ): إذا بعتم، والتطفيف يكون في هذا الموطن فإن البائع هو الذي يطفف وينقص في الكيل أما الذي يكتال فلا حاجة إلى أمره بالإيفاء^(٢).

٩ - قال في الأنعام بعد الأمر بإيفاء الكيل والميزان بالقسط: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

ومناسبته مع ما قبله أن ما قبله أمر بالعدل في الأمور المادية، وهذا أمر بالعدل في القول.

١٠ - قال في الأنعام: ﴿وَبِهَدْيِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ بتقديم الجار والمجرور على الفعل.

وقال في الإسراء: ﴿وَأَوْفُوا بِالْمَهْدِ﴾ بتقديم الفعل على الجار والمجرور.

(١) البحر المحيط ٦ / ٣٤ - ٣٥ .

(٢) انظر روح المعاني ١٥ / ٧١ .

وهذا التقديم في آية الأنعام للاهتمام والعناية، ذلك أنه أضاف العهد إلى الله فازداد تفخيماً وكان ذلك أدعى إلى تقديمه.

وقد تقول: ولكن الله سبحانه قال في مكان آخر: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل] فقدم الفعل على عهد الله.

وأحسب أن الفرق واضح بينهما ففي آية النحل خصص عهد الله بقوله: (إذا عاهدتم) وأطلقه في آية الأنعام. والفرق بينهما أن العهد الذي في النحل يعني به العهد الذي يعقده الشخص باختياره بدليل قوله: (إذا عاهدتم). جاء في (التفسير الكبير): «ولقائل أن يقول: إنه تعالى قال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ فهذا يجب أن يكون مختصاً بالعهود التي يلتزمها الإنسان باختيار نفسه لأن قوله: (إذا عاهدتم) يدل على هذا المعنى»^(١).

وأما ما في آية الأنعام فهو عام يشمل جميع العهود ما عهده الله إلى عباده وما تعاهد عليه الخلق فيما بينهم. ولا شك أن عهد الله بالمعنى العام أعظم من عهود العباد فيما بينهم. فقدم المجرور في الأنعام للاهتمام والعناية، وقدم الفعل في النحل.

وهناك أمور أخرى طريفة في هاتين المجموعتين من الآيات، غير أننا نكتفي بهذا القدر فإن فيه الكفاية فيما أحسب.

(١) التفسير الكبير ٢٠ / ١٠٧ .

الحشد الفني في القصص القرآني

إن القصة الواحدة قد يكون فيها أكثر من موطن عبرة وأكثر من جانب استشهاد، فلا غرو إذن أن تذكر في المناسبة التي يراد الاستشهاد لها أو الموطن الذي يراد الاتعاظ به، وأن يبرز منها ما يراد الاعتبار أو الاستشهاد به ويسلط الضوء عليه. وهذا شأن القصص القرآني، فأنت ترى أن القصة في القرآن كأنها تتكرر في أكثر من موطن، والحقيقة أنها لا تتكرر ولكن يعرض في كل موطن جانب منها بحسب ما يقتضيه السياق، وبحسب ما يراد من موطن العبرة والاستشهاد.

إن قصة موسى مثلاً فيها مواطن عبر كثيرة ومواطن استشهاد متعددة:

منها: بيان أن قدر الله ماضٍ لا محالة وأنه لا يستطيع أحد أن يغيره أو يرجئه مهما حاول واتخذ من أسباب ووسائل، ويتجلى ذلك في قتل فرعون أبناء بني إسرائيل حذراً من ظهور الشخص الذي يزيل ملكه منهم، إلا أنه ربي في حجره الشخص الذي كان مقدرًا له أن يزيل ملكه.

ومنها: بيان عاقبة الظلم والظالمين، ويتجلى ذلك في نهاية فرعون النهاية الوبيلة.

ومنها: بيان لنفسية الشعوب المستضعفة المستذلة ولتكونها والسبل التي ينبغي أن تسلكها لتتحرر. ويتجلى ذلك في ذكر نفسية وتكوين بني إسرائيل الذين تربوا على الذلة والجبن والخنوع وذكر عنادهم وصلفهم وجبنهم وحبهم للدينار، ومحاولة سيدنا موسى إعدادهم إعداداً آخر يرفعهم من وهدة الوحل الذي يتمرغون فيه، فلم يستجيبوا له حتى قضى الله عليهم بالتيه أربعين سنة أهلك فيها هذا الجيل وأخرج جيلاً آخر لم يتكون مثل هذا التكوين الدليل ولم ينشأ تلك النشأة المهينة.

ومنها: بيان أن الحق له السلطان الأعظم على النفوس إذا ما عرفته وآمنت به، وأنه ليس بوسع أحد أي أحد أن يحول بينها وبينه مهما اتخذ من وسائل

إغراء أو تهديد، ويبدو ذلك في إيمان السحرة بموسى وفي دخول الحق بيت
فرعون أعني إيمان امرأة فرعون.

وفيها وفيها، فذكر في كل موطن ما يقتضيه السياق منها.

ولذا نراه لا يذكر القصة على صورة واحدة بل، نراه يذكر في موطن ما يطوي
ذكره في موطن آخر، ويفصل في موطن ما يوجزه في موطن آخر، ويقدم في
موطن ما يؤخره في موطن آخر. بل نراه أحياناً يغير في التعبيرات ونظم الكلام
تغييراً لا يخل بالمعنى. كل ذلك يفعله بحسب ما يقتضيه السياق وما يتطلبه
المقام وذلك في حشد فني عظيم.

وحتى لا نطيل في سرد هذه الأحكام نذكر أمثلة على ذلك في اختيار طرف
من القصص القرآني ولنبدأ بقصة سيدنا آدم عليه السلام.

قصة سيدنا آدم عليه السلام

١ - قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢١ ﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٢٢ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ٢٣ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ٢٤ قَالَ يَكَادُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٢٥ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٢٦ وَقُلْنَا يَتَّكِدْ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٢٧ فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ٢٨ فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْتَوَابُ الرَّجِيمُ ٢٩ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٣٠ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ٣١ ﴾

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ١ ﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ٢ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ٣ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ٤ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٥ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ٦ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ٧ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ فِي بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ٨ قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْهَبًا وَمَا مَذْهُورًا لَمَنْ يَبْعَثُ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ٩ وَكَيَادُمُ آدَمُ أَسْكُنَ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٠ فَوسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ١١ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ حَقٍّ ١٢ فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا

رَبِّهَآ أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَآ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهبطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَبْنَىٰ ۖ ءَادَمُ قَدْ أُنْزِلَا عَلَىٰ كُرْسِيِّ لِيَاسَا يَوْرَىٰ سَوَاءَ تَكُنَّ وَرِدْشًا وَلِيَاسُ النَّفْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنَىٰ ۖ ءَادَمُ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءً تَهُمَا إِنَّهُ يَرْبِكُمْ هُوَ وَفِيهِلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ۞

* * *

تبدأ هذه القصة في البقرة من أقدم حدث فيها حين أبلغ الرب ملائكته بقراره في أن يجعل في الأرض خليفة وذلك قبل خلق آدم. وفيها ذكر مراجعة الملائكة لربهم في هذا القرار مبدين عدم رغبتهم في هذا الاستخلاف لأسباب ذكروها. فقطع عليهم تخوفهم وظنونهم بعلمه الذي لا يحد. ثم ذكر اختبار المفاضلة الذي أجراه بين آدم والملائكة ففضلهم فيه آدم، وثبت لهم فيه أنهم ليسوا أهلاً للاستخلاف في الأرض بخلاف آدم.

لقد ذكر هذه الأوليات في أول سورة في القرآن تذكر فيها القصة ولم يذكرها في موطن آخر، وذكر هذه الأوليات في هذا الموطن بالذات له أكثر من دلالة، فنية وغير فنية.

ومن بين جوانبها أنها وردت في المكان المناسب لها تماماً، فقد وردت أوليات القصة عند أول ذكر لها في أول سورة من سور القرآن، كما أنها أول قصة افتتح فيها القصص القرآني. في حين ذكرت القصة في سورة الأعراف من مرحلة الخلق والتصوير فهي تبدأ بقوله تعالى: (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) فكانها كانت استكمالاً لما ورد في البقرة.

ذكر الله قصة آدم في البقرة بعد قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٢٨﴾.

وهذه الآية التي سبقت بها قصة آدم بدأت بتكريم الإنسان: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وختمت بالعلم: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

وجاءت القصة بعدها مبنية على هذين الركنين: تكريم آدم وتكريم العلم .

أما تكريم آدم فيظهر فيما يأتي:

١ - ذكر استخلاف آدم في الأرض: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ فهذا تكريم، إذ المستخلف ذو منزلة رفيعة ولا شك .

٢ - تفضيل آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها مما لا يعلمه الملائكة .

٣ - إسجاد الملائكة له .

وأما العلم في هذه القصة فقد تركز ذكره في ثلاثة مجالات:

١ - إثبات العلم الشامل لله .

٢ - نفي العلم عن الملائكة إلا ما علمهم إياه رب العزة .

٣ - إثبات التعليم لآدم بما يصلح أن يقوم به أمر الخلافة ويستقيم .

ومن هذا يتبين أن القصة وقعت في سياقها أحسن موقع وأجمله . فكانها جاءت تفصيلاً لما أجمل في الآية قبلها .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إن ذكر استخلاف آدم في الأرض لم يرد إلا في هذا المكان، ولم يرد في أي مكان آخر من القرآن الكريم . وهو أنسب مكان له أيضاً إذ الاستخلاف الناجح لا بد أن يتم له أمران:

الأول: أن يكون للخليفة حق التصرف والتدبير فيما استخلف فيه .

والثاني: أن تكون له القدرة على هذا التصرف، وأن يكون اختياره قائماً على العلم بإمكانياته وقدراته على هذا الاستخلاف .

أما الجانب الأول وهو جانب التدبير والتصرف فقد فوضه به ربه بأوسع نطاق بقوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فلو لم يخلق له ما في الأرض جميعاً ما صح أن يكون خليفة لله فيها .

وأما من حيث إمكانياته وقدراته فقد تبين بالاختبار أنه أصلح المخلوقات لهذه المهمة، هذا علاوة على أن الذي اختاره عالم الغيب والشهادة .

وقد ذكرت الآية التي وردت في مقدمة القصة هذين الركنين وهما قوله:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

فتكون الآية أجملت ركني الاستخلاف أيضاً، وبهذا تقع مسألة الاستخلاف هذه في أنسب مكان لها أيضاً.

ويتبين مما مر:

أنَّ الآية التي وقعت في مقدمة القصة أجملت قصة آدم من ناحية، وأجملت ركني الاستخلاف المذكور فيها من ناحية أخرى.

فتكون قصة آدم بصورتها هذه وقعت في أنسب سياق لها وأعجبه.

هذا من حيث التفصيل السياقي للقصة، وأما من حيث الإجمال فإننا يمكننا القول: إنَّ القصة في هذا الموطن في كل حلقاتها ومجالاتها مبنية في الحقيقة على تكريم آدم، وكل الجوانب الأخرى المذكورة فيها إنما تخدم هذا التكريم. فتكريم العلم إنما ظهر في العلم الذي يحمله آدم، ومسألة الاستخلاف إنما تدور على استخلاف آدم. فهي تدور أساساً على تكريم آدم. وكل ما فيها من ألفاظ ومواقف إنما هي مبنية على هذا التكريم.

في حين أن القصة في الأعراف ليست مبنية على هذا الأمر بل لها غرض آخر، وقد وقع فيها التكريم ثانوياً. ونظرة واحدة إلى السياق الذي وقعت فيه القصة والتعبيرات التي وردت فيها تريك مصداق هذا الأمر.

لقد بدأت القصة في الأعراف بعد قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (١).

وأنت ترى الفرق واضحاً من حيث التكريم بين قوله: ﴿ خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقوله: ﴿ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ ﴾. وغني عن القول إنَّ التعبير الأول يدل على تكريم أكبر من الثاني. ثم انظر كيف ختم الآية بقوله: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ فهي في مقام العتاب على بني آدم ومؤاخذتهم على قلة شكرهم وليست في مقام تكريمهم. وقبلها قال ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ ﴾ فأنت ترى أن المقدمتين تختلفان، وكل قصة إنما جاءت منسجمة مع مقدمتها.

أما من حيث السياق فإن القصة وقعت في الأعراف في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم، وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَابَيْتٍ أَوْهُمْ فَآلُوتُ﴾ ﴿١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٢﴾

فقد ذكر أنه عاقب قسماً كثيراً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم، فالفرق واضح بين السياقين. ولذا بنيت كل قصة على ما جاء في سياقها. وإليك إيضاح ذلك:

١ - لقد ذكر معصية إبليس في البقرة بقوله: ﴿أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ فقد جمع لإبليس الإباء والاستكبار والكفر للدلالة على شناعة معصيته بحق آدم الذي أكرمه الله وعلمه. ولم يقل مثل ذلك في أي مكان آخر من القرآن بل هو إما أن يقول: (أبى) وإما أن يقول: (استكبر) كما سنرى ذاك، ولم يجمعهما إلا في هذا الموطن. وأما في الأعراف فقد قال: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ وأنت ترى الفرق واضحاً بين التعبيرين. فقد ذكرت كل عبارة بحسب موقف التكريم.

٢ - قال في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ﴿٣٥﴾.

وقال في الأعراف: ﴿وَبَقَادُمْ آسَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ ﴿١٩﴾.

وأنت تلاحظ الفروق بين التعبيرين في هاتين الآيتين. فقد قال:

في البقرة في الأعراف

وقلنا يا آدم اسكن ويا آدم اسكن

وكلا منها وكلا منها

رغداً رعداً

حيث شئتما من حيث شئتما

فقد أسند القول في البقرة إلى نفسه (وقلنا يا آدم) وهذا يقوله القرآن في مقام التكريم والتعظيم، فإن الله سبحانه يظهر نفسه في مقام التفضل والتكريم، في حين جمع بين طرد إبليس وإسكان آدم بقول واحد في الأعراف وهو لفظ (قال) بإسناد القول إلى الغائب: ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْهُورًا . . . وَيَتَكَادَمُ أَتَكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فلم يفرد آدم بقول.

وناسب التكريم والتعظيم أن يذكر (رغداً) في البقرة دون الأعراف لأن المقامين، مختلفان جاء في (البرهان) للكرمانلي: «وزاد في البقرة (رغداً) لما زاد في الخبر تعظيماً بقوله: (وقلنا) بخلاف سورة الأعراف فإن فيها: قال»^(١).

وقال في البقرة: (وكلا) وقال في الأعراف: (فكلا) فجاء بالواو في البقرة وجاء بالفاء في الأعراف. والواو لمطلق الجمع والفاء تفيد التعقيب والترتيب. فالواو أوسع من الفاء لأن من جملة معانيها معنى الفاء، فيصح أن يكون معطوفها مفيداً للتعقيب ولغيره. جاء في (التفسير الكبير): «قال في سورة البقرة: (وكلا منها رغداً) بالواو وقال ههنا: (فكلا) فما السبب فيه؟»

وجوابه من وجهين:

الأول: أن الواو تفيد الجمع المطلق، والفاء تفيد الجمع على سبيل التعقيب فالمفهوم من الفاء نوع داخل تحت المفهوم من الواو. ولا منافاة بين النوع والجنس»^(٢).

فالواو صالحة لجميع الأزمان بما فيها معنى الفاء. أما الفاء فتفيد التعقيب، أي: أن يقع المعطوف بعد المعطوف عليه مباشرة. فجاء بالواو في سورة البقرة للدلالة على السعة في الاختيار، وهو المناسب لمقام التكريم. ألا ترى لو قلت لشخص ما: (ادخل وكل) كان له الحق في أن يأكل متى شاء على حسب رغبته، فمتى أكل كان موافقاً للأمر.

(١) البرهان ٨٦.

(٢) التفسير الكبير ٤٥/١٤.

ولو قلت: (ادخل فكل) كان عليه أن يأكل في عقب الدخول ولو تأخر لكان مخالفاً للأمر ويحق لك أن تمنعه منه. فالواو أرحب زمناً من الفاء. فذكر كل حرف في المكان الذي هو أليق به.

وقال في البقرة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

وقال في الأعراف: ﴿فَكَلَّا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

فقد أعاد ضمير الجنة في البقرة مع الأكل فقال: (منها) ولم يعده في الأعراف. فأنت ترى أنه ذكر الجنة وضميرها في البقرة. وهو المناسب لمقام التكریم فيها، ولم يفعل مثل ذلك في الأعراف.

ثم إنَّ الظرف (حيث شئتما) في البقرة يحتمل أن يكون للسكن والأكل جميعاً والمعنى: (اسكنا حيث شئتما وكلا حيث شئتما) فالسكن حيث يشاءان والأكل حيث يشاءان أيضاً.

وأما التعبير في الأعراف فلا يحتمل إلا أن يكون للأكل (فكلا من حيث شئتما) ولا يصح تعليقه بالسكن، فلا يصح أن يقال: (اسكنا من حيث شئتما) فالمشيئة والتخير في البقرة أوسع لأنها تشمل السكن والأكل بخلاف الأعراف، وهو المناسب لمقام التكریم في البقرة كما هو ظاهر.

٣ - قال في البقرة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾.

وقال في الأعراف: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.

والإزلال غير التَّدْلِيَةِ فإن الزلة قد تكون في الموضع نفسه، وأما التدلية فلا تكون إلا إلى أسفل، ذلك أنها من التدلية في البئر فإذا دلت أحدًا فقد أنزلته إلى أسفل، بخلاف الزلة فقد لا تكون إلى أسفل. ومعنى (دلاهما): أنزلهما من مكان إلى مكان أخط منه. فخفف المعصية في البقرة وسماها زلة مراعاة لمقام التكریم بخلاف الأعراف. فاستعمل كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

٤ - لم يذكر في البقرة معاتبة الرب أو توبيخه لآدم وزوجه على معصيتهما

مراعاة لمقام التكریم بخلاف الأعراف فقد ذكر أنه عاتبهما عليها فقال:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢١).

ولا شك أن مرتبة العتاب أدنى من عدمه.

ثم انظر كيف ناسب هذا العتاب لأبوي البشر في الجنة عتاب أبنائهما في الدنيا في الآية التي سبقت هذه القصة: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وكيف وقعا موقعاً متناسقاً واحداً؟

٥ - طوى في البقرة تصريح آدم عن نفسه بالمعصية ولم يذكرها إكراماً له في حين ذكرها في الأعراف فقال: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّارْتَقِفِرْنَا وَتَرَحَّمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وانظر بعد هذا كيف يتسق ندم آدم ههنا مع ما ذكره قبل القصة من ندم المعاقبين من بني آدم ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ فما كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف].

ثم انظر كيف اتفق الندمان على أمر واحد وهو الظلم فقال آدم: ﴿ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ وقال أبنائه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ثم ارجع النظر مرة أخرى وانظر كيف كانت العقوبة على قدر الظلم، فقد قال آدم: (ظلمنا) بالصيغة الفعلية الدالة على الحدوث والطروء للدلالة على أنها زلَّة طارئة وليست بمعصية إصرار. وقال أبنائه: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بالصيغة الإسمية الدالة على الثبات على الظلم والإصرار فتاب على الأولين وأهلك الآخرين.

فانظر يا رعاك الله أيّ كلام هذا وأية لوحة فنية هذه!

٦ - ذكر في البقرة أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه ولم يذكر ذلك في الأعراف، وإنما ذكر فيها أن آدم طلب من ربه المغفرة، والرحمة ولم يذكر أنه تاب عليه.

فانظر الفرق بين المقامين:

مقام البقرة الذي لم يذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة وذكر أنه تاب عليه مع ذلك.

ومقام الأعراف الذي ذكر فيه أن آدم طلب من ربه المغفرة ولم يذكر أنه تاب عليه. وانظر تناسب سياق البقرة مع مقام التكريم وسياق الأعراف مع مقام العتاب والمؤاخذه وقل: جلّ قائل هذا الكلام.

٧ - قال في البقرة: ﴿ قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٨٦).

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف. والتكريم واضح في هذه الآية إذ فيها وعد لمن تبع الهدى بالعودة إلى الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

ثم انظر كيف قال: (تبع) بالتخفيف ولم يقل: (اتبع) بالتشديد كما فعل في (طه) فقد قال فيها: ﴿ قَالَ أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٣٧) ذلك أن الفعل بالتشديد يفيد المبالغة فاكتفى في البقرة بالأخف من الحدث ولم يشدد عليهم تخفيفاً على البشر مراعاة لمقام التكريم.

هذا علاوة على أن في وضع كل فعل من هذين الفعلين في موضعه أسرار وأسرار.

منها: أن الفعل (تبع) تردد في سورة البقرة أكثر من أية سورة أخرى في القرآن الكريم، فوضعه في مكانه الذي هو أليق به. وقد مر بنا نظائر هذا الاستعمال.

ومنها: أن التخفيف الذي يفيد التلطف بالعباد جاء مع إسناد القول إلى نفسه، وأن التشديد جاء مع إسناد القول إلى الغائب (قال) وقد ذكرنا أن الله سبحانه يظهر نفسه في موقف التلطف والتكريم. فوضع كل فعل في موضعه الذي هو أليق به.

ومنها: أن نهاية الآية في البقرة تتعلق بالآخرة وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢٨٦) أي: في الآخرة. ونهاية الآية في (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة وهو قوله: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ فقوله: (فلا يضل) متعلق بالدنيا لأن الضلال إنما يكون فيها: وأما في الآخرة فينكشف الغطاء ويصبح الناس كلهم على بصيرة. وقوله: (ولا يشقى) متعلق بالآخرة لأن الدنيا لا تخلو من الشقاء بدليل قوله تعالى لآدم قبيل هذه الآية: ﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ أي: إذا خرجت من الجنة شقيت، وقد أخرجهما من الجنة فلا بد من الشقاء إذن.

ولما كانت آية (طه) تتعلق بالدنيا والآخرة بخلاف آية البقرة زاد في بناء الفعل إشارة إلى زيادة متعلقه.

ثم إن كل آية من الآيتين تقتضي الفعل الذي اختير لها من جهة أخرى، ذلك أن آية (طه) تتضمن أمرين: مجاهدة الضلال في الدنيا والفوز في الآخرة. وآية البقرة تتضمن الفوز في الآخرة. والحالة الأولى تتطلب عملاً أكثر وأشق فجاء بالفعل الدال على المبالغة والتكلف للأمر الشاق، وجاء بالفعل الخفيف للعمل الخفيف.

وقد تقول: أفلا يتطلب الفوز في الآخرة مجاهدة الضلال في الدنيا؟ فأقول: إنَّ الفوز في الآخرة على مراتب بعضها أعلى من بعض. وليس كل الناجين في الآخرة ممن كانوا يجاهدون الضلال في الدنيا أو لم يضلوا في أمر من الأمور. فمجاهدة الضلال والتحري لعدم الوقوع فيه مرتبة عالية تتطلب جهداً كبيراً ومشقة في العمل. فوضع كل فعل في المكان الذي يقتضيه تماماً.

فانظر كيف يراعي في اختيار اللفظة أوجهاً متعددة، كل وجه يقتضيها من ناحية وينادي عليها بحيث تكون اللفظة كأنها مصوغة لهذا الموضع، أو أن الموضع كأنما أعد إعداداً لتحل فيه.

ثم انظر هداك الله أيمن أن يكون هذا من كلام البشر؟!.

٨ - قال في الأعراف: ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ وقال فيها أيضاً: ﴿ فَأَهْطِمْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا ﴾

وقال في خاتمة السورة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ فناسب بين القصة وخاتمة السورة، ذلك أنه نفى عن ملائكته التكبر وأثبت لهم السجود، بخلاف إبليس الذي أثبت له التكبر ونفى عنه السجود.

وقال في البقرة في إبليس: ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ وقال في خاتمة السورة: ﴿ فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ فلام بين القصة وخاتمة السورة كما فعل في الأعراف.

ونحو ذلك قوله تعالى على لسان إبليس في قصة الأعراف: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ فِيهِمْ أَيْدِيَهُمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ وقوله تعالى في مقدمة القصة: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ فقد لاءم بين الآيتين أجمل ملاءمة، فقد قطع إبليس عهداً على نفسه بأنه سيحول بين بني آدم والشكر. وظاهر أن بني آدم وقعوا في شرك إبليس الذي نصبه لهم لئلا يشكروا فكانوا كما أراد (قليلاً ما يشكرون). وصدق قول الله فيهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ]. فقد استجابوا لوسوسته كما استجاب أبوهم لها من قبل ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٩ - قال تعالى في الأعراف: ﴿فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا﴾ فذكر أن الغرض من الوسوسة هو أن يبدي لهما السوءات المخفية. وقد وقع ذلك فعلاً: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ بغية سترها.

وعقب على ذلك بقوله: ﴿يَبْقَىٰ آدَمُ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ قَوْمِكَ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ﴾.

وهذا التعقيب هو المناسب لظهور السوءات وانكشافها في الجنة. ثم انظر كيف ذكر ههنا كلمة (لباس) مع التقوى فقال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ﴾ مناسبة لما مر من السياق. فالتقوى لباس يورِي السوءات الباطنة، واللباس والرياش يورِي السوءات الظاهرة. فانظر هذا التناسب الجميل. جاء في (التفسير الكبير):

«إنه تعالى لما ذكر واقعة آدم في انكشاف العورة أنه كان يخصف الورق عليها أتبعه بأن يبين أنه خلق اللباس للخلق ليستروا بها عوراتهم، ونبه به على المنة العظيمة على الخلق بسبب أنه أقدرهم على التستر»^(١).

(١) التفسير الكبير ١٤ / ٥١ .

ثم انظر إلى تحذير الله لذرية آدم كيف يتناسب وما مر فقال: ﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا﴾ ﴿٢٧﴾ [الأعراف].

وانظر بعد ذلك كيف أمر بأخذ الزينة عند كل مسجد فقال: ﴿يَنْبَغِيءَ آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ ﴿٢١﴾ [الأعراف]. والزينة هي الرياش واللباس^(١).

وعقب بعد ذلك بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأعراف].

ثم انظر بعد ذلك كيف قال في عذاب أهل جهنم: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ ﴿٤١﴾ وكيف ناسب كل ذلك ما مر في قصة آدم.

فأنت ترى أن الشيطان نزع عن أبويننا اللباس في الجنة، وهو في هذه الدار حريص على أن يفتننا لتتعرى من اللباس الظاهر والباطن، ولا يرضى في الآخرة إلا بأن نتسربل من سراويل جهنم أعاذنا الله منها وأن يكون لنا منها مهاد وغواش نسأل الله العافية.

فانظر أي تناسق هذا وأي فن عجيب.

(١) انظر الكشف ١ / ٥٤٦ .

٢ - قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)

قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾ (١) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٢) ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ (٣) ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ (٤) ﴿ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٥) ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴾ (٦) ﴿ قَالَ فِيمَا أغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٧) ﴿ ثُمَّ لَا تَبْهَتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٨) ﴿ قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا لَمَنْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٩) ﴿ وَكَهَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠) ﴿ فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ (١١) ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (١٢) ﴿ فَدَلَّهُمَا بِهَؤُلَاءِ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (١٣) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (١٤) ﴿ قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ (١٥) ﴿ قَالَ فِيهَا يَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾ (١٦) .

* * *

وقال في سورة ص:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ﴿ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ (٢) ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣) ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ (٤) ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴾ (٥) ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ سَاجِدِينَ ﴾ (٦) ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ (٧) ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٨) ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴾ (٩) ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ (١٠) ﴿ قَالَ فَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ (١١) ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (١٢) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٣) ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ (١٤) ﴿ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴾ (١٥) ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٦) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٧) ﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ ﴾ (١٨)

أَقُولُ ﴿٨٦﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَتَّبِعُكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٩٠﴾ .

بيّنا في موطن سابق علاقة قصة آدم بالآية التي تقدمتها في سورة الأعراف مما يغني عن إعادة ذكره .

أما القصة في سورة (ص) فقد وردت بعد ذكر الخصومة في الملاء الأعلى ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ . وهذا هو الموطن الوحيد الذي ورد فيه ذكر لهذه الخصومة ، ولم يرد مثل ذلك في أي موطن آخر من القرآن الكريم . وهذا هو المقام المناسب لذكرها ، ذلك أن جو السورة مشحون بالخصومات فقد افتتحت السورة بالخصومة والشقاق : ﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِهِمْ ﴾ ﴿٢﴾ وهل الشقاق إلا خصومة ؟

ووردت فيها قصة الخصومة التي فصل فيها نبي الله داود قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ يَتْنُو بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ﴾ ﴿٢٢﴾ .

وخصومة نبي الله أيوب مع زوجه حتى إنه حلف ليضربنّها مائة جلدة ، فأثناه الله بقوله : ﴿ وَخُذْ بِدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ﴾ ﴿١١﴾ .

وخصومة أهل النار في النار وتبادل الشتائم فيما بينهم : ﴿ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَضٍ مَعَكُمْ لَا مَرْجَأَ لَهُمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَأَ بَكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيَسْ أَلْقَرَارُ ﴾ ﴿٦٠﴾ .

ثم ختم هذه الخصومة بقوله : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاضُّمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ ﴿٦١﴾ . وخصومة الملاء الأعلى في أمر آدم : ﴿ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٢٥﴾ . فانظر كيف جاء ذكر الخصومة ههنا مناسباً لجو السورة تماماً .

مما مر يتبين أن القصة وقعت ههنا في سياق الخصومات وما تقتضيه من أخذ ورد ومحاجة ، بخلاف القصة في سورة الأعراف . فقد ذكرنا فيما سبق أن القصة فيها وقعت في سياق العقوبات وإهلاك الأمم الظالمة من بني آدم وفي سياق غضب الرب سبحانه فقد قال قبلها : ﴿ وَكَمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا

فَجَاءَهَا بِأُسْنًا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿١١﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٢﴾ [الأعراف].

فقد ذكر أنه عاقب قسماً من بني آدم وأنزل عليهم بأسه لظلمهم. فمقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر مما هو في (ص). وقد بُنيت كل قصة على ما جاء في سياقها، وإليك إيضاح ذلك:

قال تعالى في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ﴿١١﴾.

وقال في (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ ﴿٧٥﴾.

فقد زاد (لا) في الأعراف لتوكيد السجود وهو قوله: (الآن تسجد) دون ما ورد في (ص) وذلك لأسباب عدة اقتضت الزيادة فيها. منها:

أن التوكيد في قصة الأعراف أشد فاقترضى ذلك أن يؤتى بـ (لا) الزائدة المؤكدة. يدل على ذلك بدوّه القصة في الأعراف بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾. و(لقد) مؤكدان هما اللام وقد. وهي - أعني لقد - قسم مقدر عند النحاة. والقسم توكيد بخلاف القصة في (ص) فإنها تبدأ بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾. وأن المؤكدات فيها أكثر (لقد، زيادة (لا)، إنك من الصاغرين، إنك من المنظرين، لأقعدن، لأتينهم، لأملأن جهنم منكم أجمعين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) فناسب ذلك المجيء بـ (لا) الزائدة المؤكدة.

ومما حسن التأكيد واقتضاه في الأعراف قوله تعالى: ﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ ومخالفة هذا الأمر كبيرة ولم يقل مثل ذلك في (ص) بل قال: ﴿مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ فكان الحساب على مخالفة الأمر أشد واللفظ أعنف وأغلظ.

وهناك جانب فني آخر حسن زيادة (لا) في الأعراف دون (ص) وهو أن سورة الأعراف تبدأ بـ ﴿الْمَصَّ﴾ وقد انتبه القدامى إلى أن الحروف المقطعة التي تبدأ بها السور يكثر تردها في السورة بصورة أكثر وأوضح من غيرها^(١).

(١) انظر بدائع الفوائد ٣ / ١٧٣ .

فناسب ذلك زيادة (لا) وهي لام وألف في السورة التي تبدأ بألف ولام دون التي لم تبدأ بهما.

ثم إن جو السورة في الأعراف يختلف عنه في (ص) مما حسن تأكيد السجود في الأعراف دون (ص)، ذلك أن مشتقات السجود كالسجود والساجدين ونحوها ترددت في سورة الأعراف تسع مرات^(١) بخلاف سورة (ص) فإنها لم تذكر فيها إلا ثلاث مرات^(٢). وختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف] في حين لم ترد مشتقات السجود في سورة (ص) إلا في هذه القصة في الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد ترددت مشتقات السجود في الأعراف في هذه القصة وحدها أربع مرات، وفي سورة (ص) جميعها ثلاث مرات، فناسب ذلك أن يؤكد السجود في الأعراف دون (ص) والله أعلم. ثم إن مقام السخط والغضب في قصة الأعراف أكبر كما ذكرنا، فناسب ذلك الزيادة في التوكيد والغلظة في القول، ويدل على ذلك أمور منها:

أنه طوى اسم إبليس فلم يذكره في الأعراف فقال: ﴿قَالَ مَانَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾^(١٢) في حين ذكر اسمه في (ص) فقال: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾^(٧٥).

ويدل على ذلك صيغة الطرد في الأعراف قال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾^(١٢) فقد كرر الطرد مرتين وهما قوله: (فاهبط) وقوله: ﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾. وكرر الطرد مرة أخرى في الآية الثامنة عشرة قائلاً: ﴿اَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُورًا وَمَا مَذْهُورًا﴾.

وليس الأمر كذلك في سورة (ص) فإنه قال: ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾^(٧٧) ولم يكرر الطرد مرة أخرى.

(١) انظر الآيات ١١ (ثلاث مرات)، ١٢، ٢٩، ٣١، ١٢٠، ١٦١، ٢٠٦.

(٢) انظر الآيات ٧٢، ٧٣، ٧٥.

لقد طرده في الأعراف كما طرده في (ص) ثم زاد عليه فقال في الأعراف: ﴿فَأَخْرَجَ إِنْكَ مِنَ الصَّنَعِينَ﴾ وقال أيضاً: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذَّةً وَمَا مَذْهُورًا﴾، وقال في (ص): ﴿فَأَخْرَجَ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ فكرر الطرد بصيغة الخروج مرتين في الأعراف ومرة في (ص). وزاد على ذلك في الأعراف فقال: ﴿قَالَ فَأَهْطِ مِنْهَا﴾ والهبط أشد طرداً من الخروج إذ الهبوط لا يكون إلا من أعلى إلى أسفل، بخلاف الخروج فقد لا يكون كذلك. فهو أخرجه أولاً ثم أهبطه مما يدل على شدة الغضب في الأعراف.

ومما يدل أيضاً على أن مقام السخط في قصة الأعراف أكبر: عدم التبسط مع إبليس في الكلام بخلاف ما ورد في (ص). وأن عدم التبسط في الكلام مما يدل على السخط الكبير يدل على ذلك أنه قال في (الأعراف): ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ آلَا تَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي أَتَكْبَرُ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ والتبسط واضح في القول الأخير.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فزاد (رب) والفاء.

وقال في الأعراف: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

في حين قال في (ص): ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ إلى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾.

فزاد الفاء وزاد ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾.

ثم انظر من الناحية الفنية كيف أنه في (ص) لما ذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ كان الجواب بالفاء كذلك: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾، ولما لم يذكر الفاء في قوله: ﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ كان الجواب بدون فاء كذلك: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾.

فانظر كيف أنه لما رأى أن الله تبسط معه في الكلام تبسط هو أيضاً، بخلاف ما في الأعراف فإنه لما رأى السخط الكبير لم يجرؤ أن يتبسط في الكلام بل جعله على أوجز صورة وأقصر تعبير، ولكل مقام مقال.

فانظر يا رعاك الله علو هذا الكلام وفخامته والبصير يرى.

٣ - قصة آدم في الحجر و (ص)

قال تعالى في سورة الحجر :

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢١﴾ وَالْبَلَاءَ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٣﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ ﴿٢٤﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ يَتَّبِعْ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٠﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣١﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٢﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٣﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٤﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٨﴾﴾ .

* * *

وقال في سورة ص :

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٣﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَىٰ إِلَّا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَجْدِينَ ﴿٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٨﴾ قَالَ يَبَايِعُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٩﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَ فَخَرِّجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿١١﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿١٢﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿١٨﴾ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٢٠﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَنَعْلَمَنَّ نَبَأُ بَعْدَ جَهَنَّمَ ﴿٢٢﴾﴾ .

* * *

عرض القرآن الكريم في سورتي الحجر و (ص) جانباً واحداً من القصة وهو ذكر معصية إبليس وعداوته للإنسان، ولم يذكر فيهما ما يتعلق بآدم، بل لم يرد

فيهما اسم آدم أصلاً، بخلاف ما مر في سورتي البقرة والأعراف فإنه ورد فيهما ذكر جانبي القصة: ما يتعلق بآدم وما يتعلق بإبليس.

فكان الغرض من ذكر القصة في الحجر و (ص) تحذير الجنس البشري من عداوة إبليس الأبدية.

ومع أن الجانب المذكور من القصة يكاد يكون واحداً في السورتين غير أنهما لم تتطابقا. فثمة أمور عرضت لها القصة في الحجر تختلف عما في (ص)، وهذا نظير ما مر بنا من اختلاف القصتين، في البقرة والأعراف.

إن كثيراً من الألفاظ والعبارات متطابقة في القصتين غير أن هناك اختلافاً بينهما أيضاً يتناسب وسياق كل قصة.

وإليك بيان ذلك وإيضاح طرف من الأسباب الداعية لهذا الاختلاف:

في (الحجر) في (ص)

-
- | | |
|--|---|
| - خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون | - خالق بشراً من طين |
| - إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين | - إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين |
| - مالك ألا تكون مع الساجدين | - ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي |
| | - أستكبرت أم كنت من العالين. |
| - قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون. | - قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين |
| - (ذكر إبليس أصل آدم ولم يذكر أصله هو) | - (ذكر إبليس أصله وأصل آدم وذكر أنه خير منه). |
| - وأن عليك اللعنة | - وأن عليك لعنتي |
| - قال ربّ بما أغويتني | - قال فبعزتك |
| - لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين | - لأغوينهم أجمعين (من دون ذكر التزيين). |
| - إلا من اتبعك | - وممن تبعك. |

١ - ذكر في سورة الحجر أنه خلق آدم من صلصال من حمأ مسنون، وذكر في (ص) أنه خلقه من طين. قال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وقال في (ص): ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾.

وكلمة (صلصال) متكونة من (صاد) وهو مفتتح سورة (ص) ومن (ألف ولام) وهما في مفتتح سورة الحجر، وقد تكررت هذه الكلمة في القصة مرتين، فتكون اللام تكررت أربع مرات والألف مرتين والصاد أربع مرات. وعلى هذا يكون وضع الكلمة في السورة المبدوءة بالألف واللام أنسب، لأن مجموع ترددهما أكثر من الصاد.

ومن ناحية أخرى إن القصة في سورة الحجر وردت بعد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ فكان المناسب أن ترد هذه اللفظة في صلب القصة أيضاً.

٢ - ذكر في الحجر أن إبليس (أبى).

وذكر في (ص) أنه استكبر.

قال تعالى في الحجر: ﴿إِلَّا إِلِيلِسَ أَن يَكُون مَعَ السَّجِدِينَ﴾ (٢١).

وقال في ص: ﴿إِلَّا إِلِيلِسَ اسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢١).

ومعنى (أبى) غير معنى (استكبر) فإن معنى (أبى): رفض وامتنع. ومعنى (استكبر): رأى نفسه خيراً من الآخرين. والرفض والامتناع قد يكونان لغير الاستكبار. وقد بنيت كل قصة على ما ذكر فيها. فقد بنيت قصة الحجر على الإباء والرفض، وبنيت قصة (ص) على الاستكبار، يدلك على ذلك أمور منها:

أنه لما قال في (ص): (استكبر) كان سؤال رب العزة له: ﴿اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ وهذا هو المناسب للاستكبار. ولم يقل مثل ذلك في الحجر.

ثم انظر إلى جواب إبليس في (ص) كيف كان مناسباً للاستكبار، ذلك أنه قال: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (٢١) وهو تكبر واضح يدلك على ذلك أنه لما قال ذلك في قصة الأعراف قال له رب العزة: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ (١٢).

ولم يقل مثل ذلك في الحجر ولكن قال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَاسْجِدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢٣) وهذا هو المناسب لكلمة (أبى) ذلك أن هذا القول يدل على الرفض والامتناع لا على الاستكبار. فإنك إذا قلت: (لم أكن لأفعل هذا) لم يفد قولك الاستكبار عن فعله، ولكن يفيد الامتناع عنه.

هذا علاوة على أن جوّ سورة الحجر عموماً هو الامتناع والرفض، وجوّ سورة (ص) هو الاستكبار والعلو.

فقد ذكر في الحجر أن قسماً من الكفار يرفضون الهداية ولو جئتهم بكل أسبابها قال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥).

وذكر فيها أن قوم لوط رفضوا عرض نبيهم لهم حين طلب منهم الكف عن التعرض لضيافته، قال تعالى على لسان نبيه لوط: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ (٢٨) ﴿وَأَقْوُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ (٢٩) فأجابوه قائلين: ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكَ عَنِ الْعُلَمِيكَ﴾ (٣٠).

وذكر فيها أن أصحاب الحجر رفضوا الآيات التي جاء بها نبيهم وأعرضوا عنها، قال تعالى: ﴿وَأَيَّتُهُمْ عَايَلَتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٤١).

في حين أن جوّ سورة (ص) يشيع فيه الاستكبار والعلو - كما أسلفنا - .

فقد ذكر في أول السورة أن الذين كفروا في عزة وشقاق. والمراد بالعزة ههنا «الاستكبار عن الحق»^(١) وعدم الانقياد له. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ (٢٠٦) [البقرة].

ثم ذكر قصة الخصمين اللذين بغى أحدهما على صاحبه واستكبر عليه. والباغي مستعلٍ ظالم مستكبر^(٢).

وذكر الطاغين وعذابهم قال تعالى: ﴿هَذَا وَابْنُ الْطَغِينَ لَشَرِّ مَثَابٍ﴾ (٥٥) ﴿جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا فَيَنْسِفُهَا إِلَى الْيَمِّ﴾ (٥٦) [ص].

والطاغية: هو الأحق المستكبر الظالم الذي لا يبالي ما أتى^(٣).

وذكر الذين اتخذوا غيرهم سخرى، والذي يسخر من الناس مستكبر عليهم يراهم دونه. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ (٦٦) ﴿أَتُخَذَتْهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ (٦٧).

ومن هذا نرى أن كل قصة وضعت في مكانها أحسن موضع وأجمله، وأن الجانب الذي عرضت له متلائم أحسن ملائمة مع جوّ السورة الذي وردت فيه.

(١) روح المعاني ٢٤ / ١٦٣ وانظر التفسير الكبير ٢٦ / ١٧٥ .

(٢) انظر لسان العرب وتاج العروس مادة (بغى).

(٣) لسان العرب وتاج العروس: (طغى).

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما جاء في البقرة بالقصة كاملة ما يتعلق منها بآدم وما يتعلق بإبليس جمع فيها ما تفرق في الحجر و (ص) فقال:

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]. في حين قال في الحجر (أبى) وقال في (ص) ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

٣ - قال في الحجر: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [٣١].

وقال في (ص): ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾.

فذكر السجود في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أن جو السجود شائع في قصة الحجر وسورتها أكثر مما في (ص). فقد ورد السجود في قصة الحجر ست مرات، في حين ورد في قصة (ص) ثلاث مرات. وقد ختمت السورة بالسجود أيضاً فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [٣٨].

وهذا بخلاف ما في (ص) فإنه حتى إن نبي الله داود لما تاب لم يذكر أنه سجد بل قال: ﴿فَاسْتَغْفِرْ رَبِّي وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [٢٤].

فوضع كل تعبير في المكان الذي هو أليق به.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف أنه لما قال في إبليس: ﴿أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أمر رسوله بأن يكون من الساجدين فقال له: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾. وهذا تناسق في التعبير جميل ومخالفة أصيلة لإبليس.

٤ - أضاف اللعنة إلى نفسه في قصة (ص) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٧٨].

ولم يفعل مثل ذلك في الحجر بل قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٣٥].

وذلك أنه لما قال في (ص): ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيَّ﴾ فأضاف الخلق إلى ذاته وإلى يديه العليتين قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ فأضاف اللعنة إلى نفسه. ولما لم يكن كذلك في الحجر قال: (اللعنة).

ثم إنه في قصة (ص) ذكر نفسه أكثر مما في الحجر، فإنه ذكر نفسه في (ص) ست مرات وفي الحجر ثلاث مرات.

قال في الحجر: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ السَّجِدِينَ﴾ (٢٩).

وقال في (ص): مثل ذلك وزاد عليه قوله:

﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ (٧٠) وقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ فكان كل تعبير مناسباً لجو القصة التي ورد فيها. جاء في (درة التنزيل): «اللسائل أن يسأل فيقول: إذا كان المراد باللعنة وبلعنتي شيئاً واحداً فما بال اللفظين اختلفا فجاء في سورة الحجر بالألف واللام وفي سورة (ص) مضافاً؟ وهل يصح في الاختيار أحدهما مكان الآخر؟

الجواب أن يقال: إنَّ القصة في سورة الحجر ابتدئت في المعتمد بالذكر وهو خلق الإنسان والجن باسم الجنس المعرف بالألف واللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ (٢١) [الحجر] ثم قال: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ﴾ (٢٢) [الحجر] وكان ما استحقه إبليس بترك السجود من الجزاء ما أطلق عليه اللفظ الذي ابتدئت بمثله القصة، وهو اسم الجنس المعرف بالألف واللام.

وكان الأمر في سورة (ص) بخلاف ذلك لأن أول الآية: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ (٧١) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُمُ السَّجِدِينَ﴾ (٧٢) ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥).

فلم تفتح بذكر الصنفين من الجن والإنس باللفظ المعرف بالألف واللام كما كان في سورة الحجر.

ولما كان موضع ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّجِدِينَ﴾ جاء بدلالة ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ﴾ فجعل بدل (الساجدين): ﴿أَنْ تَسْجُدَ﴾ ثم قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ فخصمه بالإضافة إليه دون واسطة يأمره بفعله، أجرى لفظ ما استحقه من العقاب على لفظ الإضافة كما قال: (بيدي) فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾

فكان الاختيار في التوفقة بين الألفاظ الذي افتتحت به الآية واستمرت إلى آخرها هذا^(١).

٥ - قال في (ص): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٢٩).

وقال في الحجر: ﴿بِمَا أَغْوَيْنِي لَا زَيْنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾^(٣٠).

فأقسم في (ص) بعزته، وأقسم في الحجر بإغوائه^(٢)، وذلك لما تقدم في (ص) ذكر اسمه العزيز قال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ﴾ وقال: ﴿الْعَزِيزُ الْفَقْرُ﴾. وقد بدئت السورة بالعزة أيضاً فقال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾^(٣١) [ص] فناسب أن يقسم بعزته سبحانه.

في حين أقسم في الحجر بإغوائه لما تردد من ذكر الإغواء، قال تعالى: ﴿وَلَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وقال: ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾.

فناسب أن يضع كل تعبير في مكانه الذي هو أنسب له.

٦ - قال في الحجر: ﴿لَأَزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣٢) وقال في (ص): ﴿لَأُغَوِّيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٣٣).

فذكر التزيين في الحجر ولم يذكره في (ص) ذلك أنه ورد ذكر الزينة في الحجر ولم يرد في (ص)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّظِيرِينَ﴾^(٣٤).

وقال في موطن آخر من السورة: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾^(٣٥).

وهذا من التزيين في الأرض.

فناسب ذلك ذكر التزيين في قصة الحجر دون (ص).

(١) درة التنزيل ٢٥١-٢٥٢.

(٢) وقد قيل أيضاً: إنَّ الباء في (بما أغويتني) للسبب لا للقسم وعلى أية حال فإن الجواب واحد.

٧ - قال في الحجر: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ ١٢٦ .

وقال في (ص): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ١٢٧ .

فذكر الاتباع بالتشديد في الحجر وذكر أتباعه بالتخفيف في (ص) وذلك أنه لما جاء بعد القصة في الحجر قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ عِبَادِيَ أَتَىٰ أَنَا الْعَفْوَٰرُ الْرَّحِيمُ﴾ ١٢٨ ناسب ذلك أن يخفف على عباده ويرحمهم بأن لا يدخل النار إلا من بالغ في اتباع إبليس، ولما لم يرد مثل ذلك في (ص) كان التحذير أشد.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ان قصة آدم في الحجر وردت بعد ذكر نعم الله على البشر: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ ١٢٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَمْ تَبْرُكُوا ١٣٠ وَلِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ١٣١ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَّاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ١٣٢ .

في حين وردت قصة آدم في (ص) بعد ذكر عقوبات أهل النار في النار فناسب السياق في الحجر التخفيف على عباده والتفضل عليهم، بخلاف السياق في (ص). وبهذا ناسب كل تعبير السياق الذي ورد فيه.

وهذا التعبير مشابه لما سبق أن ذكرناه من قوله تعالى في البقرة: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ١٣٣ وقوله في طه: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ ١٣٤ غير أن هذا في التحذير والترهيب وذلك في الإطماع والترغيب، فجمع الترغيب والترهيب في هذه القصة على أتم وجه وأكمل صورة، والحمد لله رب العالمين.

قصة سيدنا موسى (عليه السلام)

١ - في البقرة والأعراف

إن قصة سيدنا موسى في البقرة والأعراف تشتركان في قسم من المواطن وتختلفان في الكثير. ففي سورة الأعراف يذكر أموراً لا يذكرها في البقرة، كما يذكر أموراً في البقرة لا يذكرها في الأعراف.

وقد اخترنا نموذجاً من المواقف المتشابهة لنبين الحشد الفني فيه.

قال تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ ۝

* * *

وقال في سورة الأعراف:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ آبَ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِم رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ۝

والآن انظر الفروق التعبيرية بين المواطنين :

في البقرة في الأعراف

وإذ قلنا	وإذ قيل لهم
ادخلوا	اسكنوا
فكلوا	وكلوا
رغداً	—
وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة	وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً
نغفر لكم خطاياكم	نغفر لكم خطيئاتكم
وستزيد	ستزيد
الذين ظلموا	الذين ظلموا منهم
فأنزلنا	فأرسلنا
على الذين ظلموا	عليهم
يفسقون	يظلمون
وإذ استسقى موسى لقومه	إذ استسقاها قومه
فقلنا اضرب	وأوحينا إلى موسى . . . أن اضرب
فانفجرت	فانبعجت
كلوا واشربوا من رزق الله	—
فما سر هذا الاختلاف؟	

إن سر الاختلاف يتضح من الاطلاع على سياق الآيات في السورتين، فسياق هذه الآيات في سورة البقرة هو تعداد النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل، ويبدأ الكلام معهم بقوله: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٤٧) [البقرة]. ثم يأخذ بسرد النعم عليهم ويذكرهم بها.

أما في سورة الأعراف فالمقام مقام تقريع وتأنيب فإن بني إسرائيل قوم لا يتعظون فإنهم بعد ما أنجاهم من البحر وأغرق آل فرعون طلبوا من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها. وعندما ذهب موسى لميقات ربه عبدوا العجل. وإنهم كانوا ينتهكون محارم الله فقد طلب الله منهم أن يعظموا حرمة السبت فانتهكوها وأخذوا يصطادون الحيتان فيه إلى غير ذلك.

فالفرق واضح بين السياقين فناسب بين كل تعبير والمقام الذي ورد فيه وانظر إلى توضيح ذلك.

قال تعالى في سورة البقرة: (واذ قلنا) فأسند الرب القول إلى نفسه وقال في سورة الأعراف: (واذ قيل لهم) ببناء الفعل للمجهول.

والقرآن الكريم يسند الفعل إلى الله سبحانه في مقام التشريف والتكريم ومقام الخير العام والتفضل بخلاف الشر والسوء فإنه لا يذكر فيه نفسه تنزيهاً له عن فعل الشر وإرادة السوء. فإنه مثلاً عندما يذكر النعم ينسبها إليه لأن النعمة خير وتفضل منه. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٢] وقال: ﴿فَدَأْنَعُمُ اللَّهُ عَلَىٰ﴾ [النساء: ٧٦] وقال: ﴿فَأَوْفَيْتُكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ [النساء: ٦٩] وقال: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الاسراء: ٨٢] ففي النعمة أظهر نفسه فقال: (أنعمنا) وفي الشر قال: (وإذا مسه الشر) ولم يقل (مسسناه بالشر) أو (أصيناه بالشر). وقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] وقال: ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَهًا عَبْدًا أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩] وقال على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ [وإذا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ] [الشعراء: ٨٠] فأنت ترى أنه نسب الخير إلى ربه فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ ونسب السوء إلى نفسه فقال: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ ولم يقل (وإذا أمرضني) فنسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى.

وقال: ﴿وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشْرُ أُرِيدُ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١] وإرادة الشر للمجهول (أشر أريد) ونسب الخير والرشد إلى الرب (أراد بهم ربهم رشداً).

ومن ذلك ما جاء فيه في قصة موسى والرجل الصالح ، قال :

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ٧٦ ﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ٨٠ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ٨٢ ﴾ [الكهف].

فقال في خرق السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ وقال في قتل الغلام : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا ﴾ وقال في إقامة الجدار : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ . فإنه في خرق السفينة نسب العيب إلى نفسه ولم ينسبه إلى الله تعالى تنزيهاً له فقال : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ ^(١) . أما في قتل الغلام فجاء بالضمير مشتركاً لأن العمل مشترك ، فإن فيه قتل غلام وهو في ظاهر الأمر سوء ، وإبدال خير منه وهو خير ، فجاء بالضمير المشترك للعمل المشترك ثم قال : ﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَّوْهُ ﴾ فأسند الإبدال إلى الله وحده .

وأما إقامة الجدار فعمل كله خير فأسنده إلى الله سبحانه فقال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ٧ ﴾ [الحجرات] فأسند تزيين الإيمان في القلوب إلى ذاته سبحانه . وقال : ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ١١ ﴾ [آل عمران] فبنى تزيين حب الشهوات للمجهول ولم ينسبه إلى نفسه . وقال : ﴿ إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوْكَبِ ٦ ﴾ [الصافات] وقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِصَبِيحٍ ٥ ﴾ [الملك] وقال : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ١٦ ﴾ [الحجر] فأسند هذا التزيين الحسن إلى ذاته .

(١) انظر بدائع الفوائد ١٨/٢ ، ١٩ ، التفسير القيم ١٢-١٣ ، ٥٥٥-٥٥٦ .

وقال: ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْيَوْمَ الدُّنْيَا وَسَعْرُونَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة]. وقال: ﴿بَلْ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَضُدُّوْا عَنِ السَّبِيلِ﴾ [الرعد]. وقال: ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ الْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]. وقال: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَضُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [غافر]. وقال: ﴿زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة]. وقال: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا﴾ [الفتح].

فأنت ترى أنه ينسب تزيين الخير إلى نفسه بخلاف تزيين السوء. إنك قد تجد مثل قوله: ﴿زَيْنًا لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [النمل] ولكن لا تجد: (زيينا لهم سوء أعمالهم) فإن الله لا ينسب السوء إلى نفسه.

ومن هذا الباب ما تراه في القرآن الكريم في الكلام على الذين أوتوا الكتاب، فإنه على العموم إذا كان المقام مقام مدح وثناء، أظهر ذاته ونسب إيتاء الكتاب إلى نفسه: ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وإذا كان المقام مقام ذم وتقريع قال: (أوتوا الكتاب). ومن ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الحجرات] وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة، الأنعام ٢٠] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد]. وقوله: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة] ولذا ينزل عليهم قالوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا﴾ [القصص] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [العنكبوت] وقوله: ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء].

فأنت ترى أنه أسند الإيتاء إلى نفسه في مقام المدح والثناء، في حين قال: ﴿بَدَّ وَبِئْسَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَوْا ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة] وقال:

﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [١١٤] وَلَئِنْ أَتَيْتَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴿١١٥﴾ [البقرة]. فهو في مقام ذم لهم لأنهم
يعلمون الحق ثم يروغون عنه.

وقال: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَقِيًّا
بَيْنَهُمْ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ
يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
كَافِرِينَ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ وَلَسْتُمْ عَلَىٰ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَذَىٰ كَثِيرًا ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ
ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَقُوا بِهِ ثُمَّ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [آل عمران].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا
السَّبِيلَ ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْغَسَ
وُجُوهًا فَتَرُدَّهَا عَلَىٰ أَرْبَابِهَا أَوْ نُلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ [النساء].

وقال: ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْخِذُوا بِالَّذِينَ أَخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ
وَالْكَفَّارَ أُولِيَاءَ ﴾ [المائدة].

وقال: ﴿ فَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة].

وقال: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. وغير ذلك من الآيات.

فأنت ترى أنه في مقام الذم يبنى فعل الإيتاء للمجهول.

ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعِفُونَ مَشْرِقِ الْأَرْضِ وَمَغْرِبِهَا الَّتِي بَنَرُكُنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْزَنَّا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٢١].

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْزَنَّا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ﴾ [هـ: ٥٢] هُذًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ [غافر: ٥١].

بإسناد الفعل إلى ذاته في مقام المدح في حين قال: ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١١].

وقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْنَةَ ثُمَّ لَمْ يُحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَثْقَاراً﴾ [الجمعة: ٥] في مقام الذم^(١).

فأنت ترى أن الله سبحانه يذكر ذاته في الخير العام وينسبه إلى نفسه، بخلاف الشر والسوء^(٢).

فبنى القول للمجهول في الأعراف ولم يظهر الرب نفسه لأنهم هنا لا يستحقون هذا التشريف، وهو نحو قوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ (وأوتوا الكتاب).

(١) انظر التفسير القيم ٥٥٥ - ٥٥٦ .

(٢) ليس معنى هذا القول: إِنَّ الله سبحانه لا ينسب إلى نفسه عقوبة أو غضباً أو نحو ذلك، بل إنه ليفعل ذلك لأنه من الخير العام ولكنه لا ينسب إلى نفسه سوءاً فإنه من أكبر الخير أن يهلك الطغاة الظالمين ويستأصل شأفتهم، ولذا ترى في القرآن الكريم من مثل قوله تعالى: ﴿لَنُكَلِّكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٢] وقوله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [فاطر: ١١].

وقال في سورة البقرة: ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا﴾ أي: أن الأكل يكون عقب الدخول، لأن الفاء تفيد التعقيب، أي: بمجرد دخولكم تأكلون تَوّاً. وأما في سورة الأعراف فقال: ﴿اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا﴾ فالأكل لا يكون إلا بعد السكن والاستقرار وليس بعد الدخول.

ثم لاحظ الفرق أيضاً فقد قال في سورة البقرة: (فكلوا) أي: أن الأكل يكون بعد الدخول تَوّاً: ولم يأت بالفاء في الأعراف وإنما جاء بالواو ليفيد أنه ليس هناك من تعقيب، وأن الأكل سيحصل مع السكن ليس موقوتاً بزمان.

وفرق كبير بين الأمرين فهما كما تقول لشخص: أنت بمجرد دخولك يجيئك الأكل، أو تقول له: اذهب واسكن وإن الأكل يأتيك (غير محدد بزمان).

وقد تقول: إنك جعلت الواو مع السكن أكرم من الفاء في قصة آدم في البقرة والأعراف، فلماذا جعلت الفاء ههنا أكرم؟

والجواب: أن الأمر مختلف، ذلك أن قصة آدم ذكرت السكن في السورتين. قال تعالى في البقرة: ﴿وَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا ۝٢٥﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَبَعَادُمْ اَسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا ۝١٨﴾.

أما في قصة موسى فقد ذكرت الفاء مع الدخول والواو مع السكن. قال تعالى في البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا ۝٥٨﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اَسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا ۝١٦﴾. فالأمر مختلف وذلك أن الأكل في الأولى بعد الدخول، وفي الثانية مع السكن، فقال في البقرة: إن الأكل واقع في عقب الدخول فإذا دخلتم أكلتم فوراً من كل مكان شئتم رغداً. وقد جعله في الأعراف مع السكن والاستقرار ولم يحدد لهم الوقت. والدخول غير السكن لأن السكن لا يكون إلا بعد الدخول، فجعل الطعام في البقرة مهياً قبل السكن والاستقرار. وفي الأعراف مع السكن بلا تعقيب، فقد يطول الزمن وقد يقصر، فكان الموقف في البقرة أكرم وأفضل.

وقال في سورة البقرة: (رغداً) لأنه مناسب لتعداد النعم ولم يقل: (رغداً) في سورة الأعراف لأن المقام تقريع وتأنيب وأنهم لا يستحقون رعد العيش.

ثم انظر إلى تناظر هذه القصة مع قصة آدم فقد قال في قصة آدم: (رغداً) في البقرة دون الأعراف، نظير ما فعل في قصة موسى، لأن جو البقرة جو تكريم لآدم وتكريم لذريته من بني اسرائيل، في حين كان الجو في الأعراف جو عقوبات وتأنيب فلم يذكر الرعد في القصتين.

فانظر هذه الدقة في مراعاة جو السورة.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف قدّم (الرغد) في الجنة وأخره في الدنيا، فقال في الجنة: ﴿وَكَلَّا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ وقال في الدنيا: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَعْدًا﴾ [البقرة]. لأن الرغد في الدنيا قليل.

ومن ناحية أخرى انه لو وضعهما موضعاً واحداً لكان المعنى أنهما متساويان في الرغد، وهذا بعيد فإنه ليس من المعقول أن تتساوى الجنة والدنيا الدنيّة في الرغد. كما أن فيه إشارة إلى أن رغد الجنة مقدم على رغد الدنيا، فليعمل العاملون لنيل ذلك الرغد أولاً. فانظر هذا التأليف العجيب.

وقدّم السجود في سورة البقرة على القول فقال: ﴿وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً﴾ لسببين والله أعلم:

الأول: لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فناسب مقام التكريم.

الثاني: لأن السياق يقتضي ذلك، فقد جاءت هذه القصة في عقب الأمر بالصلاة قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ ﴿١٣١﴾ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٣٢﴾ ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَىٰ رَجْعِهِمْ ﴿١٣٤﴾ يَبْتَلِيهِمْ إِنْ صَبَرُوا أَمْ لَا نَبْتَلِيهِمْ أَمْ لَا نَعْلَمُ عَلَى الْغَالِبِينَ﴾ ﴿١٣٥﴾.

فناسب ههنا تقديم السجود لاتصاله بالصلاة والركوع، وكلا الأمرين مرفوع في سورة الأعراف فأخّر السجود.

وقال في سورة البقرة: ﴿ تَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ ۖ ﴾ ﴿٥٨﴾ بجمع الكثرة لأن الخطايا جمع كثرة، وهو مناسب لمقام تعداد النعم والتكريم، أي: مهما كانت خطاياكم كثيرة فإننا نغفرها لكم. وقال في سورة الأعراف: (خطيئاتكم) بجمع القلة لأن الجمع السالم يفيد القلة، أي: يغفر لهم خطيئات قليلة، وهو مناسب لمقام التقريع والتأنيب.

وقال في سورة البقرة: (وسنزيد) فجاء بالواو الدالة على الاهتمام والتنوع، ولم يجيء بها في سورة الأعراف والسبب واضح.

وقال في سورة البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ۖ ﴾ ﴿٥٩﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ ﴾ ﴿١٦٧﴾ وذلك لأنه سبق هذا القول في هذه السورة قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۖ ﴾ ﴿١٥٩﴾.

أي: ليسوا جميعاً على هذه الشاكلة من السوء، فناسب هذا التبعض التبعض في الآية السابقة. جاء في (التفسير الكبير): «قال الله تعالى في سورة البقرة: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا ۖ ﴾ ﴿٥٩﴾ وفي الأعراف: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا ۖ ﴾ ﴿١٦٧﴾ فما الفائدة في زيادة كلمة (منهم) في الأعراف؟

الجواب: سبب زيادة هذه اللفظة في سورة الأعراف أن أول القصة هنا مبني على التخصيص بلفظ (من) لأنه تعالى قال: ﴿ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ۖ ﴾ ﴿١٥٩﴾ فذكر أن منهم من يفعل ذلك، ثم عدد صنوف إنعامه عليهم وأوامره لهم. فلما انتهت القصة قال الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ ﴾ فذكر لفظه (منهم) في آخر القصة كما ذكرها في أول القصة ليكون آخر الكلام مطابقاً لأوله، فيكون الظالمون من قوم موسى بإزاء الهادين منهم، فهناك ذكر أمة عادلة وههنا ذكر أمة جائرة... وأما في سورة البقرة فإنه لم يذكر في الآيات التي قبل قوله: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۖ ﴾ تمييزاً وتخصيصاً حتى يلزم في آخر القصة ذكر ذلك التخصيص فظهر الفرق»^(١).

ومن ناحية أخرى إن في ذكر (منهم) تصريحاً بأن الظالمين كانوا من بني إسرائيل، ولم يذكر في البقرة (منهم) فلم يصرح بأنهم منهم تكريماً لهم. وكل تعبير مناسب للسياق الذي ورد فيه كما هو ظاهر.

وقال في سورة البقرة: (فأنزلنا). وقال في سورة الأعراف: (فأرسلنا).

ذلك لأن الإرسال أشد في العقوبة من الإنزال، قال تعالى في أصحاب الفيل: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٢﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَابٍ مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٣﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴿٤﴾﴾ [الفيل]. وكل منهما يناسب موطنه.

جاء في (التفسير الكبير): «لم قال في البقرة: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا﴾؟» وقال في الأعراف: (فأرسلنا)؟

الجواب: الإنزال يفيد حدوثه في أول الأمر، والإرسال يفيد تسلطه عليهم واستئصاله لهم بالكلية وذلك إنما يحدث بالآخرة^(١).

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى إن لفظ الإرسال كثر في الأعراف دون البقرة. فقد ورد لفظ الإرسال ومشتقاته في الأعراف ثلاثين مرة، وفي البقرة سبع عشرة مرة، فوضع كل لفظة في المكان الذي هو أليق بها. جاء في (البرهان) للكرمانى أنه عبر بالإرسال في الأعراف دون البقرة «لأن لفظ الرسول والرسالة كثر في الأعراف، فجاء ذلك وفقاً لما قبله، وليس كذلك في سورة البقرة»^(٢).

وقال في سورة البقرة: ﴿عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

وقال في سورة الأعراف: (عليهم) وهو أعم من الأول. أي: أن العقوبة أعم وأشمل وهو المناسب لمقام التقرير.

وقال في سورة البقرة: ﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

(١) التفسير الكبير ٣ / ٩٤ .

(٢) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السبيل للبكري.

وقال في الأعراف: ﴿يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١١٦) لأن الظلم أشد من الفسق، وهو المناسب لـ (إرسال) العذاب فذكر في كل سياق ما يناسبه.

وقال في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ (١٦) فموسى ههنا هو الذي استسقى ربه لقومه.

وقال في سورة الأعراف: ﴿إِذْ أَسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ﴾ (١١٦): أي أن قوم موسى استسقوا موسى، والحالة الأولى أكمل وأبلغ في النعمة.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ... أَنِ اضْرِبْ﴾.

فإن القول المباشر من الله أكمل وأشرف من الإيحاء.

وقال في سورة البقرة: ﴿فَأَنفَجَرَتْ﴾.

وقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَنبَجَسَتْ﴾.

وثمة فرق بين الانفجار والانبجاس فإن الانفجار للماء الكثير، والانبجاس للماء القليل. وكل تعبير يناسب موطنه. فإنه المقام في سورة البقرة مقام تعداد النعم كما ذكرنا. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية: إن موسى هو الذي استسقى ربه فناسب إجابته بانفجار الماء. ومن ناحية ثالثة: إن الله قال لموسى: اضرب بعصاك الحجر ولم يوح إليه وحياً، فناسب ذلك انفجار الماء الكثير الغزير، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف فجاء بالانبجاس^(١) والله أعلم.

وثمة سبب آخر دعا إلى ذكر الانفجار في البقرة والانبجاس في الأعراف علاوة على ما سبق، ذلك أنه قال في البقرة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ (١٦) فجمع لهم بين الأكل والشرب، ولم يرد في الأعراف ذكر الشرب فناسب ذلك

(١) انظر معترك الاقران ١ / ٨٧ - ٨٨ .

أن يبالغ في ذكر الماء في البقرة. جاء في (البرهان) للكرماني: «قوله: (فانفجرت) وفي الأعراف: (فانبجست) لأن الانفجار انصباب الماء بكثرة، والانبجاس ظهور الماء وكان في هذه السورة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ فذكر بلفظ بليغ. وفي الأعراف ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وليس فيه: (واشربوا) فلم يبالغ فيه»^(١).

وقيل: إن الماء أول ما انفجر كان كثيراً ثم قلّ بعضيانهم، فعبر في مقام المدح بالانفجار وفي حالة الذم بالانبجاس.

ومن مقام التكريم في البقرة أنه جمع لهم بين الأكل والشرب فقال: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ ولم يقل مثل ذلك في الأعراف بل قال: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾. وقد قال مثل هذا القول في البقرة: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٢٧). وزاد عليه الجمع بين الأكل والشرب.

ومقام التكريم واضح بين، جاء في (معترك الاقران): «إن آية البقرة في معرض ذكر النعم عليهم حيث قال: ﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾^(٢٨) فناسب نسبة القول إليه تعالى، وناسب قوله: (رغداً) لأن النعم به أتم. وناسب تقديم: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾^(٢٩) وناسب: (خطاياكم) لأنه جمع كثرة. وناسب الواو في: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ لدلالاتها على الجمع بينهما، وناسب الفاء في (فكلوا) لأن الأكل قريب من الدخول.

وآية الأعراف افتتحت بما به توبيخهم وهو قوله: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ثم اتخذهم العجل فناسب ذلك: (وإذ قيل لهم) وناسب ترك (رغداً) والسكن يجامع الأكل فقال: (وكلوا) وناسب تقديم مغفرة الخطايا وترك الواو في (سنزيد). ولما كان في الأعراف تبعيض الهادين بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾

(١) البرهان ٩٠ وانظر تسهيل السبيل.

ولم يتقدم في البقرة إشارة إلى سلامة غير الذين ظلموا، لتصريحه بالإنزال على المتصفين بالظلم. والإرسال أشد وقعاً من الإنزال، فناسب سياق ذكر النعمة في البقرة. وختم آية البقرة بـ: (يفسقون)، لأن الفسق لا يلزم منه الظلم، والظلم يلزم منه الفسق فناسب كل لفظ . . .

كذا في البقرة: (فانفجرت) وفي الأعراف: (انبجست) لأن الانفجار أبلغ في كثرة الماء^(١).

فانظر جمال هذا التعبير وقدّر أيكون هذا من كلام البشر؟

(١) معترك الأقران ١/ ٨٧ - ٨٩ وانظر درة التنزيل ١٤ - ٢٠ والبرهان للكرمانى ٨٨ - ٩٠.

١ - قصة موسى في الأعراف والشعراء

قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٢٨﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٩﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿١٣٠﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٣١﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٣٣﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَاشِعِينَ ﴿١٣٤﴾ يَا تُوكُ يَكْلُ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿١٣٥﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١٣٦﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٣٧﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١٣٨﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٩﴾ * وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١٤٠﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ فَغُلِبُوا هُنَاكَ وَانْقَلَبُوا صَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَ بَدِينٍ ﴿١٤٣﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٤﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٤٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسْلِبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٧﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٤٨﴾ وَمَا نَفْعُ مِنَّا إِلَّا أَتْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٤٩﴾ .

* * *

وقال في سورة الشعراء :

﴿وَلَمَّا نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١﴾ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَفَقَهُونَ ﴿٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣﴾ وَيَضْحِكُوا مِنِّي وَلا يَتَذَكَّرُوا أَلِيًّا يَصِلُ لِي لِإِسَاءِ فِرْعَوْنَ إِلَيَّ هَارُونَ ﴿٤﴾ وَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٥﴾ قَالَ كَلَّا فَادْهَبْ بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿٦﴾ فَأَتَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٨﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿٩﴾ وَقَعَلْتَ فَعَلْتَنَا آلِيًّا فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ فَعَلْنَاهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿١١﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّهَا عَلَىٰ أَنْ عِبَدْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ
 الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ لِيَنْ
 أَخَذَتْ إِلَهَا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ
 كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
 لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣١﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
 تَأْمُرُونَ ﴿٣٢﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتَّبِعْ فِي الدَّائِنِ حَسْرَتَهُ ﴿٣٣﴾ يَا نُفُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٤﴾
 فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿٣٥﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٦﴾ لَعَلَّآ نَنْبِئُكَ السَّحَرَةُ إِنَّ
 كَانُوا هُمُ الْفَٰلِغِينَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُفْرِقِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٠﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ
 فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤١﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَلَاثٌ مُنْقَلَبُونَ ﴿٤٢﴾ فَأَلْقَىٰ السَّحَرَةُ
 سِهَابَهُمْ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ أَمْسُدْ لَهُمُ الْقُلُوبَ وَأَمْسُدْ لَهُمُ
 أَلْبَابَهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ فَلَمْ يُقِرُّوهُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا لَا ضَرَرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلَبُونَ ﴿٤٧﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ .

* * *

إن موضوع القصة في سورة الأعراف هو تاريخ بني اسرائيل ، بدءاً من قصة موسى
 مع فرعون إلى ما بعد ذلك من أحداث . أما موضوعها في الشعراء فهو ذكر قصة
 موسى مع فرعون بالتفصيل إلى غرق فرعون وقومه . ومعنى ذلك أن ما في سورة
 الشعراء إنما هو جانب مما في الأعراف . ونحن يعيننا هنا ذكر الجانبين
 المتشابهين ، اللذين يتضح فيهما الحشد الفني من النظر في أوجه التشابه والاختلاف
 بين النصوص في الموطنين .

إن القصة في سورة الشعراء تتسم بسمتين بارزتين هما :

١ - التفصيل في سرد الأحداث .

٢ - قوة المواجهة والتحدي .

وقد بنيت القصة على هذين الركنين ، وجاءت كل ألفاظها وعباراتها لتحقيق هذين الأمرين .

أما القصة في سورة الأعراف فقد بنيت على الاختصار من ناحية ، كما أنها ليس فيها قوة المواجهة التي في الشعراء . وبملاحظة النصوص الواردة في كلا الموطنين يتجلى ما ذكرناه واضحاً .

تبدأ القصة في الأعراف بدعوة موسى فرعون إلى الهدى بأقصر كلام : ﴿ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَى أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ﴿١٠٥﴾ .

أما في الشعراء فقد بدأت بالأحداث السابقة لذلك ، فقد بدأت بأمر الرب لموسى أن يذهب إلى فرعون ليلبغه دعوة ربه وليرسل معه بني إسرائيل . فأظهر موسى خوفه من أن يكذبه وأن لا ينطلق لسانه . وذكر أن لهم عليه ذنباً خاف أن يقتلوه به وطلب أن يعينه بهرون . فطمأنه ربه بأنه معهما .

ثم ذكر المحاورة بينه وبين فرعون ، وقد ذكر فرعون منته عليه بتربيته في بيته وأنه فعل ما فعل من قتل المصري ، فأقرّ بذلك موسى وذكر من أمر فراره منهم ما ذكر .

ثم ذكر المحاجة بينهما في أمر الألوهية والربوبية . فقد سأل فرعون موسى قائلاً : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

فأجابه موسى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ ﴾ ﴿١٢٤﴾ [الشعراء] . فلا يرد عليه فرعون بالحجة ولكن حاول أن يؤلّب عليه من حوله ليسخروا منه . ﴿ قَالَ لِمَن حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿١٢٥﴾ فيمضي موسى قائلاً : ﴿ رَبِّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿١٢٦﴾ فيضيق فرعون بموسى ويرميه بالجنون قائلاً : ﴿ إِن رَّسُولَكُمُ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُم لِّمَجْنُونٍ ﴾ ﴿١٢٧﴾ .

فيمضي موسى يعرض دعوته من دون أن يلتفت إلى ما رماه به من الجنون . فقد أدرك موسى أن فرعون حاول أن يصرفه عن الكلام في العقيدة إلى الانتصار لنفسه ، ففوّت الفرصة عليه ومضى فيما هو فيه فقال معرضاً بعقولهم : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿١٢٨﴾ ، فما ملكك من هذا ؟!

فانظر كيف ناسب قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما رماه به من الجنون وعدم العقل .
ولما أعيته الحيلة وأعوزه المنطق توعدده وتهدده بالسجن قائلاً: ﴿لَئِنْ أَخَذَتْ آلِهَآ
غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ﴾ .

ولم يشر إلى هذه المحاجة في الأعراف لأن القصة بنيت هناك على الاختصار
وعدم التفصيل كما ذكرنا . كما أنها ليس فيها مثل هذه القوة في المواجهة .

ولننظر إلى الفروق التعبيرية بين القصة في السورتين لتبين كيف بنيت كل قصة
بحسب السياق الذي وردت فيه :

في الأعراف في الشعراء

قال الملأ من قوم فرعون	قال للملأ حوله
يريد أن يخرجكم من أرضكم	يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره
وأرسل في المدائن	وابعث في المدائن
بكل ساحر	بكل سحار
قالوا	قالوا لفرعون
إن لنا لأجراً	إن لنا لأجراً
وإنكم لمن المقربين	وإنكم إذن لمن المقربين
وألقي السحرة ساجدين	فألقي السحرة ساجدين
قال فرعون آمتم به	قال آمتم له
فسوف تعلمون	فلسوف تعلمون
ثم لأصلبكم أجمعين	ولأصلبكم أجمعين
قالوا إنا إلى ربنا منقلبون	قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون
وإليك إيضاح ذلك :	

١ - قال في الأعراف: ﴿ قَالَ أَمْلَأْ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١١٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (١٢٠) .

وقال في الشعراء: ﴿ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾ (٢٥) .

فالقائلون في آية الأعراف هم ملأ فرعون. في حين أن الذي قال في آية الشعراء هو فرعون نفسه. وذلك أن المحاجة كانت معه. ففي الآية الأولى كان فرعون في مقام غطرسة الملك والترفع عن الكلام. وأما في آية الشعراء فإن انقطاعه أمام موسى أنساه غطرسة الملك وكبريائه ودفعه إلى أن يقول هو وأن يتكلم هو وأن يستعين بملئه.

وزاد كلمة (بسحره) لمناسبة مقام التفصيل في الشعراء وللتأكيد على السحر فيها.

٢ - جاء في الأعراف: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (١٢١) وجاء في الشعراء: ﴿ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (٢٦) فقال في الأعراف: (وأرسل) وقال في الشعراء: (وابعث) وذلك لكثرة تردد فعل الإرسال في الأعراف كما سبق أن ذكرنا، فقد تردد فعل الإرسال ومشتقاته ثلاثين مرة في الأعراف، وتردد في الشعراء سبع عشرة مرة، فناسب ذلك ذكر الإرسال في الأعراف دون الشعراء.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أن المقام في الشعراء يقتضي ذكر الفعل (ابعث) دون (أرسل) ذلك أن البعث فيه معنى الإرسال وزيادة، فإن فيه معنى الإثارة والإنهاض والتهييج.

جاء في (لسان العرب) أن « البعث في كلام العرب على وجهين :

أحدهما: الإرسال كقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى ﴾ (الأعراف) معناه: أرسلنا. والبعث إثارة بارك أو قاعد تقول... بعث البعير فانبعث، حل عقاله

فأرسله أو كان باركاً فهاجه. وفي حديث حذيفة: أن للفتنة بَعَثَات ... قوله: (بعثات) أي: إثارات وتهيجات»^(١).

وفي (مفردات الراغب) أن «أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه يقال: بعثته فانبعث»^(٢).

والبعث قد لا يكون بإرسال شخص من مكان إلى آخر بل يكون بإنهاض شخص من المجتمع، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾^(٣) وهذا إنما يكون يوم القيامة، ومعناه: يوم ننهض ونقيم، وليس معناه: يوم نرسل. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِكَاءٍ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنَاقِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾^(٤) [البقرة].

ومعناه: «أنهض للقتال منا أميراً نصدر في تدبير الحرب عن رأيه وننتهي إلى أمره»^(٥).

فأجاب الله طلبهم قائلاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(٦) ومعناه: أنهضه فيهم، وليس معناه: أنه أرسله إليهم.

فالبعث قد يكون فيه معنى الإرسال وقد يكون فيه معنى الإنهاض. فلما كان المقام في الشعراء مقام زيادة تحدٍ وقوة مواجهة قال ملأ فرعون: ﴿وَأَبْعَثْ فِي آلِكَاءٍ حَاشِرِينَ﴾^(٧) فلم يكتفوا بالإرسال بل أرادوا أن ينهضوا من المجتمع حاشرين علاوة على الرسل، وهؤلاء من مهمتهم الإثارة وتهيج الناس على موسى. وهذا المعنى لا يؤديه لفظ (أرسل). فاقترضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

(١) لسان العرب (بعث).

(٢) مفردات الراغب ٥٢.

(٣) الكشف ١/ ٢٨٧، البحر المحيط ٢/ ٢٥٥.

٣ - قال في الأعراف: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ﴾ وقال في الشعراء: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَرٍ عَلِيمٍ﴾.

فقد جاء في الأعراف بصيغة اسم الفاعل (ساحر)، وجاء في الشعراء بصيغة المبالغة (سحّار)، وهذه الصيغة في الشعراء تتناسب مع المبالغة في قوة التحدي وشدة المواجهة بين فرعون وموسى، وتتناسب مع غضب فرعون البليغ واندفاعه للنيل من موسى. فهم أرادوا سحاراً بليغاً في السحر لا مجرد ساحر. وهذا يتناسب أيضاً مع مقام التأكيد على السحر، فإن السحر أكد وكرر في الشعراء أكثر مما في الأعراف، فقد ذكر في الأعراف سبع مرات وفي الشعراء عشر مرات. فانظر كيف اقتضى كل مقام اللفظة التي وردت فيه.

٤ - زاد في الشعراء قوله: ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢٣﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَفْغَلِينَ ﴿١٠﴾ وهو المناسب لمقام التفصيل ومقام التأكيد على السحر.

٥ - جاء في الأعراف: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ وَرَعُونَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ أَفْغَلِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٩﴾.

وجاء في الشعراء: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَمَّا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ أَفْغَلِينَ﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١٢٠﴾.

فانظر إلى الفرق بين التعبيرين، وكيف أن كل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه.

أ - قال في الأعراف: (قالوا) وقال في الشعراء: (قالوا لفرعون).

فذكر في الشعراء أنهم قالوا لفرعون، ولم يذكر في آية الأعراف أنهم قالوا له، وكل تعبير يتناسب مع السياق الذي ورد فيه، وذلك أنه ذكر في الأعراف أن ملاً فرعون هم الذين قالوا: ﴿إِنَّ هَذَا سَحَرٌ عَلِيمٌ﴾. وذكر في الشعراء أن فرعون هو الذي قال ذلك وأنه هو الذي تولى هذه المهمة بنفسه، فناسب ذلك أن يواجهوا فرعون بالقول، بخلاف ما في الأعراف.

ولا يفهم من هذا أن ثمة تناقضاً بين الموقفين، فقد قال فرعون هذا القول ورده ملؤه، فذكر القول عنه مرة وذكره عن الملأ مرة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق.

ب - قال في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا لَنَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِيْنَ﴾. وقال في الشعراء: ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِيْنَ﴾.

فقد حذف همزة الاستفهام في الأعراف وذكرها في الشعراء، وذلك أنه لما كان المقام مقام إطالة ومبالغة في المحاجة جيء بهمزة الاستفهام لتشارك في الدلالة على قوة الاستفهام والتصريح به.

ففي الآية الأولى أضمر المقول له وأضمر همزة الاستفهام، وفي الثانية صرح بالمقول له وبهمزة الاستفهام.

ج - قال في الأعراف: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. وقال في الشعراء: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

فزاد كلمة (إذن) في الشعراء لتدل على قوة الوعد وتوكيده وربط تقريبيهم بالغلبة، وذلك أن (إذن) حرف جواب وجزاء، وذكرها يدل على أن ما بعدها مشروط حصوله بحصول ما قبلها. وذلك نحو أن يقول لك شخص: (سأزورك) فتقول له: إذن أكرمك.

فـ (إذن) تدل على أن إكرامك له مشروط بالزيارة. والمعنى: إن زرتني أكرمتك وإلا فلا.

ونحوه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون]. والمعنى: إنه لو كان معه إله لذهب كل إله بما خلق. فـ (إذن) أفادت معنى الشرط. والمجيء بها في آية الشعراء أكد اشتراط تقريب السحرة بالغلبة. وذلك أنهم سألوا فرعون: أن غلبنا أعطينا أجراً؟ فقال لهم: نعم وإنكم إذن لمن المقربين؟ فذكر الشرط في السؤال وفي الجواب. وأما في الأعراف فكان الجواب ما يأتي: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

فلم يُعد الشرط في الجواب، وإنما اكتفى بالشرط الذي في السؤال. ولا شك أن إعادة الشرط في الجواب تفيد التوكيد وزيادة الاهتمام. وهذا نظير أن يقول لك شخص: إن فعلت ذاك أكرمتني؟ فتقول له: نعم أو تقول له: نعم إن فعلت ذاك.

فأنت كررت الشرط في جوابك الثاني للاهتمام به وتوكيده، بخلاف الجواب الأول. وهذا التكرار يدل على لهفة فرعون على غلبة موسى من ناحية، ومن ناحية أخرى إن مقام التحدي وقوة المواجهة في الشعراء اقتضى ذكرها فيها بخلاف الأعراف.

ثم إنهم لما أكدوا السؤال بزيادة الهمزة في الشعراء أكد لهم الجواب بذكر (إذن). وعلاوة على ذلك كله فإن ذكرها مناسب لمقام التفصيل في الشعراء دون مقام الأعراف المبني على الإيجاز والاختصار.

٦ - أقسم السحرة بعزة فرعون في الشعراء. قال تعالى: ﴿فَالْقَوَاءُ جَبَاهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ (٤١).

ولم يقل مثل ذلك في الأعراف، ذلك أن المقام هنا مقام الانتصار لعزة فرعون التي نال منها موسى في مواجهته ومحاجته له. وهم في مقام التزلف إليه والخطوة برضاه.

ثم انظر كيف ذكر الحبال والعصي في الشعراء وهو المناسب لمقام التفصيل فيها، ولم يذكر ذلك في الأعراف لأن المقام مقام إجمال.

٧ - ثم انظر بعد تأكيد الوعود وتمنية السحرة بالقربى منه والقسم بعزته كيف انقلب الأمر فجأة من دون مهلة: ﴿فَالْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَالْقَىٰ السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ (٤٦) [الشعراء].

هكذا بالترتيب والتعقيب من دون فاصل زمني بين اللقف والسجود: ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (٤٥) ﴿فَالْقَىٰ السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ (٤٦).

وهذا المشهد هو المناسب لقوة التحدي، فإن سرعة النصر الحاسم بعد قوة التحدي هو المناسب لمثل هذا المقام.

وقال في الشعراء: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَا أَصْلَبُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٩) فاعطاهم مهلة في الأعراف ذلك أنه قال: ﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٢٠). و(ثم) تفيد التراخي، ولم يعطهم مهلة في الشعراء وذلك لزيادة غضبه واحتراق قلبه من الغيظ.

١٢- قال في الأعراف: ﴿قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٢١) وقال في الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٢٢). فزاد (لا ضير) في الشعراء وهو المناسب لمقام التفصيل من ناحية، ثم إنه المناسب لمقام التهديد الشديد والوعيد المؤكد. فإن تهديده في الشعراء أشد وأكد مما في الأعراف، فلو أنهم قالوا في الأعراف: (لا ضير) دون الشعراء لظن أنهم هابوا التهديد الشديد فلم ينطقوا بما يدل على عدم الاكتراث، إذ من المعتاد أن يهرب الانسان التهديد الكبير دون الصغير، أما إذا استهانوا بالتهديد الكبير ولم يكثرثوا به فإن ذلك يدل - ولا شك - على أنهم أقل اكتراثاً بالتهديد الأدنى وأقل رهبة له. فناسب هذا أن يقولوه في موطن التهديد الشديد دون الأدنى.

وقد تقول: ولماذا لم يذكره في الموطنين؟

والجواب: إن ذكره في موطن التهديد الكبير يغني عن ذكره في الموطن الأدنى، وذلك من باب الأولى فيكون كأنهم ذكره في الموطنين.

ثم إن ذكره في الموطنين مخل بالإيجاز، إذ إن ذلك مفهوم من الموطن الأول. ثم إن بناء القصة في الشعراء قائم على التفصيل، وبناءها في الأعراف قائم على الاختصار، وذلك يقتضي أن يفصل ما يقتضي التفصيل، ويختصر ما هو معلوم وما لا حاجة لذكره؟ فافتضى ذلك أن يذكر القول في الشعراء الذي هو مقام الرهبة الشديدة ومقام التفصيل دون الأعراف الذي هو مقام التهديد الأدنى ومقام الاختصار.

ثم إن ذكره في الموطنين على السواء معناه أن المقامين متشابهان ولا فرق بينهما، ومن المعلوم أنهما ليسا متشابهين، فافتضى أن يذكر في كل موطن ما يتناسب معه من الأمور، فوضع كل تعبير في مكانه اللائق به تماماً.

ثم يمضي في الشعراء في غير الوجهة التي يمضي بها في الأعراف، فيمضي في الأعراف لذكره أحوال بني اسرائيل وتاريخهم والآيات التي أروها ومعاصيهم واستهانتهم بالنعم والآيات.

ويمضي في الشعراء لنهاية فرعون ونجاة بني إسرائيل. وغني عن القول أن اختيار الألفاظ والعبارات كان مقصوداً لخدمة الناحية الفنية في أدق معانيها وأكمل صورها.

تفسير سورة (التين)

ولنضرب مثلاً في تفسير سورة من قصار السور ونبين طرفاً مما فيها من أمور فنية ولتكن هذه السورة سورة التين .

سورة التين

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ ۝ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ۝﴾ .

ابتدأت السورة بالقسم بالتين والزيتون . والتين والزيتون قد يكون قصد بهما الشجران المعروفان ، وقد ذكر المفسرون لاختيار هذين الشجرين للقسم بهما أسباباً عدة ، فقد ذكروا أنه أقسم بنوعين من الشجر ، نوع ثمره ليس فيه عجم ، ونوع فيه عجم ، وأنه ورد في الأثر أن التين من شجر الجنة ، فقد روي أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طبق من تين فأكل منه وقال لأصحابه : «كلوا فلو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة لقلتُ هذه لأن فاكهة الجنة بلا عجم» . . وقد ذكر أن آدم خصف من ورقه ليستر عورته حين انكشفت في الجنة .

وأما الزيتون فإنه شجرة مباركة كما جاء في التزليل العزيز .

وقد ذكروا أموراً أخرى لا داعي لسردها ههنا .

ولا ندري هل لبدء السورة بالقسم بالشجر الذي يذكر أن له أصلاً في الجنة أعني التين له علاقة بعدد آيات هذه السورة أو لا ؟ فإن عدد آيات هذه السورة ثمانية وهن بعدد أبواب الجنة . قد يكون هذا القول خرساً محضاً وأنا أميلُ إلى ذلك ، ولكننا قد وجدنا شيئاً من أنواع هذه العلاقات في القرآن . فقد تكرر - كما سبق أن ذكرنا - قوله : ﴿فَإِنِّي ءَالَاءُ رَبِّكُمْ أَكْذِبَانِ﴾ [الرحمن] عند الكلام في وصف الجنة ثماني مرات بعدد أبواب الجنة ، وحصل ذلك مرتين في السورة ، وتكرر في الوعيد سبع مرات بعدد أبواب جهنم ابتداء من قوله : ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ (١) [الرحمن] .

(١) انظر ملاك التأويل ٨٨٨/٢ .

وقالوا : إن سورة القدر ثلاثون كلمة بعدد أيام شهر رمضان، وإن قوله : (هي) في قوله تعالى : ﴿ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعَ الْفَجْرِ ﴾ هي الكلمة السابعة والعشرون، وهي إشارة إلى أن هذه الليلة هي الليلة السابعة والعشرون من رمضان.

وعلى أي حال فإن كثيراً من هذه العلاقات ربما كانت موافقات والله أعلم.

وقيل : إن المقصود بالتين والزيتون جبلان من الأرض المقدسة يقال لهما بالسريانية طور تينا وطور زيتا لأنهما منبتا التين والزيتون^(١).

والعلاقة بين التين والزيتون وما بعدهما ليست ظاهرة على هذا إلا بتكلف. وقيل : « هذه محال ثلاثة بعث الله في كل واحد منها نبياً مرسلًا من أولي العزم أصحاب الشرائع الكبار. فالأول : محلة التين والزيتون وهي بيت المقدس التي بعث الله فيها عيسى بن مريم عليه السلام. والثاني : طور سينين وهو طور سيناء الذي كلم الله عليه موسى بن عمران. والثالث : مكة وهو البلد الأمين الذي من دخله كان آمناً، وهو الذي أرسل فيه محمداً صلى الله عليه وسلم »^(٢).

وجاء في (التبيان في أقسام القرآن) : « فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة. فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس... وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم. كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه ونجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم. وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه. ونظير هذا بعينه في التوراة التي أنزلها الله على كليمه موسى : (جاء الله من طور سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران).

فمجيئه من طور سيناء بعثته لموسى بن عمران، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع، ثم ثنى بنبوة المسيح، ثم ختمه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم »^(٣).

(١) التفسير الكبير ٣٢ / ٩، روح المعاني ٣٠ / ١٧٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٢٦ .

(٣) التبيان ٥٣ - ٥٥ .

وهذا هو الراجح فيما أرى لأن المناسبة بين هذه المحالّ المُقسّم بها ظاهرة على هذا.

ثم لننظر إلى ترتيب هذه الأشياء المقسم بها.

فقد بدأ بالتين فالزيتون. والزيتون أشرف وأفضل من التين فقد شهد الله له أنه شجرة مباركة قال تعالى: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور] وهي فاكهة من وجه وإدام من وجه وزيتها يُستعمل في إنارة المصابيح والشرج.

ثم أقسم بطور سينين وهو أفضل مما ذكر قبله، فإنه الجبل الذي كلم الرب عليه موسى وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم انظر من ناحية أخرى كيف وضع طور سينين بجوار الزيتون لا بجوار التين، وقد ورد ذكر الزيتون بجوار الطور في موطن آخر من التنزيل العزيز^(١).

قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَنِيعَ لِلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون] وهذه الشجرة هي شجرة الزيتون بإجماع المفسرين. قال الواحدي: «والمفسرون كلهم يقولون إن المراد بهذه الشجرة شجرة الزيتون»^(٢).

ثم أقسم بالبلد الأمين وهو مكة المكرمة: مكان مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومبعثه ومكان البيت الذي هو هدى للعالمين^(٣). وهو أفضل البقاع عند الله وأحبها إليه كما جاء في الحديث الشريف، فتدرّج من الفاضل إلى الأفضل ومن الشريف إلى الأشرف.

فأنت ترى أنه تدرّج من التين إلى الزيتون إلى طور سينين إلى بلد الله الأمين. فختم بموطن الرسالة الخاتمة أشرف الرسائل.

وقد وصف الله هذا البلد بصفة (الأمين) وهي صفة اختيرت هنا اختياراً مقصوداً لا يسدُّ مسدّها وصف آخر.

فالأمين وصف يحتمل أن يكون من الأمانة، كما يحتمل أن يكون من الأمن. وكلا المعنيين مراد.

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٠ / ١٩٣ .

(٢) انظر فتح القدير ٣ / ٤٦٣، روح المعاني ١٨ / ٢٢ - ٢٣ .

(٣) روح المعاني ٣٠ / ١٧٣ .

فمن حيث الأمانة وُصِفَ بالأمين لأنه مكانُ أداء الأمانة وهي الرسالة. والأمانة ينبغي أن تؤدي في مكان أمين. فالرسالة أمانة نزل بها الروح الأمين وهو جبريل، وأداها إلى الصادق الأمين وهو محمد، في البلد الأمين وهو مكة. فانظر كيف اختير الوصف ههنا أحسن اختيار وأنسبه.

فالأمانة حملها رسولٌ موصوف بالأمانة فأداها إلى شخص موصوف بالأمانة في بلد موصوف بالأمانة. جاء في (روح المعاني): «وأمانته أن يحفظ مَنْ دخله كما يحفظ الأمين ما يُؤْتَمَنُ عليه»^(١).

وأما من حيث الأمن فهو البلد الآمن قبل الإسلام وبعده، دعا له سيدنا إبراهيم عليه السلام بالأمين قبل أن يكون بلداً وبعد أن صار بلداً فقال أولاً: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة] وقال فيما بعد: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم] فهو مدعو له بالأمين من أبي الأنبياء. وقد استجاب الله سبحانه هذه الدعوة قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران]. وقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة].

ف (الأمين) على هذا (فعيل) للمبالغة بمعنى الآمن. ويحتمل أن تكون (الأمين) فعيلاً بمعنى مفعول، مثل: جريح بمعنى مجروح وأسير بمعنى مأسور، أي: المأمون، وذلك لأنه مأمون الغوائل^(٢).

جاء في (روح المعاني): «الأمين فعيل بمعنى فاعل أي الآمن من أُنْ الرجل بضم الميم أمانة فهو أمين... وأمانته أن يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما يؤتمن عليه... وأما بمعنى مفعول أي: المأمون من (أمنه) أي: لم يَخَفْهُ، ونسبته إلى البلد مجازية. والمأمون حقيقة الناس أي: لا تخاف غوائلهم فيه، أو الكلام على الحذف والإيصال أي: المأمون فيه من الغوائل»^(٣).

وجاء في (البحر المحيط): «وأمين للمبالغة أي: آمِنٌ مَنْ فيه ومن دخله وما فيه من طير وحيوان، أو من أُنْ الرجل بضم الميم أمانة، فهو أمين كما يحفظ

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) انظر روح المعاني ٣٠ / ١٧٣، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠، الكشف ٣ / ٣٤٨.

(٣) روح المعاني ٣٠ / ١٧٣.

الأمين ما يؤمن عليه. ويجوز أن يكون بمعنى مفعول من آمنه لأنه مأمون الغوائل»^(١).

وقد تقول: ولم اختار لفظ (الأمين) على (الآمن) الذي تردد في مواطن أخرى من القرآن الكريم؟ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمَاءَ امْنًا﴾^(٢) وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمَاءَ امْنًا وَبَسَخَفْنَا النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾^(٣).

والجواب: أنه باختياره لفظ (الأمين) جمع معني الأمن والأمانة، وجمع معنى اسم الفاعل واسم المفعول، وجمع الحقيقة والمجاز، فهو أمين وآمن ومأمون، وهذه المعاني كلها مرادة مطلوبة.

ثم انظر إلى جواب القسم وهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٤) [التين] كيف تناسب مع المُقَسَّم به تناسباً لطيفاً ولاءمه ملائمة بديعة. فإنه أقسم بالرسالات على بداية الإنسان ونهايته^(٥) فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٦) وهذه بدايته، ثم قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(٧) [التين] وهذه نهايته.

«ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين منهم مَنْ أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين. فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين»^(٨) والآخرين وهم المؤمنون الذين لهم أجر غير ممنون.

ولما كانت الرسالات إنما هي منهج للإنسان وشرية له، كان الجواب يتعلق بالإنسان طبيعة ومنهجاً، فذكر طبيعة الإنسان في قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(٩) وذكر المنهج في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾^(١٠) [التين].

وفي هذه إشارة إلى أن المنهج لا بد أن يكون متلائماً مع الطبيعة البشرية غير مناقض لها وإلا فشل.

فكان الجواب كما ترى أوفى جواب وأكمل وأنسب شيء لما قبله وما بعده.

(١) البحر المحيط ٨ / ٤٩٠ وانظر الكشاف ٣ / ٣٤٨ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ٥٥ .

(٣) التبيان ٥٦ .

ثم انظر من ناحية أخرى إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾^(١) فإنه أسند الخلق إلى نفسه ولم يَبْنِه للمجهول، وذلك أنه في موطن بيان عظيم قدرته وحسن فعله وبديع صنعه فأسند ذلك إلى نفسه، وهذا في القرآن خط واضح، فإنه في مثل هذا المقام وفي مقام النعمة والتفضل يسند الأمر إلى نفسه قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾^(٢) [الأعراف] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِن مَّاعِمِلْت أَيْدِينَا أَنْعَمَّا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾^(٣) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾^(٤) [يس].

فانظر كيف أسند الخلق في مقام النعمة والتفضل إلى ذاته في حين قال: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^(٥) [النساء] ببناء الفعل للمجهول لما كان القصد بيان نقص الإنسان وضعفه. وقال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^(٦) [الأنبياء] وقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾^(٧) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا^(٨) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا^(٩) [المعارج]. فانظر إلى الفرق بين المقامين. وقد مر شيء من هذا في موطن سابق.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أنه أسند الخلق إلى نفسه لأن المقام مقام بيان منهج للإنسان، فأراد أن يبين أن واضع المنهج للإنسان هو خالق الإنسان ولا أحد غيره أعلم بما يصلح له وما هو أنسب له، ولو بني الفعل للمجهول لم يفهم ذلك صراحة.

فأنت ترى أن إسناد الخلق إلى ذات الله العلية أنسب شيء في هذا المقام. وقد تقول: ولم أسند الرد أسفل سافلين إلى نفسه فقال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾^(١٠) [التين] وهذا ليس مقام تفضل ولا بيان نعمة؟

فنقول: إن هذا الإسناد أنسب شيء ههنا ولا يليق غيره، وذلك أنه أراد أن يذكر أن بيده البداية والنهاية، وأنه القادر أولاً وأخيراً لا معقب لحكمه يفعل ما يشاء في البداية والختام، وهذا لا يكون إلا بإسناد الأمر إلى ذاته العلية.

ألا ترى أنه لو قال: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رد أسفل سافلين) لكان يفهم ذاك أن هناك راداً غيره يفسد خلقته ويهدم ما بناه؟

ومعنى قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنه صيره على أحسن ما يكون في الصورة والمعنى والإدراك وفي كل ما هو أحسن^(١١) من الأمور المادية والمعنوية.

(١) انظر روح المعاني ٣٠ / ١٧٥، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

وقال بعدها: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ (ثم) التي تفيد الترتيب والتراخي، لأن كونه أسفل سافلين لا يعاقب خلقه بل يتراخى عنه في الزمن، فهي من حيث الوقت تفيد التراخي، كما أنها من حيث الرتبة تفيد التراخي، فرتبة كونه في أحسن تقويم تتراخى وتبعد عن رتبة كونه في أسفل سافلين، فثمة بَوْنٌ بعيد بين الرتبتين فأفادت (ثم) ههنا التراخي الزماني والتراخي في الرتبة.

واختلف في معنى ﴿أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فذهب قسم من المفسرين إلى أن المقصود به أرذل العمر، والمراد بذلك: الهرم وضعف القوى الظاهرة والباطنة وذهول العقل حتى يصير لا يعلم شيئاً^(١).

ومعنى الاستثناء على هذا أن الصالحين من الهرمى لهم ثواب دائم غير منقطع^(٢) يُكْتَبُ لهم في وقت شيخوختهم كما كان يكتب لهم في وقت صِحَّتِهِمْ وقوتهم. وفي الحديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا رُدَّ لِأَرْذَلِ الْعُمَرِ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي قَوْتِهِ» وذلك أجر غير ممنون^(٣) أي: غير منقطع.

وذهب آخرون إلى أن المقصود به أسفل الأماكن السافلة وهو جهنم أو الدرك الأسفل من النار.

ومعنى الاستثناء على هذا ظاهرٌ، فالصالحون مستثنون من الرد إلى ذلك.

وركز بعضهم على الخصائص الروحية. جاء في (ظلال القرآن): «والتركيز في هذا المقام على خصائصه الروحية. فهي التي تنتكس إلى أسفل سافلين حين ينحرف عن الفطرة ويحيد عن الإيمان المستقيم معها. فهو مهياً لأن يبلغ من الرِّفْعَةِ مدى يفوق مقام الملائكة المقربين... بينما هذا الإنسان مهياً حين ينتكس لأن يهوي إلى الدرك الذي لا يبلغ إليه مخلوق قط: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. حيث تصبح البهائم أرفع وأقوم لاستقامتها على فطرتها...»

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فهؤلاء هم الذين يبقون على سواء الفطرة ويكملونها بالإيمان والعمل الصالح. ويرتقون بها إلى الكمال المقدر لها^(٤).

(١) روح المعاني ٣٠ / ١٧٦، البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

(٢) الكشاف ٣ / ٣٤٨.

(٣) البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

(٤) في ظلال القرآن ٣٠ / ١٩٤.

وظاهر أن معنى الآية يتسع لكل ما ذكروه، وهي تفيد أيضاً أن حياة غير المؤمن نكد وغم، وعيشة ضنك وشقاء قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه] وقال: ﴿وَمَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج].

فحياة هؤلاء هابطة سافلة بل هم في أسفل سافلين. ثم لننظر إلى الاستثناء وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين] فإنه استثنى من الرد أسفل سافلين مَنْ آمَنَ وعمل صالحاً ولم يزد على ذلك، فلم يقل مثل ما قال في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ وذلك لاختلاف الموطنين، فإن سورة العصر في بيان الخسران الذي يصيب الإنسان، وسورة التين فيما ينجي من دركات النار، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [١] إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ [٢] إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [٣] فبين لنا أن الإيمان والعمل الصالح يمنعه من الرد أسفل سافلين. ولكن لا يمنعه من الخسران الذي يفوته فيما لو تواصى بالحق وبالصبر فإن كل من ترك شيئاً من ذلك خسر شيئاً من الأجر الذي كان يربحه فيما لو فعله، فانظر الفرق بين الموطنين وبين الاستثناءين.

جاء في (التيان): « وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [٢] فإنه ضيق الاستثناء وخصصه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [٣] ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين] وَسَعِ الاستثناء وعممه فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [٣] ولم يقل: (وتواصوا) فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين.

فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة. وقد تكون فرضاً على الأعيان. وقد تكون فرضاً على الكفاية وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يُستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يُستحب. فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب

عليهم في أنفسهم ولم يأمرؤا غيرهم به. وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهلهم. فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء»^(١).

ثم قال: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ١] قيل: ومعنى غير ممنون غير منقوص ولا منقطع، وقيل: معناه غير مكدر بالمنّ عليهم^(٢). والحق أن كل ذلك مراد وهو من صفات الثواب، لأنه يجب أن يكون غير منقطع ولا منغصاً بالمنة^(٣).

فقال: (غير ممنون) ليجمع هذه المعاني كلها، ولم يقل: غير مقطوع ولا نحو ذلك فيفيد معنى دون آخر.

ثم انظر كيف زاد الفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ولم يفعل مثل ذلك في آية شبيهة بها وهي قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الإنشقاق: ٢٥] بدون فاء. وذلك لأن السياقين مختلفان. فسياق سورة الإنشقاق أكثره في ذكر الكافرين، وقد أطال في ذكرهم ووصف عذابهم فقال: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ﴾ [١٠] ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [١١] وَيَصْلَى سَعِيرًا [١٢] إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا [١٣] إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ [١٤] بَلَى إِنْ رَأَيْتَ كَانَ بِهِ بَصِيرًا [١٥] [الإنشقاق] ثم قال مقررًا للكافرين مؤنباً لهم: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٢٠] وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ [٢١] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ [٢٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ [٢٣] فَفَشَرَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٢٤] إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الإنشقاق: ٢٥].

في حين لم يزد في الكلام على المؤمنين عن قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِرَمِينٍ﴾ [٧] ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [٨] وَنَقَلَبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا [٩] [الإنشقاق].

فانظر كيف أطال في وصف الكافرين وأعمالهم وعقابهم، وأوجز في الكلام على المؤمنين، ولذا حذف الفاء من جزاء المؤمنين في سورة الإنشقاق مناسبة للإيجاز. في حين لم يذكر الكافرين في سورة التين ولم يزد على أن قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ يعني الإنسان، وهو غير صريح في أن المقصود به الكافرون أو غيرهم كما أسلفنا.

(١) التبيان ٩١.

(٢) انظر البحر المحيط ٨ / ٤٩٠، روح المعاني ٣٠ / ١٧٦.

(٣) التفسير الكبير ٣٢ / ١١.

ثم انظر إلى كل من السورتين كيف تناولت الكلام على الإنسان. فقد بدأت سورة الإنشقاق بذكر كدح الإنسان ومشقته ونصبه: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ ﴿١﴾ وتوعده ربُّه بركوب الأهوال والشدائد المتتابعة التي يفوق بعضها بعضاً في الشدة فقال: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالْشفقِ﴾ ﴿١١﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ ﴿١٩﴾.

في حين بدأ في سورة التين بتكريم الإنسان فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ﴿١﴾ فناسب ذلك تأكيد استمرار أجره وعدم تنغيصه، وذلك بزيادة الفاء في التين دون الإنشقاق.

ثم قال بعدها: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ بِالذِّينِ﴾ ﴿٧﴾. والمعنى: أي شيء يجعلك أيها الإنسان مكذباً بالجزاء بعد هذا الدليل الواضح؟ والمعنى: أن خلق الإنسان من نطفة وتقويمه بشراً سويّاً وتدريبه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوي مع تحويله من حال إلى حال، أوضح دليل على قدرة الخالق على الحشر والنشر^(١) فإن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه خلقك الأول^(٢).

فانظر جلالة ارتباط هذا الكلام بما قبله.

ثم انظر كيف استدل على الجزاء بالأدلة النقلية والعقلية. فالدليل النقلية هو ما أخبرت به الرسالات السماوية، وقد ذكر من هذه الرسالات كبرها وهي رسالات موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام.

والدليل العقلي هو الاستدلال بخلق الإنسان في أحسن تقويم وتدريبه في مراتب الزيادة والنقص.

ثم انظر كيف اختار كلمة (الدين) ولم يختار كلمة الجزاء أو الحساب أو النشور ونحوها، وذلك لما تقدم ذكر مواطن الرسالات ناسب ذلك ذكر الدين، لأن هذه أديان، ولأنه قد يراد بذلك معنى (الدين) علاوة على معنى الجزاء. والمعنى أي شيء يجعلك مكذباً بصحة الدين بعد هذه الأدلة المتقدمة؟ فالذي خلقك

(١) الكشف ٣/ ٣٤٩، التفسير الكبير ٣٢/ ١٢.

(٢) التبيان ٦١.

في أحسن تقويم يرسم لك أحسن منهج تسعد به في الدنيا وفي الآخرة. فجمعت كلمة (الدين) معنى الدين ومعنى الجزاء في آن واحد، ولو قال: فما الذي يكذبك بالجزاء لم يجمع هذين المعنيين.

فأنت ترى أنه اختار كلمة (الدين) لتقع في موقعها المناسب لها تماماً. ثم قال بعدها: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ (١). و(أحكم الحاكمين) يحتمل أن يكون معناه: أعظم ذوي الحكمة وأحسنهم تدبيراً، ويحتمل أن يكون معناه، أقضى القاضين، لأن (حكم) يحتمل أن يكون من الحكمة، ويحتمل أن يكون من القضاء وهو الفصل في المحاكم.

وعلى الوجه الأول يكون المعنى: أليس الذي فعل ذلك بأحكم الحاكمين صنْعاً وتديراً وأن حكمته بالغة لا حدود لها. وإذا تبين أن الله سبحانه أحكم الحاكمين - وهو بَيِّنٌ - تعيَّنت الإعادة والجزاء لأن حكمته تأبى أن يترك الإنسان سدى ولا يحاسب على أعماله، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته (١)؟.

وعلى الوجه الثاني يكون المعنى: أليس الله بأقضى القاضين (٢) فيحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون، كما قال تعالى: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر].

فانظر قوة ارتباط هذه الآية بما قبلها على كلا الوجهين، فإن حكمته تقتضي الإعادة والجزاء. والجزاء والفصل بين الخلائق يقتضي وجود قاضٍ، بل يقتضي وجود أقضى القاضين.

فجمع بهذه العبارة معنيين: القضاء والحكمة، بل لقد جمع معاني عدة بهذا التعبير، إذ كل لفظ من (أحكم الحاكمين) يحتمل أن يكون بمعنى القضاء والحكمة فيكون قد جمع أربعة معان كلها مرادة وهي (أحكم الحاكمين) بمعنى: أكثرهم حكمة و (أقضى الحكماء) و (أقضى القضاة) و (أحكم القضاة).

فانظر كيف جمع أربعة معان تؤدي بأربع عبارات في عبارة واحدة موجزة. ولو قال: (أقضى القاضين) لدلت على معنى واحد.

(١) انظر التبيان ٣٣ وما بعدها، التفسير الكبير ٣٢ / ١٢.

(٢) روح المعاني ٣٠ / ١٧٧، مجمع البيان ١٠ / ٥١٢.

ثم انظر كيف جعل ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري ولم يجعله بالأسلوب الخبري فهو لم يقل: (إن الله أحكم الحاكمين) ولا نحو ذلك، وإنما قرر المخاطب ليقوله بنفسه وليشترك في إصدار الحكم فيقول: بلى ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ثم انظر إلى ارتباط خاتمة السورة بفاتحتها، فإن فاتحة السورة في ذكر مواطن الرسالات العظمى وارتباطها بخاتمتها واضحٌ بَيِّن، فإن الذي أنزل هذه الشرائع العظيمة وما تضمنته من أحكام سامية هو أحكم الحاكمين.

ثم انظر إلى التنسيق الجميل في اختيار خواتم الآي، فإن خاتمة كل آية اختيرت لتجمع عدة معانٍ في آن واحد. فاختيرت (الأمين) لتجمع معنيي الأمن والأمانة، و(أسفل سافلين) لتجمع معنى أرذل العمر ودركات جهنم السفلى. و(غير ممنون) لتجمع معنى غير مُنْقَطِع ولا مُنْغَصٍ بِالْمِنَّةِ عليهم، وكلمة (الدين) لتجمع الجزاء والدين - و(أحكم الحاكمين) لتجمع الحكمة والقضاء.

فانظر هذه الدقة في الاختيار وهذا الحُسْنُ في التنسيق. أليس الذي قال ذلك بأحكم الحاكمين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

المراجع

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي - ط ٣/ ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.
- الإعجاز العددي للقرآن الكريم - عبدالرزاق نوفل ط ٣.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - مصطفى صادق الرافعي ط ٦/ ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م، مطبعة الاستقامة في القاهرة.
- أنوار التنزيل - القاضي البيضاوي - المطبعة العثمانية ١٣٠٥هـ.
- الإيضاح للقزويني - تحقيق وتعليق لجنة من أساتذة كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر - مطبعة السنة المحمدية.
- البحر المحيط لأبي حيان ط ١ سنة ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة بمصر.
- بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية - الطباعة المنيرية.
- بديع القرآن لابن أبي الأصبع المصري تحقيق حفي شرف ط ١ مكتبة نهضة مصر.
- البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ط ١/ ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م، دار إحياء الكتب العربية.
- البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان - محمد بن حمزة الكرمانلي. رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية حققها الطالب ناصر بن سليمان العمر - مكتوب بالآلة الكاتبة.
- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن - الزمكاني. تحقيق الدكتورة خديجة الحديثي والدكتور أحمد مطلوب - مطبعة العاني - بغداد ط ١/ ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هرون ط ٢ نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة ومكتب الهلال ببيروت.

— تاج العروس شرح القاموس لمحمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي منشورات مكتبة الحياة - بيروت، تصوير، الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية بمصر سنة ١٣٠٦هـ.

— التبيان في أقسام القرآن لابن القيم - مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤ - بتحقيق عصام فارس الحرستاني.

— تحرير التحرير لابن أبي الإصبع المصري تحقيق حفني شرف، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي - القاهرة.

— تسهيل السبيل في فهم معاني التنزيل لمحمد تاج الدين أبي الحسن البكري مخطوطة بمكتبة الأوقاف ببغداد برقم ٢٣٢٠.

— التصوير الفني في القرآن - سيد قطب.

— التعبير الفني في القرآن - الدكتور بكري شيخ أمين - دار الشروق، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

— التفسير القيم لابن القيم - جمع محمد أويس الندوي - مطبعة السنة المحمدية ١٣٨٦هـ - ١٩٧٣م.

— التفسير الكبير لفخر الدين الرازي - المطبعة البهية - مصر.

— تفسير ابن كثير طبع بدار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه.

— حاشية الصبان على شرح التصريح للشيخ يس بن زيد الدين العليمي الحمصي طبعت مع شرح التصريح - دار إحياء الكتب العربية.

— حاشية ابن المنير على الكشاف طبعت مع الكشاف.

— دراسات في اللغة للدكتور إبراهيم السامرائي - مطبعة العاني - بغداد سنة ١٩٦١م.

— درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ١/ ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي،
إدارة الطباعة المنيرية - دار إحياء التراث العربي.
- سيرة النبي ﷺ لمحمد بن إسحاق هذبها ابن هشام تحقيق محمد محيي الدين
عبد الحميد - نشر محمد علي صبيح وأولاده، مطبعة المدني ١٣٨٣هـ -
١٩٦٣م.
- شرح التصريح على التوضيح لخالد بن عبدالله الأزهرى - دار إحياء الكتب
العربية.
- شرح الدماميني على مغني اللبيب طبع بهامش حاشية الشمني على مغني
الليبيب - المطبعة البهية بمصر.
- الطراز ليحيى بن حمزة العلوي - مطبعة المقتطف بمصر سنة ١٣٣٢هـ -
١٩١٤م.
- فتح القدير لمحمد بن علي بن محمد بن عبدالله الشوكاني ط ١ - مطبعة
مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٤٩هـ.
- في ظلال القرآن لسيد قطب - الطبعة الأولى.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل - لجارالله
الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر سنة ١٣٦٧هـ -
١٩٤٨م.
- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور المصري -
مصور على طبعة بولاق.
- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي - كتا بفروشي إسلامية - طهران.
- معاني الأبنية في العربية للدكتور فاضل صالح السامرائي ط ١، ١٤٠١هـ -
١٩٨١م الشركة المتحدة للتوزيع - بيروت.
- معاني النحو - الدكتور فاضل صالح السامرائي -

— معترك الأقران في إعجاز القرآن لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد علي
البجاوي - دار الثقافة العربية للطباعة.

— مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري تحقيق محمد محيي
الدين عبدالحميد.

— المفردات في غريب القرآن لأبي القاسم الحسيني بن محمد المعروف بالراغب
الأصفهاني - طهران.

— ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من أي
التنزيل لأبي جعفر أحمد بن الزبير الغرناطي تحقيق الدكتور محمود كامل
أحمد - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

— من بلاغة القرآن - أحمد أحمد بدوي - مطبعة لجنة البيان العربي.

— همع الهوامع شرح جمع الجوامع لجلال الدين السيوطي ط ١ سنة ١٣٢٧هـ
مطبعة السعادة بمصر.

الصفحة	الموضوع
٥	تقديم
٧	التعبير القرآني
٢٢	البنية في التعبير القرآني
٤٩	التقديم والتأخير
٧٤	الذكر والحذف
١٢٥	التوكيد في القرآن الكريم
١٧٣	التشابه والاختلاف
٢١٧	فواصل الآي
٢٣٧	السمة التعبيرية للسياق
٢٥٢	الحشد الفني
٢٨٣	الحشد الفني في القصص القرآني
٢٨٥	قصة سيدنا آدم عليه السلام
٢٨٥	١ - قصة آدم في سورتي البقرة والأعراف
٢٩٧	٢ - قصة آدم في سورتي الأعراف و (ص)
٣٠٢	٣ - قصة آدم في الحجر و (ص)
٣١١	قصة سيدنا موسى عليه السلام
٣١١	١ - في البقرة والأعراف
٣٢٥	٢ - في الأعراف والشعراء
٣٣٧	تفسير سورة التين
٣٤٩	المراجع

